ج. و. بيدج

الشعوب البدائية

في وقتنا الحاضر

ترجمة

محمود موسى

مراجعة

زكي الرشيدي

الكتاب: الشعوب البدائية في وقتنا الحاضر

الكاتب: ج. و. بيدج

ترجمة: محمود موسى

مراجعة: زكي الرشيدي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بيدج، ج. و.

الشعوب البدائية في وقتنا الحاضر/ ج. و. بيدج، ترجمة: محمود موسى، مراجعة: زكي الرشيدي.

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٩٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٠٥ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧١١٤ / ٢٠٢٠

الشعوب البدائية في وقتنا الحاضر





مقدمة المؤلف

هذا الكتاب موضوع لفائدة الطالب وفائدة القارئ العادي، ولكنه لا يخلو كذلك من فائدة للمدرسين لا سيما الذين يهتمون بدراسة أحوال الشعوب الأخرى، وهي دراسة تدخل ضمن الدراسة في كثير من المدارس.

ويهدف الكتاب إلى تسهيل المعرفة الصحيحة بالأحوال الحالية للجماعات البدائية، وهي معلومات لا وجود لها إلا في ما كتبه الرواد والباحثون وسجلوه في المجلات العلمية التي لا يسهل لكل إنسان الحصول عليها. وقد توخيت الابتعاد قدر المستطاع عن المصطلحات الفنية، ومع أني لم أذكر كل حقيقة المصر الخاص الذي أخذت عنه إلا أني حرصت على إيراد كشف بالمصادر التي رجعت إليها.

وليست الشعوب التي تناولها هذا الكتاب متساوية في درجات ثقافتها، ولكننا نستطيع بالطبع أن نقسمها إلى أنواع ثلاثة: الجماعين والرعاة والزراعين البدائيين، وهم جميعاً يعيشون في جماعات بسيطة، مع أن لفظ "بدائي" لم يعد ينطبق على البعض منهم، ثم إن البعض الآخر لم يعد له الآن وجود، وفي هذه الحالة الأخيرة يتناول بحثنا ما كان من طرق معيشتهم عندما اكتشفهم الأوروبيون أول مرة.

وقد اهتممنا بذكر نبذة جغرافية عن موطن كل شعب من الشعوب، ودرسنا أثر هذا الوطن في طرق حياته، كما أوردنا في كثير من الحالات ما اعترى حياة الشعب من تغيير نتيجة لاختلاطه بغيره من الأجناس– ولا سيما

الجنس الأبيض- على أننا لم نتعرض إلا قليلاً للعقائد الدينية، لأن الخوض في العقيدة أمر غير يسير ولأن الجدل فيها لا ينتهي إلى نتيجة.

ولا يفوتني أن أنوه بما أدين به من الفضل لكثير من المؤلفين الذين تفضلوا بالسماح لي باقتطاف كثير مما ورد في كتاباتهم، كما أني أدين لمن تكرموا وسمحوا لي باقتباس ما جاء بكتبهم من وسائل التوضيح، فإنهم قد أضافوا بذلك كثيراً إلى ما قد يكون لهذا الكتاب من قيمة، وقد حرصت على الاعتراف بالفضل لكل منهم قرين اسم المصدر الخاص به.

وأخيراً لا يفوتني أن أقدم شكري لكريمتي على ما قامت به من قراءة مسودات الكتاب وتصحيح أصوله عند الطبع.

ج. و. بيدج

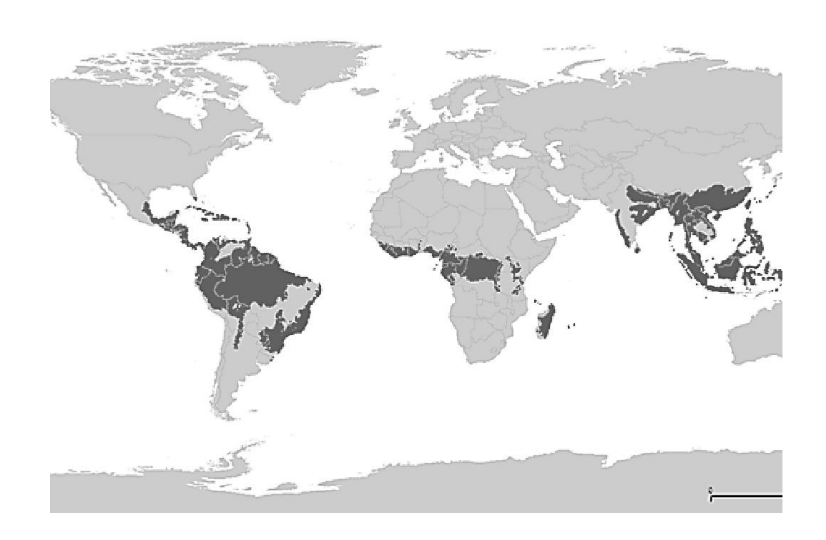
القسم الأول

الصيادون والجماعون

الفصل الأول

الأقزام الإفريقيون

يقتصر وجود الشعوب البدائية اليوم على الجهات المنعزلة من العالم حيث يكون الحصول على الطعام أمراً شاقاً لسبب أو لآخر، ويعبر عن مثل هذه الجهات باسم "أقاليم الصعوبة" ومن أمثلتها منطقة الغابات الكثيفة. ذات النمو العظيم وتغطى السهول الاستوائية في العالم مثل حوض الكنغو في إفريقية وشبه جزيرة الملايو وأرخبيل الملايو في آسيا، وحوض الأمزون في أمريكا الجنوبية.



موقع الغابات الاستوائية

ومن مميزات السهول الاستوائية اشتداد الحرارة وغزارة الأمطار مما يجعل تلك الجهات ذات قوة هائلة تساعد على اشتداد سرعة النمو في جميع أنواع النباتات، فتنمو أشجار ضخمة يختلف قطرها من قدم إلى خمسة أقدام وطولها نحو مائتي قدم يلاصق بعضها بعضاً، بينما تبدو كل واحدة منها كأنما قد شدت إلى جارتها بمتسلقات هائلة تمد سيقانها الضخمة التي تشبه الحبال الغليظة فتصل بها بين كل شجرة وما يليها. أما النباتات التحتية المنتشرة بين الأشجار فتبلغ كثافتها حداً عظيماً حتى ليخيل إلى الإنسان أن السير فوق قمم الأشجار أهون عليه من شق طريقه وسط ذلك النمو المتشابك. وفي الشعاب بين الأغصان تنمو أنواع من الطفيليات مثل الأوركديا وغيرها يتراكم بعضها فوق بعض.

ولا يستطيع السائر خلال الغابة أن يلحظ جمالها، فإن ذلك الجمال لا يكتشف عن نفسه إلا على أطراف الغابة أو على شواطئ الأنهار التي تنساب خلالها والهواء في الغابة خانق والأبخرة تتصاعد في سحب رزق لا تلبث أن تذوب عند ظهور الشمس، ومع ذلك لا يكاد ضوء الشمس ينفذ خلال الغطاء النباتي الكثيف. وأروع ما يكون السكون في الغابة في الصباح حيث لا يكاد يسمع قرقعة الفروع الجافة تتكسر تحت أقدام السائر. وفي الغابات بعض الممرات الطبيعية المكشوفة تسير فيها مجار مائية بطيئة الجريان، وإلى هذه المجاري تقصد حيوانات الغابة لترتوي مخترقة في سيرها أنفاقاً من الخضرة مظلمة، سقوفها الأشجار المتشابكة، وتعمل الرطوبة والحرارة المرتفعة والحشرات الفتاكة العديدة على جعل هذه الأقاليم غير صالحة لإقامة الأوروبيين.

وتعيش في هذه الجهات شعوب من الأقزام، فالذين يعيشون منهم في الغابات الإفريقية يطلق عليهم في العادة اسم نجرلو Negrillos بينما يعرف نظراؤهم في جنوب آسيا الشرقي (الأندمان في جزر أندمان، والسيمانج في شبه جزيرة الملايو والأييتا Aeta في جزر الفلبين والتابيرو Tapiro في غانة الجديدة) باسم النجرتو Negritos، وهم جميعاً أقزام؛ أما الذين يعيشون في غابات الأمزون فقبائل من هنود أمريكا قصار القامة، ولكنهم غير أقزام.

وفي مصر القديمة كانت الرغبة في الأقزام كبيرة في بلاط الفراعنة، فكانت البعوث ترسل خصيصاً لتأتي بهم من الأقطار الجنوبية. وقد ورد في ما كتبه المؤلفون القدماء مثل هوميروس وارسطو وبليني Pliny ذكر قبائل من الناس قصار القامة في أنحاء مختلفة من العالم، ونسج الخيال حولهم كثيراً من الأساطير، ومع ذلك بقي كثير من الناس بعد ذلك قروناً عديدة وهم لا يصدقون وجود مثل أولئك الأقوام، ولا شك أن ذلك راجع إلى أنهم لم يعثر عليهم في الجهات التي قال الكتاب القدماء بوجودهم فيها.

ويعيش حول مواطن هؤلاء الأقزام في كل مكان تقريباً أقوام أعلى منهم ثقافة وأقوى بنية، ظلوا دهوراً طويلة يتوغلون في الغابة باستمرار إلى حساب الأقزام فيقطعون أشجارها ويستقرون فيها ويزاولون نوعاً من الزراعة البدائية.

وعندما كان الرحالة المشهور ستانلي يجوس خلال أفريقية كانت

الغابات الاستوائية أكثر اتساعاً مما هي الآن وكان الأقزام يعيشون في قلب تلك الغابات بعيدين عن كل مؤثر خارجي؛ أما اليوم فكثيراً ما يوجدون ضاربين قرب أطراف الغابات يتصلون أحياناً بجيرانهم الزنوج ذوي القامة الطويلة الذين يعيشون على الزراعة والذين يحصل منهم الأقزام بالمقايضة على حاصلات الحقول وعلى السهام ذات النصال الحديدية. وقد أخذ هؤلاء بعض العادات عن جيرانهم الزنوج، كما اقتبسوا كذلك لغتهم في بعض الجهات.

ويقتصر وجود الأقزام اليوم عموماً على حوض الكنغو، ولكنهم يمتدون من ناحية الشرق إلى حدود أوجندا في غابات إيتوري Eturi ومن ناحية الشمال الشرقي إلى جوار بحر الغزال، ومن ناحية الغرب إلى الكنغو الفرنسية والكمرون وحدود أنجولا. وأنقى هؤلاء الأقزام دماً في وقتنا الحاضر هم الذين يقطنون غابات إيتوري Eturi. وقد اعترى الأقزام في جميع الجهات بعض التغير نتيجة لتزاوجهم من غيرهم من القبائل، فقبائل الباتشوا Bachwa في الأقاليم والباتوا Batwa في رواندا لم تعد بحال من الأحوال خاصة العنصر، وقد اضطرت قبائل الباتوا Batwa التي تقطن الآن المرتفعات المعشبة التي تعلو ستة آلاف قدم عن مستوى البحر، إلى ترك موطنها في الغابات عندما بدأت قبائل الباكوتو الزنجية تجتث أشجارها وتستقر فيها.



(شكل ٢) أين يوجد الأقزام الحقيقيون ؟

وبعض الأقزام يزيدون أشكالهم قبحاً بوسائل شتى اقتبسوا بعضها ولا ريب من جيرانهم الزنوج، فمن عاداتهم الشائعة أنهم يبردون الأسنان حتى تصير مدببة، وبعضهم يخرق أنفه ويضع خلاله ريشة، وكثير من النساء يخرقن شفاهن ليلبسن فيها حلقاً أو قطعاً من الحديد.

وكان الأقزام قديماً يجوبون أنحاء الغابة عرايا، أما الآن فإنهم يأتزرون بآزار مصنوع من لحاء الشجر المدبوغ يعلق إلى خصورهم بحزام مصنوع من جلد الأوكابي Okapi وهو حيوان من فصيلة الزراف موطنه الأصلي حوض السمليكي، وتزين النساء مآزرهن ببقع وخطوط حمراء وسوداء، ويلبسن الرجال أحياناً طاقية من الجلد أو من سيقان العشب المجدول. ويلبس رجال الباتوا جلابيب من القماش تتدلى من أكتافهم،

وتتدثر نساؤهم بالجلود. وكان رجال الباتشوا فيما مضى يلبسون إزاراً مجدولاً من ألياف الشجر لكنهم الآن قد استبدلوا به إزاراً من نسيج القطن، أما نساؤهم فيسرن عرايا تقريباً حيث أن ما يسترن به خصورهن من الخيوط المدلاة لا يزيد عرضه على أربع بوصات. ويحتفظ كل قزم تقريباً بحقيبة من الجلد يحملها فوق كتفه أينما سار يحفظ فيها ممتلكاته الشخصية؛ ويصفف النساء شعورهن تصفيفاً غريباً ويزين أنفسهن بمخلوط أسود يستعملن في وضعه عصا صغيرة، فإذا أرادت إحداهن أن تزيد في جاذبيتها استعملت مع ذلك المخلوط الأسود مواد أخرى حمراء وأحياناً بيضاء، وليس التزين مقصوراً على النساء بل قد يلجأ إليه أيضاً الأولاد والشبان.

ويندر أن تزين امرأة شعرها بالزهور ولكنهن يزهين باستعمال جدائل من أوراق الأشجار في تزين أجسامهن والواقع أنهم كثيراً ما يغطين أجسادهن بالخضرة في عودتهن إلى المنزل من رحلاتهن خلال الغابة.

وليس القزم بالرجل الغبي أو المكتئب ولكنه سريع الانفعال وعرضة للغضب أو الحزن الفجائي، وهو مغرم بالموسيقى محب للأخذ بالثأر سيء الظن بطبعه ولكنه لا يسرق أبداً.

ويعيش الأقزام على الصيد وجمع الثمار البرية ويقومون بأي نوع من أنواع الزراعة ولا يربون شيئاً من الماشية، على أن الباتشوا قد قاموا بمحاولات ضئيلة في زراعة الموز والفول السوداني والمانيوق. وكان طعامهم فيما مضى يتكون من اللحوم والعسل والجذور والأوراق والفول

السوداني والفواكه، ولذلك كان لزاماً على القزم أن يشحذ قريحته للتغلب على قرائح الحيوان، وكان عليه أن يرقب جيداً عادات الحيوان وأن يعرف الصالح للطعام من بين أنواع الثمار والأوراق والجذور وما إلى ذلك، وبمعنى آخر كان عليه أن يكون ملماً إلماماً عملياً بدراسة الطبيعة التي حوله. وكان غذاؤه قليلاً حتى ليصعب أن نفهم كيف استطاع في سالف الأيام أن يقيم على مثل ذلك الغذاء، فلم يكن لديه ألبان ولا أي نوع من أنواع الأطعمة الخفيفة الصالحة لتغذية صغار الأطفال، أما في الوقت الحاضر فإن الأقزام يجدون حاجتهم من الطعام ذي القيمة الغذائية في الموز ونخيل الزيت وقصب السكر والمانيوق وغيرها مما يحصلون عليه من الزنوج. ويغرم الأقزام بالموز إلى حد أنهم قد يبيعون حريتهم في سبيل الحصول عليه، وفي بعض الأحيان يأخذون ما شاءوا من موز الزنوج ويتركون بدله قدراً كافياً من اللحوم، وهذا النوع من المقايضة الذي لا تستعمل فيه الكلمات يسمى المتاجرة الصامتة.

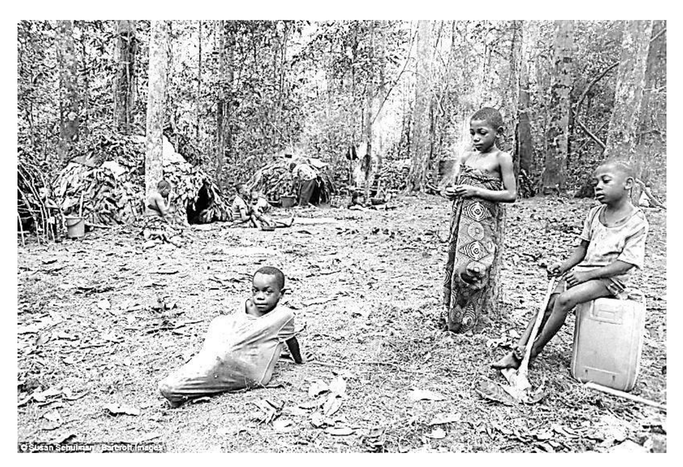
ويزداد اعتماد الأقزام على الزنوج بإطراد حتى أننا كثيراً ما نرى اليوم جماعة من الأقزام قد استقرت في قرية الزنوج واتخذ كل فريق منهم حامياً لهم من الزنوج؛ وهذا النوع من الحماية يرثه الزنجي عن أبيه ويورثه ابنه من بعده، ويستمد لأقزام من حاميهم أقواتاً مما تنتج الأرض في مقابل نصيب من لحم الصيد وحاصلات الغابة والخدمات الشخصية إذا لزم الأمر، وكذلك يشتري الأقزام من الزنوج السهام ذات النصال الحديدية والحراب.

ومع أن الأقزام في الوقت الحاضر يقيمون أكواخهم على مقربة من الزنوج إلا أنهم يعيشون عيشة الترحال، ويندر أن يمكثوا في مكان واحد أكثر من ثلاثة أشهر أو أربعة يرحلون بعدها استجابة لأقل خاطر طارئ، أو على أثر وفاة أي فرد من أفراد الجماعة، ومع ذلك فإن تجولهم مقصور على مساحة محدودة؛ ولكل أسرة أو فريق من أسرة في كل مكان من الأقاليم نفس الحقوق التي لأي فريق آخر؛ فلا يستطيع أي فرد أن يدعي ملكية جزء من الأرض لأنها ملك للجميع.

ولما كان من الصعب أن يحصل الفرد على كل حاجاته دون أن يساعده غيره فإن الأساس الذي تقوم عليه حياتهم البدائية اجتماعياً واقتصادياً يتألف من الجماعات الصغيرة التي تنتمي لأسرة واحدة، ومن الطبيعي أن يكون الأب هو رئيس الأسرة وأن يكون لأكبر أفرادها سنً سلطة على من دونه من الأفراد، فليس للأسرة زعيم واحد معترف به.

ويسكن الأقزام أكواخاً واطئة مقببة يقيمونها في مكان من الغابة بعد أن يقطعوا منه الأشجار. وتقام الأكواخ في مجموعات مرتبة، ويقع على عاتق النساء عبء إقامتها وجمع ما يلزم لذلك من أغصان الأشجار ومن الأوراق العريضة الكبيرة الشبيهة بأوراق الموز. وطريقة إقامتها أن يؤتى بعدد من الأغصان اللينة فيثبت الطرف الأغلظ من فرع منها في الأرض ويثبت فرع آخر مثله في مكان مقابل له، ثم يقابل بين الطرفين الرفيعين ويربط أحدهما إلى الآخر حتى يتكون منها قوس. وعلى بعد بوصات قليلة منهما يثبت بنفس الطريقة فرعان آخران أطول قليلاً من الأولين،

وبهذا تتم إقامة مدخل الكوخ. ثم يؤتى بفرع آخر أطول قليلاً من الأفرع السابقة ويغرس في الأرض على بعد قليل إلى الخلف منها ويثبت طرفه الأعلى في وسط القوس الذي يكون مدخل الكوخ فيصبح هو العمود الفقري الذي يرتكز عليه سقف الكوخ وبعد ذلك يؤتي بعديد من الفروع تغرس في الأرض بحيث يكون كل اثنين متقابلين منها متساويين، وبحيث يقل طول كل إثنين منها كلما ابتعد عن المدخل، وتغرس أطرافها الغليظة في الأرض بحيث يتكون من مجموعها شكل دائري تقريباً. أما الأطراف العليا فتربط في العمود الفقري. وفي بعض الأحيان تضاف إلى البناء بقصد تقويته إلى فروع أخرى تربط إليه أفقياً، وبعد ذلك تبدأ عملية التسقيف فتوضع الأوراق واحدة فوق أخرى بالطريقة التي توضح بها ألواح الأردواز فوق السقوف في بعض البلدان، أي أن كل ورقة يكون طرفها العلوي تحت طرف التي قبلها وطرفها السفلي فوق طرف التي بعدها، وتثبيت الأوراق جميعها إلى هيكل البناء بطريقة عبقرية حقاً.



(شكل ٣) أقزام الكنغو وأكواخهم

ولا يتخذ الأقزام لأكواخهم أبواباً بل يسدونها أثناء الليل بالفروع والأغصان لتمنع دخول الحيوان ولتحمي الكوخ من العواصف والأمطار. ولا يزيد ارتفاع الكوخ على ثلاثة أقدام، ولذلك كان لزاماً على القزم أن يدخل مسكنه زاحفاً فإذا دخله لم يستطع أن ينصب قامته في داخله أبداً.

ومن عادة الأقزام أن يفردوا كوخاً لكل فرد بالغ من الذكور والإناث، على أن الزوج والزوجة قد يشتركان في كوخ واحد، وإذا كان للزوجين أولاد كثيرون، فالعادة المتبعة أن يزاد في أحد أركان الكوخ مكان يخصص لنوم الأطفال، ويبدو هذا الركن الجديد كأنه سنام منبعج.

وبعض أقزام الباتشوا، عندما يستقر بهم المقام في القوى، يشيدون أكواخهم على نمط أكواخ الزنوج، ولكنها لا تقاربها في السعة ولا في إتقان البناء، وكثيراً ما يشيدون أكواخاً غير مقببة بل تنحدر سقوفها وتكون مع الحيطان زوايا، وتشاد الحوائط فيها من طبقات من جريد نخيل جوز الهند ترتفع من الأرض حتى تلاقي السقف وتكون حاجزاً يمنع تسرب الأمطار!

ولا يحوي كوخ القزم غير قليل من الأثاث، فالفراش يتكون عادة من ثلاثة ألواح وأحياناً من لوحين فقط يوضعان على الأرض جنباً إلى جنب وقد يرفع أحد طرفيهما إلى أعلى قليلاً بوضع كتلة من الخشب تحته، وهذا كل ما هنالك من فراش فهم لا يعرفون الحشايا ولا الأغطية ولا الوسائد. ويرقد القزم على الألواح الصلبة مثنى الركبتين ذراعه تحت رأسه يستعيض بها عن

الوسادة. فإذا أضيف إلى الألواح الخشبية قدر أوقدران وسلة وفي بعض الأحيان هاون خشبي بدائي الصنع كان ذلك كل ما بالكوخ من أثاث، وقد يكون هناك سكين ترشق في سقف الكوخ يضاف إليها قوس وسهام، فإذا كان الكوخ لأعزب لم تزد محتوياته على الألواح والقوس والسهام.

ويحتفظ القزم دائماً بشعلة موقدة لأن بعضهم لا يعرفون كيف يوقدون النار، على أن بعضهم يولدونها بطريقة الاحتكاك فيأتون بقطعة من الخشب يحفرون فيها بضعة ثقوب ثم يجلس مولد النار ويمسك بقدميه طرفي كتلة الخشب إمساكاً قوياً ويأخذ عصا من الخشب يبلغ طولها نحو قدم ويضع أحد طرفيها في أحد الثقوب بعد أن يضع فيه أوراقاً يابسة ثم يدير العصا بين يديه جيئة وذهاباً بسرعة فائقة فلا تلبث أن يتصاعد منها الدخان، وعندئذ يضاف مقدار آخر من الأوراق اليابسة وينفخ فيها حتى تشتعل.

وعلى الرجال أن يقوموا بمهمة القنص وجمع العسل، ومن خصائص الأقزام إلمامهم التام بكل شيء عن حيوان الغابة كبيراً كان أو صغيراً، ولهم قدرة على اقتفاء آثاره كما أن لهم قدرة غريبة على السير في الغابة دون أن يحدثوا أقل صوت، وهم إذ ذاك يتخاطبون بالإشارة ويسيرون صامتين متنبهين لأقل صوت، فإذا سمعوا صوت غصن يتكسر وقفوا فجأة لا يأتون بأي حركة فهم يعرفون أن هذا الصوت دليل على أن الحيوان أيضاً آخذ حذره. وإذا خرجوا للصيد خرجوا بعد الإطار مباشرة مسلحين بأقواسهم وسهامهم ومعهم كلابهم يلبسونها أطواقاً من الخشب تشد إليها سيور يربطها الصيادون إلى أرساغهم.

ويستعمل البابموني أقواساً صغيرة يندر أن يزيد طول إحداها على ثمانية عشر أو عشرين بوصة، وتؤخذ سهامهم التي يحملونها في كنانات مصنوعة من رفيع الأغصان من نوع من الأشجار ذات الخشب المتين، يثنون أحد طرفيها ويثبتون في الطرف الآخر قطعة بيضوية من ورقة غليظة من ورق الأشجار تقوم مقام الريشة. أما أقواس الباتوا فعلى العكس طويلة جداً إذ يبلغ طولها طول حاملها، وهم يتخذونها من فلقة من قصب الغاب يلصقون على طول تجويفها فلقات من الخشب ليزيدوا في متانتها، ثم يلفون حولها طبقة فوق طبقة من خيوط مجدولة من ألياف بعض الأشجار تمتد بطول القوس من طرف إلى طرف. وسهامهم كذلك طويلة ومريشة كبعض سهام جيرانهم الزنوج.

أما أقواس الباتشوا فمستديرة يبلغ طولها نحو ثلاثة أقدام وتتناقص في الغلظ نحو كل من طرفيها وتصنع أوتارها من خيوط مثناة تثبت في طرفيها ويثبت الريش عادة في السهام بطريقة طولية وتغمس أطرافها في مادة سامة يستخرجونها من عصير بعض الأشجار ويعرضونها لحرارة النار حتى تصبح من الكثافة بحيث تلتصق بطرف السهم ثم يضعونها بعد ذلك في الشمس حتى تجف تماماً وحينئذ يأخذونها ويلفونها بأوراق الأشجار تلافياً لما قد ينجم عن إمساكها من خطر وهم يستطيعون في الوقت الحاضر أن يبتاعوا من الحدادين الزنوج نصالاً حديدية لسهامهم، ولكنهم في العادة يشترونها جاهزة الصنع كاملة الريش.

ويقال إن الأقزام يستطيعون أن يقتلوا الفيل بهذه السهام ولكن هذا

القول مشكوك فيه كثيراً، إذ الذي يحدث فعلاً هو أنهم يثخنونه بالجراح "ثم يقترب أحد الأقزام في حذر ويصوب حربته إلى مفصل إحدى ركبتي الفيل الخلفيتين ثم يفر سريعاً إلى الأحراش يحتمي بها، وعند ما يصاب الفيل في ركبته الإصابة المؤلمة يجن جنونه ويصرخ صرخة مدوية ويهجم في أثر صائده فيعالجه صياد آخر بحربة يصوبها إلى الركبة الخلفية الثانية فينهار الفيل وهنا يقترب منه الأقزام في حذر ويقطعون خرطومه ويتركونه يدمي حتى يموت"[١].

ويستعمل بعض الأقزام في صيد الفيل حراباً خاصة تشبه المزراق بعض الشبه يثبت فيها طرف يشبه سنارة صيد السمك تثبيتاً خفيفاً، فإذا أصيب الحيوان انفصل العود وبقي الطرف نافذاً في جلده فيحاول الحيوان أن يتململ فيتعثر في الأعشاب الغليظة التي تملأ ما بين الأشجار، وعلى أثر ذلك يجن الحيوان ويزداد تخبطه ثم لا يلبث أن تهمد حركته فيقترب منه الزنوج ويقضون عليه. وفي بعض الأحيان يستعملون شباكاً مستطيلة يبلغ طولها نحو ثلاثين قدماً وعرضها نحو ثلاثة أقدام يجدلونها من جذور الأشجار وأغصانها وقد يصلون الشباك بعضها إلى بعض حتى تصل إلى بضع مئات من الأقدام، وبعد ذلك يربطون أطرافها العليا والسفلى بأغصان الأشجار وفروعها ثم يقوم النساء والأطفال بدق الطبول من مسافة بعيدة ويقتربون أثناء ذلك من الشباك فتنساق الحيوانات تدريجياً نحوها وتقع فيها فيتقدم الصائد الذي يكون مختفياً قربها فيجهز على الحيوان الكبير بالحراب أو بالعصى الغليظة

(١) "بين أقزام الكنغو" تأليف بول شبستا.

ويخلى سبيل الصغير منها.

ومن عادات الأقزام أنهم إذا حالفهم الحظ في الصيد عادوا إلى منازلهم فرحين مهللين، أما إذا لم يكن الحظ حليفهم فإنهم يتسللون ساكتين واجمين. وكل صيد يصيدونه يعتبر ملكاً للأسرة بأكملها ويقوم أكبرهم سناً بتقسيمه حسب أصول قواعد معقدة، فمنها مثلاً أن يعطي القلب والكبد عادة للرجل الذي أصاب الحيوان وذلك بعد أن يقذفوا إلى الغابة قطعة صغيرة من القلب على سبيل القربان لآلهتهم.

وإذا لم يجد الرجال حيواناً يقتفون أثره في الغابة ليقنصوه بحثوا وراء العسل الذي يغرمون به ويبذلون كل جهد للحصول عليه ولذلك أصبحت لهم مهارة فائقة في تسلق الأشجار، ومهما علت خلايا النحل البري في ذري الأشجار فإنهم يصلون إليها في لمح البصر.

ومن واجب النساء جمع الأحطاب وجلب الماء– وهن يحملنه على أكتافهن في جرار– كما أن عليهم جمع الخضروات وتجهيز الطعام والذهاب أحياناً إلى قرى الزنوج للمقايضة بالموز وجذور المانيوق وثمار نخيل الزيت وغيرها، وعليهن رعاية الأطفال علاوة على قيامهن ببناء الكوخ كلما لزم ذلك. وتروح النساء إلى العمل يصحبهن دائماً أطفالهن بينما يحملن الرضع في مناطق تستقر فوق خصورهن أو تتدلى من أكتافهن.

ويتناول الأقزام طعامهم مرتين كل يوم في الصباح وفي المساء، وعندما توقد النار يضع النساء عليها الثريد للصغار أو الخضار للكبار.

ومن المتبع أن كل أسرة تجلس القرفصاء أمام كوخها وتفرش أوراق الشجر العريضة فوق الأرض متخذين من هذه مائدتهم ومن أوراق الشجر غطاء لها. وتغرف النساء العام بمغارف من الخشب ويتخذن من العصى الجافة شوكات. وقد يتكون الطعام من الموز المسلوق والخضر المطبوخة واللحم المشوي يضاف إليها غالباً مرق من زيت النخيل ليعطيه مذاقاً شهياً، فإذا انتهى أحدهم من طعامه لم يغسل يديه بل يمسحها بورق الشجر أو بجلده. والواقع أن القزم لا يغسل يديه أبداً حتى ولا في الصباح عند قيامه من النوم، وكل ما يفعله عندئذ أن يفرك عينيه.

ويتعلم أطفال الأقزام في ألعابهم ما يلزمهم في الحياة، فمنذ سن الرابعة يبدأ الطفل باللعب بأسلحة تشبه ما يستعمله أبوه فهو يلعب بأقواس يصنعها بنفسه أخف وأقصر من أقواس أبيه كما يصنع لنفسه سهاماً من خوص النخيل، على أنه قد يستعمل لصيد الطيور سهاماً رفيعة من الخشب ويغرم الصبيان بالمصارعة، بينما تمثل البنات دور الأمهات مع أطفال حقيقيين يتخذنهم بدل الدمى.

وللأقزام غرام شديد بالرقص ويشترك فيه الصغار والكبار على السواء؛ وحتى الأمهات يشتركن فيه لا يمنعهن أنهن يحملن الأطفال مشدودين إلى خصورهن، فإذا نام الطفل أثناء الرقص ناولته الأم لإحدى المتفرجات حتى تتفرغ هي للرقص بحرية تامة. وقد يستمر الرقص طول النهار تتخلله فترات راحة قصيرة كلما أحس الطبال بالتعب. ويلبس بعض الأقزام للرقص ملابس خاصة يصنعونها من جلود القطط البرية،

ويقوم الرقص على نغم المزمار ودق الطبول والنفخ في صفارات زجاجية غريبة الشكل.

وإذا أراد أحدهم الزواج اختار عروسه من فرع من فروع أسرته غير الفرع الذي تنتمي إليه، وقد يختارها من قبيلة غير قبيلته، وفي هذه الحال لا يسمح له بزواجها إلا إذا كانت أسرته تستطيع أن تقدم بدلها عروساً لرجل من رجال الفريق الآخر، ويسمى هذا بنظام "الرأس بالرأس". وهو أمر طبيعي إذ تدعو ضرورة الحياة عندهم إلى إبدال امرأة بامرأة لأن النساء عليهم المعتمد في جمع الخضر التي يتكون منها معظم طعامهم.

ولا يعني هذا النظام أن هناك مقايضة لامرأة بامرأة، لأن المرأة من جانبها لها كامل الحرية في اختيار زوجها، لكن الأخ يلجأ دائماً إلى أخته يغريها بقبول الزواج من رجل من الفريق الذي يريد هو أن يتزوج منه. والقاعدة العامة بين الأقزام عدم تعدد الأزواج.

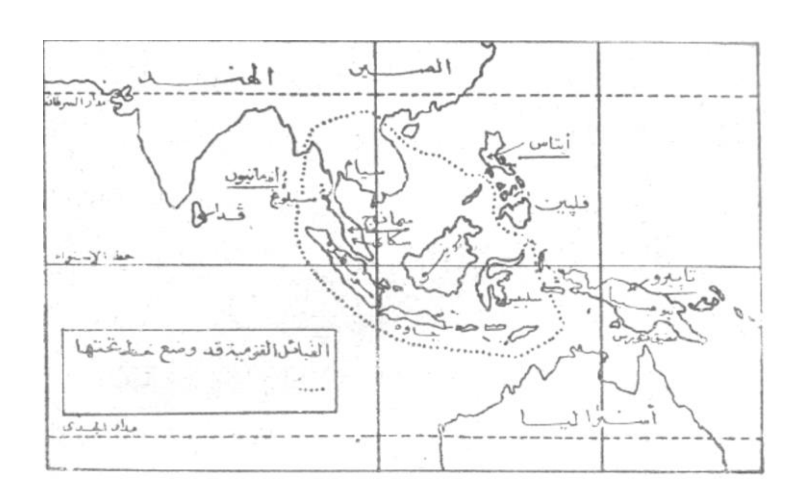
ويعتقد الأقزام في التعاويذ، وهم يتخذونها من قطع من الخشب يعلقونها حول رسغ الطفل وعقبه لتجلب له السعادة، ويتناول الصيادون أيضاً ما يشبه ذلك، فيلبسون خيوطاً وقطعاً من الخشب وخواتم من جلد الثعبان. وليس لهذه التعاويذ والتمائم أية علاقة بعقائدهم الدينية، إذ هي لا تعدو أن تكون قد نِأت من اعتقادهم بالسحر، وهي خرافات أخذوها عن جيرانهم الزنوج. ويدفن الأقزام موتاهم في الأرض ولا يقدسونهم كما يفعل الزنوج.

الفصل الثاني

الأقزام الأسيويون

أقزام جنوب آسيا الشرقي- النجرتو الأسيويون- وهم الأندمانيون والسيمانج والأييتا Aeta والأيومي Aiome والتابير وTapiro يشبهون النجرا وسكان إفريقية الاستوائية من حيث مميزاتهم الجسمية ولكنهم في الغالب أطول منهم قليلاً، ولون جلودهم وشعورهم أميل إلى السواد من لون الأقزام الإفريقيين. وهم يعيشون في بيئات تشبه تلك التي يعيش فيها الأقزام الإفريقيون تماماً غير أنهم لا يتصلون بغيرهم من الجماعات كما يتصل بعض أقزام إفريقية.

ومتوسط القامة بين الأقزام الأندمانيين (سكان جزر أندمان) يبلغ أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف بوصة، ولون جلودهم يختلف من النحاسي الداكن إلى الأسود الفاحم، وشعورهم المفلفل قصير أسود مشرب أحياناً بحمرة خفيفة، وتكاد أجسامهم تخلو من الشعر خلواً تاماً. ويبلغ طول أقزام السيمانج في شبه جزيرة الملايو خمسة أقدام ولون بشرتهم قاتم يختلف بين الأسمر الغامق (لون الشوكولاته) أو الأسود وشعرهم أسود وقصير ومتلبد، وهو قليل جداً على وجوههم وأجسامهم.



(شكل ٤) أين يعيش بعض الصيادين البدائيين في جنوب شرق آسيا

ويصل طول أقزام الأييتا Ayeta في جزر الفلبين إلى نحو أربعة أقدام وعشر بوصات وجلودهم سوداء قاتمة وشعرهم قصير متلبد يختلف لونه من القاتم إلى الفاحم وهو غزير على الوجه وعلى الجسم. أما التابيرو سكان غانة الجديدة فلونهم أسمر مشرب بالصفرة ويبلغ طولهم أربعة أقدام وتسع بوصات، وشعرهم أيضاً قصير متلبد أسود اللون ويكثر على الوجه، كما يوجد على أجسامهم شعر قصير متناثر هنا وهناك. ومتوسط طول المرأة في جميع هذه الحالات أقل من متوسط طول الرجل.

ولا تزال جماعات قليلة من السيمانج تعيش في الغابات الكثيفة التي تغطي المناطق الجبلية في داخل شبه جزيرة الملايو. وقد اضطروا إلى الالتجاء إليها تحت ضغط النازحين من شعوب الملايو والصينيين والأوروبيين الذين استوطنوا الجهات الساحلية، ولا يزيد عدد الموجودين

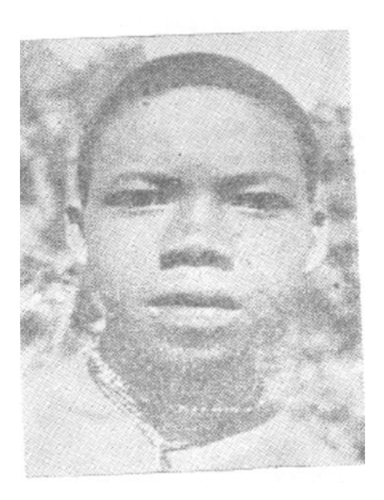
من هؤلاء الأقزام في الوقت الحاضر على ألفي نفس، وهم آخذون بسرعة في فقد عاداتهم ولغتهم ونقاء عنصرهم.

ولا يعرف السيمانج من الزراعة شيئاً ولم يستأنسوا شيئاً من الحيوان، اللهم إلا الذين اختلطوا منهم بشعوب الملايو. وهم يعتمدون في غذائهم على النباتات البرية في الغابة دون حيواناتها. والنباتات البرية متوفرة في الغابة ولكن لا ينمو في البقعة الواحدة غير عدد قليل من النوع الواحد من النباتات والأشجار كما هو الحال في كل الغابات الإستوائية، ولذا كان السيمانج دائمي الانتقال من مكان إلى مكان، وقد لا تستقر الجماعة منهم في بقعة واحدة أكثر من أربعة أيام. ولما كانت كمية الطعام التي يمكن الحصول عليها في بقعة واحدة محدودة كان على السيمانج أن يعيشوا في جماعات قليلة العدد قد لا تزيد إحداها على عشرين أو ثلاثين فرداً بما في ذلك الأطفال.

ولأكبر أفراد الجماعة سناً أن يحدد البقعة التي ينزلون بها، وهم في العادة يحترمونه لسداد رأيه وله بينهم شيء من النفوذ ولو أنهم لا يعترفون له بزعامة وأفضل مكان عندهم هو ما كان في بقعة مكشوفة في الغابة أو تحت صخرة نائية؛ وهذه الملاجئ- وهي لا تسمو إلى مرتبة الأكواخ- تختلف من ستر واحد يتخذ من ورقة واحدة من أوراق الأشجار، إلى ستور جماعية كبيرة يستتر خلفها بضع أسر؛ وهذا النوع يقيمونه أحياناً في البقع التي يغشونها كثيراً.

ويشمل المنزل عادة عدداً من الستور يتراوح بين ستة وأثنى عشر

ينصبونها على شكل دائرة أو شكل بيضوي، وتقوم الأم بإقامة الستر الخاص بزوجها وأبنائها فتغرس في الأرض ثلاثة أعمدة من الخشب أو أربعة بينها زواياً تبلغ نحو سبعين درجة ويختلف انحدار سقوفها باختلاف فصل الأمطار. ويؤتى بجريد النخل ويشد إلى الأعمدة ملتصقاً بعضه ببعض ليحول دون تسرب ماء المطر. وبعد ذلك يقيمون لأنفسهم مصاطب ينامون عليها يصنعونها من أعواد قصب الغابة الهندي ويرفعون أحد طرفيها أو كليهما بواسطة غصن غليظ، وبهذا ترتفع المصطبة عن الأرض المرطوبة، ثم يحملون هذه المصطبة إلى داخل الستر ويعدون على أحد جانبيها أو كليهما مكاناً للنار وبعض السيمانج يقيمون مأوى يتسع لأفراد العائلة جميعاً وقد يبلغ عدد المصاطب فيها إحدى عشرة؛ وعند الرحيل يهجرون ستورهم لا يأخذون منها شيئاً فإن الغابة غنية بالأوراق العريضة التي يحتاجون إليها في إقامتها. وفي بعض الأحيان تقام هذه الملاجئ فوق الأشجار لتحميهم من الحيوانات المفترسة ومن الأعداء.



(شكل ٥) فتاة من السيمانج في سن الثامنة عشرة

ويحرص السيمانج على أن تبقى شعلة النار ليلاً ونهاراً إلى أن يهجروها عند الرحيل، وذلك لصعوبة توليد النار في ذلك الجو المشبع بالرطوبة، وهم يذكونها عند الحاجة إليها فقط، فإذا انتهوا من طبخ الطعام أبقوا على الجذوة تدخن حتى يحتاجوا إلى الطبخ مرة أخرى فيذكونها وهكذا.

ويولد السيمانج النار بحك قطعتين جافتين من الخشب أو الغاب، أو يمرون عود الراتان الأملس إمراراً سريعاً حول عود من القصب، فإذا تولدت الحرارة وسخن العود وضعوا حوله بعض الألياف الناعمة الرقيقة التي توجد حول الجزء الأسفل من جريد بعض أنواع النخيل، وذلك لكي يسهل اشتعال النار فيها. وقد يحصل بعض السيمانج على قطعة من الحديد وأخرى من الصوان فيحتفظون بهما وبشيء من جريد النخل داخل عود أجوف من أعواد القصب يزينونه من الخارج بخطوط يحفرونها فيه. ولتسهيل توليد النار يستعمل السيمانج أحياناً نوعاً بدائياً من الشعلة ينصعونه من عصارة بعض الأشجار يغمسون فيها الألياف الجافة ويلفونها حول جريدة من جريد النخل، وهم يعتزون بها ويحملونها معهم أينما رحلوا.

والسيمانج– كالأقزام الإفريقيين– لا يجوبون الغابة على غير هدى، لأن كل جماعة منهم لها منطقتها الخاصة ولها الحق فيما قد يكون بها من الأشجار ذات الثمار القيمة، ومع ذلك فقد يقومون بالقنص وجمع الجذور والأوراق وغيرها من أرض من جاورهم من الجماعات، أما أشجار

الدوريان durian الباسقة فهي مثل الأدوات المنزلية والحراب والحلى تعد ملكاً للأفراد يتوارثها الأبناء أو الأقرباء ولكن الزوجة لا ترثها أبداً، وكذلك ممتلكات الزوجة يرثها أبناؤها، فإذا لم يكن لها أبناء ورثها إخوتها وأخواتها ولا يرثها زوجها أبداً. وفي موعد المحصول تعود كل جماعة إلى إقليمها لتحتفل بجمع الثمار، ومع أن محصول الأشجار جميعاً يقسم بين أفراد القبيلة إلا أن أحداً منهم لا يفكر في السطو على ثمار أشجار غير أشجاره، أما السطو على ثمار أشجار تملكها قبيلة أخرى فإنه يغرس بذور الشر بين القبائل. وثمرة الدوريان durian التي تزن عدة أرطال ذات لباب مر تحت قشر أخضر سميك مغطى بالأشواك، وعندما تنضج تسقط من تلقاء نفسها تحت الشجرة.

أما جمع الأنواع المختلفة من ثمار التوت (Berries) والنقل والأوراق والنباتات (shoots) والجذور فهو موكول إلى النساء، على أن هذا لا يمنع من أن يقوم الرجال بنصيبهم فيه. ولاستخراج الجذور تحفر الأرض بعصا من خشب الحديد بعد أن تحمى على النار كي تزيد متانة، وتضع النساء الطعام الذي يحصلن عليه في سلة يصنعها من القصب أو الراتان ويعلقنها على ظهورهن، وأهم أنواع الجذور عندهم جذور الصرغم وهي جذور ليفية طويلة مجوفة، وهذه الجذور وكذلك عدة جذور أخرى مجوفة تحوي عصارة مساحة يتخلصون منها بطرق مختلفة، فجذور الصرغم مثلاً ينقعونها في الماء ثم يكشطونها بعصا فيها أشواك ويعصرونها في كيس من الحصير ثم يعرضونها للنار لتجف.

ولا يخرج الصياد في العادة للصيد ما دام عنده ما يأكله، لكن حينما يعضه الجوع تختفي منه كل مظاهر التبلد وتبدو عليه مظاهر النشاط والعزم؛ وهو ماهر في تعقب الحيوانات وفي إصابتها. ويتكون صيده العادي من الفيران والحجل والطيور والسحالي والقردة والخنازير البرية وأهم أسلحته القوس والسهام، وكلاهما أطول من نظيره عند الأقزام الأفريقيين. وأقواسهم التي يبلغ طولها خمسة أقدام أو ستة تصنع من غصون الأشجار اللدنة يشدونها بأوتار مكسوة بالشمع مصنوعة من ألياف نباتية، أما السهام التي قد يصل الواحد منها إلى ثلاثة أقدام فتتخذ من قصب البامبو يثبت في جانبها ريشتان من ريش الطائر ذي المنقار القرني ولا توجد للريشتين أية فائدة إطلاقاًن كما يثبت في طرفها قطعة من الخشب الثقيل. وفي أيامنها هذه تستبدل بالخشبة قطعة من الحديد الشائك (barbed) مسممة بمادة يحصلون عليها من نوع من الأشجار. فإذا كان المطلوب صيداً كبيراً أضيف إلى المادة السابقة مادة أخرى أشد سماً. وتحمل السهام في كنانات من قصب البامبو عليها نقوش محفورة فيها، وهذه الكنانات في الغالب مدببة الأطراف ليمكن غرس أطرافها في الأرض وقت اللزوم، وهم يحملونها في أيديهم أو يرشقونها في أحزمتهم.

وبعض السيمانج يستعملون الآن ما يسمى قصبة النفخ أو بندقية النفخ (وهي أنبوبة مجوفة يقذفون منها السهام بالأفواه فتخرج بقوة النفخ) وهي شبيهة بالتي يستعملها جيرانهم الساكاي الذين سيأتي ذكرهم في الفصل القادم، كما أنهم أحياناً يستعملون الفخاخ للإيقاع بالصيد، وهي أدوات أخذوها عن غيرهم من الشعوب، فمثلاً الفخاخ التي

يستعملونها في صيد الفيران هي نفس الفخاخ التي تستعملها شعوب الملايو في سلانجور وبيراك والتي يتخذونها من قصب البامبو، ولم يكن السيمانج إلى عهد قريب يقتنون الكلاب، وما يقتنونه الآن من تلك الحيوانات نصف الوحشية المائل لونها إلى الحمرة لا فائدة لها في الصيد. ويصيد السيمانج الطيور أحياناً باستعمال شظايا البامبو يدهنونها بسائل يحصلون عليه من عصارة شجرة التين البرية.

وقبائل السيمانج التي تسكن في المناطق الجبلية المنعزلة لا تأكل السمك إلا نادراً، على أن بعض القاطنين منها قرب مجاري الأنهار يأكلونه كثيراً. وتشارك النساء في صيده مع أنهم لا يشاركن في القنص أبداً. وتصاد الأسماك الصغيرة في المستنقعات باستعمال أداة تشبه الدلو مصنوعة على هيئة السلال. ويستعمل بعض الرجال سنارات تتكون من قضيب طويل من غصن غير مقشور قد يصل إلى ستة أقدام يربطون إليه حبلاً يزيد عنه طولاً، مفتولاً من خيوط من لحاء الشجر، وفي أطرافها خطاطيف من النحاس أو من أسلاك الحديد؛ أما السمك الكبير والسلاحف البحرية فتصاد بحراب مدببة مصنوعة من جريد النخيل. ولا يمتلك السيمانج قوارب ولمنهم أحياناً يصنعون عوامات من قصب البامبو إذا أرادوا عبور نهر أو انحداراً فيه مع التيار.

ويتناول السيمانج أكلتهم اليومية الرئيسية قرب المساء، ولكنهم يتناول وجبة في الصباح، ويتناولون وجبة صغيرة أثناء النهار. وهم مغرمون بالملح لسبب بسيط هو أنه نادر الوجود عندهم. ويتناول جميع أفراد

الأسرة طعامهم بأيديهم من إناء واحد هو غالباً ورقة كبيرة من أوراق الموز، فإذا كان الطعام فخذ حيوان أو كتفه أمسكوه بأيديهم حتى يأتوا على ما به من لحم. ولا يسمح للنساء والبنات بالأكل حتى ينقض الرجال والأولاد أيديهم منه، ويقع طهي الطعام على عاتق النساء، وهن يشوينه شيئاً خفيفاً، على أنه يؤكل أحياناً غير مطبوخ، وإذا أريد طهي اللحوم أدخلوها بين فلقتي عصا وعرضوها للنار. وفي حالة الصرغم وجذور النباتات يقشرونها ويلفونها في أوراق الموز ثم يخبزونها. أما السمك فيطهى بنفس الطريقة التي تطهى بها اللحوم. وبعض الأطعمة- مثل الأرز الذي يحصلون عليه من جيرانهم الملايو عن طريق المقايضة بحاصلات الغابات- يقلونه في أنابيب من قصب البامبو الأخضر.

وهو يقاوم النار مدة تكفي لنضج الطعام. أما شرب الماء فيستعملون له أواني البامبو أو القرع أو قشور جوز الهند أو ورقة من أوراق الأشجار أو اليد نفسها، ويستطيع الرجل أن يستعمل يده يقذف بها الماء إلى فمه دون أن يصاب وجهه بأي رذاذ.

ويقوم السيمانج كثيراً بتدخين الطباق وهم يحملونه في أنابيب من قصب البامبو صغيرة ولكنها مزركشة بنقوش جميلة، ويحصلون على الطباق من شعوب الملايو بالمقايضة فيبادلونهم بحاصلات الغابات الأرز والملح والخرز والطباق والأقمشة وغيرها. وفي سالف الأزمان كان السيمانج يحملون بضائعهم إلى مكان متفق عليه ويتركونها ثم يعودون بعد بضعة أيام ليأخذوا ما تركه الملايو في مقابلها من بضائع، وهذا مثل

آخر من أمثلة ما يسمى المقايضة الصامتة أو المتاجرة البكماء.

وعند ما يصل الرجل من السيمانج إلى سن الثامنة عشرة يبحث عن زوجة، ويجرى البحث عادة بين جماعات أخرى غير الجماعة التي ينتمي إليها وغالباً ما يذهب العريس إلى أهل عروسه ليعيش بينهم سنة أو سنتين يعود بعدها ليعيش هو وأولاده بين أهله. ويقضي الفرد من السيمانج حياته كلها بين أهله لا يختلط بغيرهم أبداً إلا في النادر القليل عند ما يقابل أفراداً من جماعة أخرى، ولذلك كانت آراؤه وأفكاره مقصورة على ما يكتسبه من أهله ولا يأخذ عن غيرهم رأياً جديداً، فلا غرابة إذن إن كان التطور بين هؤلاء القوم البدائيين يسير ببطء شديد. ولا يعرف السيمانج أي نوع من أنواع الكتابة وليس بينهم من يعرف من الأعداد أكثر من ثلاثة إلا أولئك القلائل الذين اختلطوا بالملايو. ولا يتلقى الأطفال أي نوع خاص من المعلومات إلا ما يكتسبونه عن طريق التقليد واللعب فالولد يلاحظ أباه وهو يصنع القوس فيقلده بصنع قوس مثلها يلعب بها، والبنت تتعلم من ملاحظة أمها وأخوتها كيف تصنع السلال أو تشيد المسكن.

والرقص عند السيمانج تسلية يحبها الجميع، وكثيراً ما يقيمون المراقص ليلاً ويقوم الرجال بدق النغمات على الطبول أو الآلات البدائية الأخرى بينما تقوم النساء بالرقص.

وملابسهم القليلة مثل غذائهم تماماً كلها من النبات. وصغار الأطفال لا يرتدون شيئاً. وترتدي النساء مناطق جميلة مصنوعة من خيوط

طويلة سوداء لامعة يأخذنها من نوع من الطحالب، وهذه الخيوط ينسجن منها حبلاً طويلاً رفيعاً يلف حول الجسم مرات عديدة ويتركن طرفي الحبل يتدليان على شكل حلية. أما الرجال فيكتفون بحزام بسيط أو حبل من ألياف النخيل يرشقون فيه أوراق الشجر، وقد يستعيضون عن مثل هذا الحزام بازار للخصر منسوج من لحاء الشجر المدقوق يلفون أحد طرفيه حول الوسط ويمررون الطرف الآخر بين الفخذين ثم يرشقونه في الجزء الذي يلف حول الوسط بحيث يتدلى طرفه من الأمام. ويصنع نسيج اللحاء من اللحاء الداخلي لشجرة فاكهة الخبز البرية أو شجرة اليوبا Upah وطريقة صنعه أنهم ينزعون من الشجرة لحاءها الداخلي ويغسلونه ويجففونه وبعد ذلك يدقونه بمطارق من الخشب قد تكون مستديرة أو مسننة ولكنها على أي الحالين منقوشة نقشاً جميلاً، ولكن نسيج اللحاء المذكور لا يعادل في دقته ذلك النسيج الذي صنعه التابا Tapa سكان بولينيزيا. ونسيج اللحاء غير معروف لدى أي شعب آخر من شعوب النجرتو ولذلك يظن أنهم هم الذين تعلموا صناعته من الشعوب المجاورة لهم. وهم في العادة لا يلبسون شيئاً على رءوسهم أو في أقدامهم، ويلبس الذكور والإناث على السواء نسيجاً شبكياً من ورق الأشجار وأساور وغوايش من الألياف وعقوداً من خيوط ألياف النخيل أو النباتات الطفيلية ملفوفاً فيها أصداف أو حبوب أو خرز أو ما إليها.

وأكثر القبائل توحشاً لا يعرفون الوشم ولا التشريط، ومن البديهي أن الوشم لا يظهر على جلد ضارب إلى السواد. ويحلق الرجال رءوسهم ويبردون نحو ست من أسنانهم الأمامية. وتلبس النساء في شعورهم

مشطاً سحرياً أو أكثر مصنوعاً من غاب البامبو ذا أسنان طويلة يبلغ طوله نحو خمس بوصات وعرضه نحو ثلاث وعليه نقوش محفورة فيه. وتوجد من هذه الأمشاط السحرية أنواع تختلف باختلاف الأمراض وقد تلبس المرأة أنواعاً متعددة منها لتحميها من عدة أمراض. ومن العادات المتبعة بينهم خرق شحمة الأذن ولبس حلق مصنوعة من أوراق الشجر الملفوفة. أما حلق الأنف فلا يلبسها من السيمانج إلا من اختلطوا بغيرهم من الشعوب.

ويصنع من قصب البامبو كثير من الأدوات عدا ما تقدم ذكره من كنانات السهام والأمشاط وأواني الشرب والعائمات، فإن رهافة حد ذلك النبات يجعل منه قاطعاً مفيداً إذ تستطيع شفرة من شظايا البامبو إذا أحمي عليه في النار أن تقطع قصب البامبو نفسه كما تستطيع أن تحتفظ بمضاء حدها مدة طويلة. ومن فلقات البامبو يصنعون السلال والحصير كما يصنعون منه الطبول ويتخذون منه مضارب لدق الطبول، وكذلك يصنعون منه الصفافير والأعواد الموسيقية وقد يصنعون منه الهاونات الخشبية ومن عظام الحيوان يشكلون الإبر والمخارز، غير أن الأدوات التي يصنعونها من الحجر غير متقنة، ومنها أسلحة حجرية تستعمل في القطع.

ويدفن السيمانج موتاهم في التراب وهم لا يخافون الأرواح ولكنهم يعتقدون بالتعاويذ وبالسحر ويلجأون إلى كليهما لحماية أنفسهم، فالرجال مثلاً يعتقدون أن الرسوم التي ينقشونها على كنانات سهامهم

تساعدهم على أن يعودوا من صيدهم موفقين وتحميهم من الأمراض. وقد نشأ عن هذا الاعتقاد أن "الشامان" وهو الرجل المتخصص في السحر وعمل التعاويذ شخصية لها مركزها بين أفراد القبيلة، وهو يرتدي ملابس خاصة كما يحمل عصا خاصة بمهنته، وعند موته يحتفلون بدفنه احتفالاً خاصاً ويتوارث أبناؤه مركزه.

وتعيش قبائل الأييتا Aeta في الأقاليم الجبلية في الجزر الكبرى، وفي بعض الجزر الصغيرة في الفلبين، وهم يحيون حياة كثيرة الشبه بحياة السيمانج، غير أنهم يعتمدون على القنص أكثر مما يعتمد السيمانج ويستعملون في القنص طريقة الحفر الكبيرة يحفرونها في طريق الحيوان أو الحظائر الواسعة يغرسون حولها الأوتاد الغليظة ثم يسوقون إليها حيوان الصيد الكبير كالجاموس البري. ويدهنون رءوس السهام بالسم كما يفعل السيمانج، بينما لا يفعل ذلك غيرهم من شعوب النجرتو.

وكذلك يشبه السيمانج التابير والذين يعيشون في الغابات التي تغطي المناطق الجبلية في قلب غينيا الجديدة، وهؤلاء لا يعرفون التشريط ولا الوشم ولكن أكثرهم يخرقون الحاجز الأنفي ليلبسوا فيه سلخة رقيقة منحنية من عظام الخنزير البري، وملابسهم التي يرتدونها قليلة جداً وحليهم قليلة وبسيطة فهم يتخذون الأساور والحجال من الألياف المجدولة ويصنعون العقود من الحبوب أو من قطع صغيرة من قصب البامبو أو من الأصداف أو من أسنان بعض الحيوان. ومن عاداتهم أن يخرقوا شحمة الأذن ليلبسوا فيها حلية من أي نوع تكون.

ويحمل معظم الرجال حقيبتين إحداهما كبيرة تشبه الخرج يضعونها فوق الكتف وتتدلى عادة وراء الظهر، والأخرى صغيرة يلفونها حول العنق وتتدلى عادة إلى الأمام. وفي هاتين الحقيبتين يحمل قزم التايبر وكل ما يستطيع حمله من متاعه، فحليه المصنوعة من العظام والأصداف وسكاكينه المصنوعة من الصوان يحملها في الحقيبة الصغيرة في الأوقات التي لا يستعملها فيها، بينما يحمل في الحقيبة الكبيرة حصير النوم المصنوع من ورق الباندانس Pandanus والتي تبلغ ستة أقدام طولاً وثلاثة عرضاً وأدواته التي يولد بها النار، وكذلك يحمل فيها ما يمتلكه من الطباق. ويتكون جهاز توليد النار من ثلاثة أجزاء: عصا من الخشب يبلغ قطرها بوصة أو نحوها تفلق فلقتين تثبت بينهما حصاة لتبقيهما متباعدتين، وقطعة طويلة من نبات الراتان ملفوفة بعضها على بعض حتى تصير حلقة تامة الاستدارة، وخصلة من الصوفان تؤخذ من خوص فسيلة صغيرة من فسائل النخيل أو قطعة من النباتات الطفيلية الجافة.

وعند ما يراد توليد النار توضع قطعة من الصوفان بين فلقتي العصا في المسافة التي بين الحصاة وبين الجزء الذي لم يفلق، ثم يقوم مولد النار بوضع العصا على الأرض ويمسك بقدميه طرفها غير المفلوق؛ وبعد أن يفك من لفة الراتان ما طوله نحو ثلاثة أقدام يمسك اللفة بإحدى يديه ويمسك طرفها المفكوك باليد الأخرى، ثم يدخل اللفة تحت العصا في المكان الذي به قطع الصوفان، وبعد ذلك يحرك اللفة بسرعة جيئة وذهاباً وسرعان ما تسخن قطعة الصوفان ويتصاعد منها الدخان بعج فترة

وجيزة تتراوح بين عشرين وثلاثين ثانية وعندئذ يرفع المولد العصا وينفخ في الصوفان فلا تلبث شعلة الناس أن تتولد. وبعد ذلك توسم العصا بإحداث قطع عميق في المكان الذي الراتان يحك فيه. وفي كل مرة يراد فيها توليد النار تشق فلقة العصا مسافة قليلة إلى الخلف ويحك الراتان في مكان يبعد قليلاً إلى خلف المكان السابق، وهكذا تصبح العصا التي استعملت عدة مرات موسومة بعدة دوائر تكون قشرة العصا عندها متفحمة.

ويدخن التايبرو الطباق غالباً على هيئة سجائر يستعملون في لفها شرائط من ورق الباندانا الجاف، كما يدخنونه أحياناً في غلايين يصنعونها على طريقتهم الخاصة ولا تعدو أن تكون أسطوانة من قصب البامبو يبلغ قطرها نحو بوصة وطولها بوصات. ويأخذ أحدهم قبضة من الطباق يدسها إلى منتصف الأسطوانة، وعند التدخين يمسك بها رأسية بين شفتيه ويجذب أنفاس الدخان إلى أسفل.

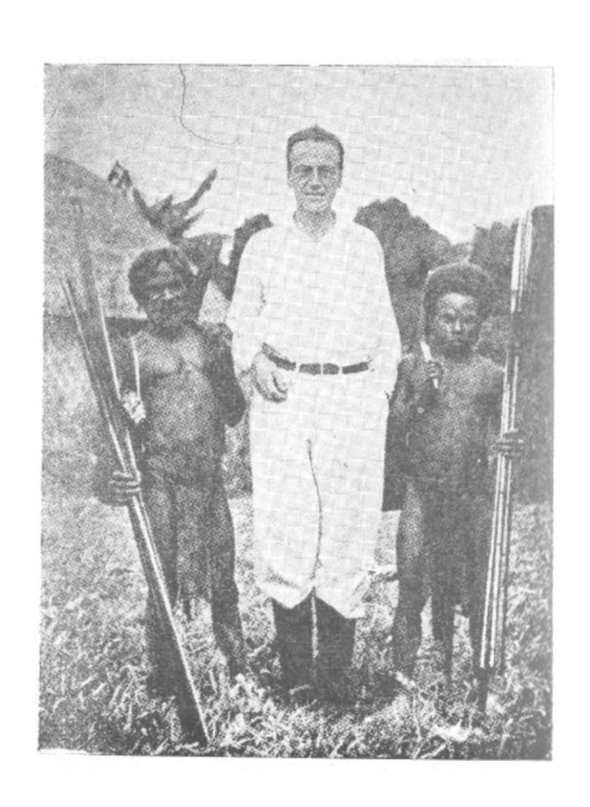
وأهم أسلحة التايبرو القوس والسهم، والقوس طويل يتخذونه من قطعة طويلة مستقيمة رقيقة الطرف من خشب الحديد يشدونها بوتر من الراتان؛ وهم لا يريشون سهامهم ولا يحزون في مؤخرتها الحز الذي يمر فيه الوتر، ولكنهم يزينونها بنقوش غاية في البساطة ولا يسقون أطرافها بالسم كما يفعل الأييتا ولا يعرفون الفخاخ وإنما يصيدون صغار الحيوان بالحبال المعقودة.

ويبنى التايبرو ومساكنهم فوق أكوام من التراب بحيث ترتفع أرض

المنزل عن سطح الأرض بمقدار أربعة أقدام إلى عشرة ويصعدون إليها بسلالم شديدة الانحدار تتكون من عمودين من الخشب يربط احدهما إلى الآخر ربطاً محكماً، وهم لا يدرجون العمودين بحيث يتكون منهما سلم حقيقي لكن حبال الراتان التي تربطهما تؤدي الغرض من ذلك بحيث تقوم الحبال نفسها مقام درج تعتمد عليه القدم. ويؤدي هذا الدرج البدائي إلى شرفة ضيقة أمام الكوخ؛ أما الكوخ نفسه واحد تبلغ مساحته نحو عشر أقدام في مثلها، وحيطانه ألواح طويلة من اخشب تكسوها من الخارج قطع صغيرة من لحاء الشجر، وسقوفها منحدرة انحداراً شديداً وهي أيضاً تتكون من ألواح من الخشب ومغطاة بقطع كبيرة من قشور الأشجار. وهم يحفرون في التراب في وسط الكوخ حفرة تملأ بالرمل أو بتراب الأرض يحتفظون فيها بجذوة النار مشتعلة، ووفي أعلى هذه الحفرة يوجد رف بدائي الصنع شعوب عليه قطعاً من الخشب لتجف؛ ومثل هذه المساكن غير معروف لدى أي شعب آخر من شعوب النجرتو ولذا يعتقد أنهم تعلموا صناعتها من جيرانهم البابوا (Papua).

والتابيرو الذين يعيشون في جنوب جبال ناساو في القسم الهولندي من غانة الجديدة ليسوا الشعب الوحيد في تلك الجزيرة، فقد كتب لورد موين أخيراً عن قبائل الأيومي (Ayome) الذين اكتشفهم في أعالي نهر رامو على بعد نحو أربعمائة ميل من موطن التابير والبشم Peschem وغيرهم. وهؤلاء الرجال القصار ذوو البشرة الداكنة قليلاً يندر أن يزيد طول أحدهم على أربعة أقدام وثماني بوصات أما النساء فأقصر من ذلك بأربع بوصات أو خمس في المتوسط. وتلبس النساء أحزمة فضفاضة،

ويغطى الرجال عوراتهم بمآزر من القماش ويلفون حول أوساطهم فروعاً لدنة من رباطات بعض النباتات المتسلقة الشبيهة بأشجار الكرم، وهذا النبات يستعملونه أيضاً في توليد النار بتحريكه حركة سريعة إلى الأمام وإلى الخلف تحت قطعة من الخشب حتى تشتعل. ومن عاداتهم خرق الحاجز الأنفي ليثبتوا فيه ريشة طير ومعها أربع شظايا أو خمس شظايا رفيعة من خشب الساجو تخترق الحاجز الأنفي بزوايا مختلفة مما يجعلها شبيهة بشوارب القط. ومن عادتهم أن يترك الرجال شعورهم المجعدة تطول كثيراً ثم يعقدونها برباط من الألياف ورخونها وراء ظهورهم، ثم يعمدون إلى الجزء الذي في الجانب الآخر من الرباط يكومونه على شكل قرص متماسك يشبه الإسفنجية يبلغ قطره نحو ست بوصات وسمكة نحو ثلاث، ويلبسون فوقه غطاء محكماً مصنوعاً من نسيج اللحاء، وحول المعصم والعقب يلبسون أساور وحجالاً دقيقة الصنع من الألياف، بينما يتخذون من أسنان الخنازير والكلاب عقوداً يلبسونها حول أعناقهم. ومن المتبع أن يحمل الرجل قوساً ونحو عشرة سهام ويبلغ طول القوس عادة نحو خمسة أقدام، ويتخذون للسهم ساقاً من البامبو يزينونها بنقوش محفورة وملونة باللون الأسود، ويشدون طرفي السهم إلى ساقه بشعر آدمي. ويحمل كثير من الرجال إلى جانب ذلك بلطة من الحجر ذات حدين كما يحملون على الكتف اليمنى درعاً يبلغ قطرها نحو عشرين بوصة، ومن المتواتر أن بعض الأقزام الأيومي يعرفون زراعة البطاطا والصرغم.



(شكل ٦) لورد موين بين إثنين من أقزام الأيومي

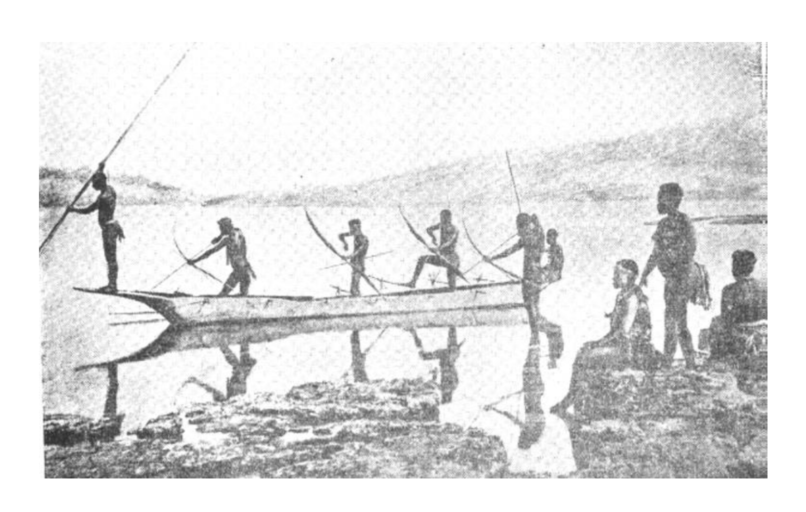
ويختلف الأندمانيون بعض الاختلاف عن غيرهم من الأقزام الآسيويين، وهم السكان الوحيدون الذين يقطنون جزر أندمان الموجودة في خليج بنغالة على بعد نحو مائتي ميل من الساحل؛ والذين يقطنون منهم قرب سواحل الجزر يستطيعون أن يحصلوا من البحر على رزق من الأسماك وفير، ولا سيما الغيالم التي تكثر هناك؛ أما سكان الجهات الداخلية فيعتمدون على جمع الفواكه البرية وقنص الحيوان الصغير ولا سيما الخنزير البري. وقد ازدادت حركة المقايضة بين سكان السواحل وسكان البقاع الداخلية وهي تتخذ شكل تبادل الهدايا. وينشئ سكان

السواحل فلايق[٢] كبيرة متقنة الصنع مزودة بألواح جانبية تحميها من الانقلاب، وهم دون غيرهم من الأقزام يعرفون صنع الفلايق ولكنهم لا يخاطرون بها بعيداً عن الشاطئ أبداً، ويستعملون المزاريق في صيد الغيالم والسمك الكبير، وعندما يصيبون الغيلم ينفصل طرف المزراق وتعوم ساقه. وأقواسهم على شكل خطاطيف معقدة الشكل وسهامهم التي لا يريشونها أبداً ذات أطراف من الحديد المطروق وهو بارد تنبت فوق حجر مسطح وهم لا يسمونها أبداً.

ولم تكن مضارب الاندمانيين فيما مضى أكبر ولا أحسن صنعاً من مساكن السيمانج، ولكن يبدو أنهم كانوا يقيمون بها مدة أطول، وأكواخهم البدائية بسقوفها المنحدرة كانت تترك مفتوحة من الأمام ومن الجوانب وبهذا كانت تبدو كثيرة الشبه بمساكن السيمانج، وكان يقطن كلاً منها الزوج وزوجته وأولاده الصغار، ويقام كل ثمانية مساكن إلى اثنى عشر حول منكشف من الأرض بيضي الشكل قطعت أشجاره يتخذونه ميداناً لإقامة الحفلات. وفي بعض الأحيان كانوا يقيمون أكواخاً جماعية كبيرة فيها ركن خاص بكل أسرة، كما كان للعزاب أيضاً ركنهم الخاص.

---

(٢) الفلايق جمع فليقة وهي الزورق المنحوت من جذوع الأشجار.



(شكل ٧) اندمانيون يصطادون

ويقيم الأندمانيون الأفراح احتفالاً بالشبان والشابات عند ما يبلغون الحلم ومن القواعد المتبعة في هذه الحفلات تحريم بعض أنواع الأطعمة على المحتفل بهم ولا سيما الأصناف الشهية. وعند ما اكتشف الاندمانيون لأول مرة كانوا يعرفون النار ويحتفظون بشعلة منها موقدة، ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يولدونها، وكانوا يصنعون أنواعاً بدائية من الأواني الفخارية، وكانت كل أدواتهم مصنوعة من الحجر والأصداف، وذلك قبل أن تصل إلى أيديهم الأدوات الحديدية.

ويعيش الاندمانيون في خوف دائم من الأرواح الخبيثة ويدفنون موتاهم في البقعة التي يقيمون فيها، يضعونهم وضع الجالس ويلفون أجسادهم بأوراق الأشجار، ثم يهجرون المخيم لمدة ثلاثة أشهر يعودون بعدها ليخرجوا جسد الميت ويغسلوه في البحر ثم يأخذون عظامه ويصنعون منها عقوداً يلبسها الأقارب والأحباب على سبيل التذكار،

ويعتقدون أنها تشفي الأوجاع والأمراض، فمثلاً من كان منهم يشكو آلام الأسنان لبس العقد حول وجه على أمل أن ذلك يذهب بأوجاعه، وكذلك تعلق جمجمة الميت حول العنق دلالة على الإعزاز. وعدد الاندمانيين آخذ في التناقص، ومن المحتمل أنهم صائرون إلى الزوال.

الفصل الثالث

بعض صيادين آخرين من غير الأقزام
سكان الغابات الإستوائية

هناك شعوب أخرى غير الأقزام تحيا الحياة التي سبق الكلام عنها، وهي حياة تخضع إلى حد كبير لنوع الحرف التي يحترفونها وهي الجمع والصيد إذ هم لا يزرعون ولا يربون حيوانات مستأنسة. وسنتكلم عن مثل تلك الشعوب باختصار، وسنقصر الكلام على الأمثلة القليلة الآتية: الساكاي (Sakai) سكان شبه جزيرة الملايو، والفدا (Veddas) في جزيرة سيلان، وبعض القبائل التي تعيش في أحراج جنوب الهند، والسيلونج (selung) في أرخبيل مرجوي (Mergui) والشعوب الثلاثة الأولى كبيرة الشبه بسكان أستراليا الأصليين الذين سيأتي الكلام عنهم في الفصل القادم.

ويسكن الساكاي شبه جزيرة الملايو في جنوب الإقليم الذي يقطنه السيمانج وهم عادة يقطنون الغابات الكثيفة في الوديان أو في السهول، وقد اختلطت دماؤهم في بعض الجهات بدماء قبائل الملايو والنجرتو، ولكن العناصر النقية منهم تختلف في مظهرها كثيراً عن السيمانج، فهم أطول من هؤلاء وأدق منهم بنية، ويختلف لون البشرة بين الأصفر والأسمر الداكن، ورءوسهم طويلة ورفيعة على عكس السيمانج ذوي

الرءوس الصغيرة المستديرة، وشعرهم الأسود المشرب بالحمرة الخفيفة طويل ومموج وليس قصيراً مجعداً كشعر السيمانج.

ويحيا الساكاي حياة تشبه حياة السيمانج شبهاً كبيراً، غير أن مساكنهم يستعملون بنادق هوائية يطلقونها بالنفخ فيها أما مساكنهم فمستطيلة الشكل ذات حيطان من جريد النخل المجدول وسقوفها من أوراق النخيل. وبعض هذه المساكن قد يزيد طوله على عشرين قدماً ويتسع لبضع عائلات، ولكن بعضها أصغر من ذلك كثيراً، وهي جميعاً تعلو قليلاً عن سطح الأرض، وتشبه في هذا مساكن الملايو الذين أخذوا عنهم هذه العادة وهي عادة تحميهم من رطوبة الأرض ومن الحيوانات الضاربة. وتعلوا المساكن الكبيرة عن الأرض بمقدار ثلاثة أقدام إلى ستة، ويصعد إليها بجذوع أشجار مدرجة، وقد ينشئون المساكن بين أغصان الأشجار العالية.

أما قصبة النفخ– أو بندقية النفخ في أندر صورها– وهي قصبة مجوفة قد يصل طولها من ثمانية أقدام إلى اثنى عشر قدماً، فإنهم غير معروفة إلا في منطقة محدودة ينمو فيها نوع من قصب الغاب ذو عقد غاية في الطول، وفيما عداها من المناطق تؤخذ بضع عقد من القصب وتوصل أطرافها بعضها ببعض وتغطي جميعاً بأنبوبة من نفس النباتات أطول منها بعد أن تزال العقد منها بواسطة عود صلب من الخشب، وتصقل أطرافها الخشنة بنوع من ألياف الراتان، وبعد ذلك يصقل داخل القصبة صقلاً تاماً ويزخرف سطحها الخارجي بنقوش جميلة محفورة فيها.

أما القذائف التي يبلغ طول إحداها من ثماني بوصات إلى إحدى عشرة، فيتخذونها من الجزء الأوسط المتين من جريد نوع من أنواع النخيل، فيقطعون الشظية من الجريد ويظلون يبردونها حتى تصبح في دقة المسلة، ويحزون قرب طرفها الخارجي حزاً عرضيا ليسهل على هذا الطرف أن ينكسر في جرح الفريسة، وهم يغمسون ذلك الطرف في السم كما يفعل السيمانج.

وعند الاستعمال يمسك الصائد بالقصبة رأسية في إحدى يديه ويضع القذيفة في وسط فتحة القذف، ثم يحشو حول طرف القذيفة بحشية رقيقة من ألياف بعض النخيل ليمنع تدخل الضغط الجوي أثناء إطلاق القذيفة، وبعد ذلك يضع الصائد طرف القصبة في فمه ويرفع الطرف الآخر إلى أعلى ويحكم أنفاسه ثم ينفخ نفخة قوية فتنطلق القذيفة وتحدث صوتاً مسموعاً كصوت بنادق الهواء؛ وتصل القذيفة في العادة إلى مسافة خمسين أو ستين قدماً، ولكنها قد تصل أحياناً إلى مسافة مائة قدم. وينتشر استعمال هذا النوع من السهام حيث يوجد الإبيو Ipoh وهو سم معروف في جنوب آسيا الشرقي وسومطرة وجاوة وسلبيز وبورنيو... الخ وكذا تستعمله بعض الشعوب في شمال أمريكا الجنوبية.

وتصنع للسهام كنانات من قصب الغاب توضع بداخلها أنابيب من الغاب أيضاً تحفظ فيها القذائف، ويصنع للكنانة غطاء من القصب المجدول وبداخله حلقة تحفظ فيها الحشايا المتخذة من الألياف.

وتعلق الكنانات بسيور تلبس حول الوسط وتثبت بخطاطيف من العظام.



(شكل ٨) الفدا وكهوفهم

وقبائل الفدا التي تسكن في شرق سيلان يشبهون الساكاي شبهاً كبيراً من الناحية الجثمانية، غير أن اون بشرتهم أسمر قاتم ورءوسهم صغيرة بل هي صغيرة جداً حتى ليقال إن جماجمهم أصغر الجماجم الإنسانية جميعاً. وقد تزاوج كثير من الفدا مع السنهاليين Sinhalese، ولكن لا يزال بعضهم إلى الآن يحتفظ بنقاء عنصره. وهؤلاء كثيراً ما يلقبون بالمتوحشين مع أنهم في الواقع رقاق للغاية ومؤدبون. ويعيش الفدا الخالصون في كهوف أو في مآو من الصخر أو في أكواخ بسيطة متخذة من أغصان الشجر، ويعتمدون على القنص وجمع العسل البري. وهم دائمو الانتقال من مكان إلى مكان كغيرهم من الأجناس التي سبق ذكرها، غير أن تجوال الفدا محدود فإن لكل جماعة منهم إقليمها الذي تستطيع القنص فيه؛ وفي كل إقليم عدد من الكهوف وينتقل القوم من

كهف إلى كهف أينما وجدوا حيوان القنص والعسل ونبات الصرغم. وتعد الكهوف الكبيرة ملكاً للجماعة، ويملك الأفراد الكهوف الصغيرة. وفي الكهوف الجماعية يوجد مكان خاص لكل أسرة تحفظ فيه متاعها وتطهى طعامها، وفيه يأكل أفرادها وينامون، ويبدو أن الطعام أيضاً ملك للجميع لأن امرأة واحدة قد تقوم بمفردها بإعداد الطعام لجميع سكان الكهف يشتركون في تناوله.

ويستعمل الأقواس والسهام في الصيد، وتولد النار باستعمال شطف الصلب والصخر، وهم يحصلون على الصلب بطريق المقايضة من السنهاليين، ولكنهم يولدونها أيضاً من حك قطعتين من الخشب. ويحصلون على العسل من النحلة الصغيرة غير ذات الحمة التي يربونها أحياناً، كما يحصلون عليه من البامبارا وهو نوع من النحل يبني خلاياه في الصخور، وعلى عسل هذا النوع من النحل يعتمد الفدا في الغالب. وليس جمع العسل في الحقيقة بالأمر السهل، لأن نحلة البامبارا تبني خلاياها في الأشجار كما تبينها في الصخور، وأغنى الخلايا بالعسل ما كانت في الصخور، وهي تكون عادة في الجروف العالية التي لا يستطيع الوصول إليها أكثر الفدا خفة، وقد يستخدمون في الوصول إلى مثل تلك الخلايا سلالم يصنعونها من النباتات المتسلقة ليصعد عليها خفاف الأجسام، وأحياناً يعقدون اجتماعات جماعية لتدريب الصبيان على تسلق مثل هذه السلالم بسهولة.

وإذا مات منهم ميت تركوا جثته في الكهف، وبعد أن يرقصوا بعض

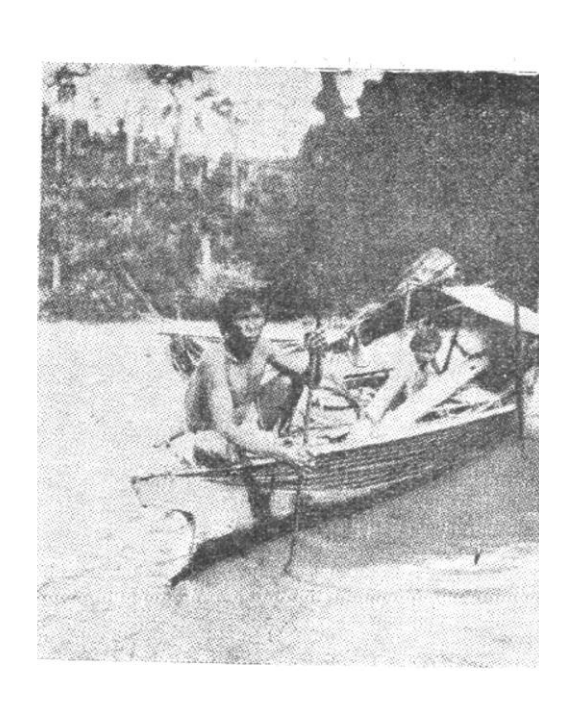
الرقصات يهجرون الكهف إلى كهف غيره، وهؤلاء الأقوام آخذون بسرعة في الانقراض.

وبعض سكان الأحراج في الهند مثل الكادير (Kadirs) والكورمبا Kurumbas لا يزالون يعتمدون في معاشهم على القنص وعلى جمع حاصلات الغابات، وهذه القبائل أيضاً تشبه الساكاي في صفاتها الجثمانية، ولو أن سواد جلود الكادير وشعورهم المموجة قد ترجح الظن أن بهم قليلاً من دماء النجرتو. وهؤلاء الأقوام الذين استوطنوا الهند قبل مجيء الجنس الدرافيدي كانوا فيما مضى منتشرين في معظم أنحاء الهند وكانوا على شيء من الثقافة. ويلبس نساء الكادير في شعورهن أمشاطاً مصنوعة من البامبو عليها رسوم تشبه كثيراً تلك الرسوم التي توجد على الأمشاط التي يستعملها بعض قبائل الملايو. ويبرد الكادير أسنانهم الأمامية حتى تصير مدببة ذات أطراف إبرية، وهم مهرة جداً في تسلق الأشجار مستعينين بالأوتاد، ويستطيع الواحد منهم أن يبني بيتاً من قصب البامبو وينشيء قنطرة من أعواده ومن أغصان الشجر، وأن يصنع من ألياف الشجر خيوطاً للسنارة وأن ينصب فخاخاً جيدة لصيد الحيوان والطير وأن يحصل على طعامه من أشجار الغابة ومن جذور نباتها.

أما اليوم فإن بعض سكان الأحراج يعملون في خدمة إدارة الغابات ويقومون إلى جانب عملهم بعض الحاصلات قليلة الأهمية كقرون الغزال وناب الفيل وخشب الراتان وغيرها. وتعمل الحضارة بسرعة على إدخال الوسائل الحديثة إلى حياة هذه الشعوب، فطريقة توليد النار بحك

قطعتين من الخشب مثلاً آخذة بسرعة في الاندثار ويحل محلها بالتدريج استعمال أعواد الثقاب.

والسيلونج اللذين ينتمون لجنس آخر– قد يكون الجنس الإندونيسي– يعيشون في أرخبيل مرجوي Mergui قرب سواحل جنوب برما ويتكون هذا الأرخبيل من عدد من الجزر لا يقل عن مائتين تختلف في مساحتها من الجزيرة الصغيرة التي لا تزيد على أن تكون صخرة قائمة في الماء، إلى جزر قليلة العدد أكبر مساحة قد يبلغ طول الواحدة منها من خمسة أميال إلى عشرين ميلاً، وهي جميعاً مغطاة بأحراج كثيفة لا يسهل اختراقها وتنتهي إلى المحيط بجروف قائمة أو شديدة الانحدار يتخللها هنا وهناك بعض الشواطئ المدرجة. وتندر في الجزر الحيوانات البرية فيما عدا القرد والخنزير البري والطائر قرني المنقار والحمام. وفي معظم الجزر يندر السكان، غير أن الصيادين من أهل برنا يقيمون بها مساكن مؤقتة يلجأون إليها في فصل الصيد، كما يغشاها أيضاً صيادو اللؤلؤ من اليابانيين وأهل الملايو والفلبين وبرما. وليس بين القبائل التي تعيش في هذا الأرخبيل من يثير الاهتمام كالسيمانج، وهم شعب عجيب من صيادي السمك المتجولين ولكنهم لا يبتعدون أبداً عن مياههم الساحلية، ويطلق عليهم أحياناً اسم "غجر البحر" وهم قوم على جانب كبير من الحياء وخشية الأجانب.



(شكل ٩) السيلونج في قواربهم

وفي فصل الصحو– من أكتوبر إلى مايو– يتجولون بين الجزر في فلايقهم الخفيفة التي تعد مساكنهم الفعلية، وتتكون الفلايق التي يبلغ طول إحداها نحو عشرين قدماً من شجرة محفورة تصبح هيكل السفينة يقوم فوقها بناء آخر من جريد النخيل المنتصب مثبت بعضه إلى بعض ومكسو بطبقة من الدامار dammar وهو عصارة شجرة تنمو بكثرة في تلك الأقاليم، تكسي به الفليقة فيحول دون تسرب الماء إليها، وبضعة مقاعد ومظلة من جريد النخل وشراع من الجريد المجدول، وبذلك يتم بناء القارب، فلا يدخل في بنائه أي معدن ولا تستعمل في ذلك أية أداة غير أداة تشبه الفأس تستعمل في قشر الخشب. وفي الواقع لا يعرف هؤلاء الناس أي نوع من الأدوات سوى حراب الصيد وهذه الفؤوس

وممتلكاتهم المنزلية قليلة، لأن حياة التجول نفسها تحول دون اقتناء كثير من الممتلكات التي لا تتفق مع سهولة الحركة، ولذلك كانت ممتلكاتهم مقصورة على قليل من قدور الطهي المصنوعة من الفخار ووعاءين أو ثلاثة من البامبو لحفظ الماء، وبعض الأواني الفخارية الأخرى وقليل من الصفائح الفارغة. وملابسهم قليلة، وفي أغلب الأحيان لا تزيد على ما يستر العورة، على أن بعض الشابات قد يلبسن أكثر من ذلك إذا استطعن الحصول عليه.

ويقضي السيلونج معظم وقتهم في صيد السمك أو في الغوص وراء اللؤلؤ، ولمنهم قد يجوسون خلال الغابة بحثاً عن العسل أو عن الخنزير البري يساعدهم في ذلك كلابهم، وقليل منهم يقومون بزراعة مساحات صغيرة من الموز والمانجو والأناناس، ولمن عنايتهم بها قليلة، فهم لا يزورونها إلا بين الحين والحين، إذا ينحصر اهتمامهم ونشاطهم في الحصول على قوتهم اليومي من السمك وأم الخلول والعسل والفواكه.

وفي فصل الصحو ينتقلون من جزيرة إلى أخرى دون أن يقيموا في مكان واحداً أكثر من ليلتين، فإذا حل فصل العواصف بحلول الرياح الموسمية الجنوبية الغربية اضطروا إلى التوقف عن الصيد وقصدوا إلى خليج محمي ينشئون فيه ملاجئ حقيرة يقضون فيها شهور الانتظار، وفي هذه الفترة يصلحون قواربهم وينسجون حصيرهم من جريد النخل.

ولا يزيد عدد السيلونج على تسعمائة نفس، ولا يبدو أن هذا العدد آخذ في النقصان.

وليس في أمريكا أقزام حيث ينتمي جميع السكان الأصليين إلى شعبة أو أخرى من شعب الهنود الحمر، ولكن هناك قبائل متأخرة جداً تعيش في غابات الأمزون وجيانا، وبعض هذه القبائل تزرع قليلاً من نبات المانيوق علاوة على ما تقوم به القنص؛ على أن هناك في أقاصي غابات الأمزون، تعيش قبيلة تسمى ماكو Makw أو بوجزا Pogsa، وهم قوم يعيشون عندهم ترفا غير معروف. والماكو بدائيون وذوو طباع خشنة إلى أقصى حد ولمنهم قناصون من الطراز الأول، فهم مهرة جداً في استعمال قصبة النفخ ويف استعمال القوس والسهم، على أن ما يوجد في غابات الأمزون من حيوان الصيد غير مضمون دائماً شأنه في ذلك شأن الفواكه والجذور الصالحة للطعام، ولهذا يتعرضون لفترات طويلة من القحط والجوع تتخلل فترات الأعياد والأفراح التي يقيمونها ابتهاجاً بما يعثرون عليه من القردة والطيور البرية. والبوجزا صغار الأجسام قباح المنظر شعث الشعر، وكثير منهم لا يلبسون شيئاً من الملابس ولا يستعملون شيئاً من أدوات الزينة، حتى ولا ريش الطيور الذي يكثر الهنود الحمر من استعماله. وبعض هؤلاء الناس البدائيين جداً لا يتخذون لهم مساكن من أي نوع، ولكن بعضهم ينشئون ماساكن على جانب من الحقارة، ولا يزيد فراشهم على كومة من القش، ولا يعرفون صناعة الفخار ولا أي نوع من أنواع النسيج، ولكنهم يعرفون النار ويصنعون من العظام نوعاً من الأعواد الموسيقية. وهؤلاء الأقوام صائرون حتماً إلى الزوال.

الفصل الرابع

سكان أستراليا الأصليون

أستراليا جزيرة كبيرة بمعزل عن العالم المعمور اللهم إلا في ناحيتها الشمالية القريبة من آسيا، ولهذا كان المدخل الوحيد الذي يمكن أن ينفذ منه الناس والأفكار إلى أستراليا هو ناحية الجزر الكثيرة القريبة من رأس يورك.

ويقع نصف القارة تقريباً في المنطقة الحارة، ولذلك كان مناخها حاراً أو دافئاً. وتقع الجبال فيها قرب السواحل، ففي الشرق تسير سلسلة جبلية من الشمال إلى الجنوب، وكذلك تقترب المرتفعات الغربية من الساحل، بينما ترتفع الأرض في الشمال والشمال الغربي ارتفاعاً كبيراً نحو الهضبة الداخلية. وتنعدم الأنهار انعداماً يكاد يكون تاماً، والنهر الوحيد ذو الأهمية هو نهر مري ورافده دارلنج، وتوجد عدا ذلك أنهار كثيرة تزخر بالماء في فصل الأمطار فقط، وحتى في هذا الفصل لا تلبث الأرض المتعطشة أن تشرب ما تجود به السحب من المطر القليل. ومقدار المطر الساقط قليل، وأكثر ما يسقط على السواحل الشرقية وفي الأجزاء الشمالية القريبة من إقليم الأمطار الاستوائية. ويقل المطر الساقط في كثير من أنحاء القارة عن عشر بوصات في العام. وقد كانت قلة كمية المطر الساقط مضافاً إليها عدم انتظام سقوطها- وهي صفة

تشترك فيخت جميع الأقاليم ذات المطر القليل- ما اضطر السكان الأصليين إلى حياة التنقل، ومع ذلك فإن الحاجة قد خلقت منهم قوماً ماهرين في معرفة مواطن الماء حتى في أشد الأقاليم جفافاً. وتكثر في الأقاليم المالحة البحيرات الملحة، كما أن التربة في بعض الأماكن مشبعة بالأملاح، وهذا سبب آخر من أسباب قلة النبات.

والغابات الأسترالية التي تحف بالسواحل تبدو للناظر أقرب إلى الإحراج منها إلى الغابات، ومن السهل اختراقها على ظهر جواد. وفي الجنوب الشرقي والشمال تمتد مناطق الأعشاب امتداداً عظيماً، لكن هذه الأعشاب تقل نحو الداخل ويتباعد بعضها عن بعض بسبب تناقص المطر حتى تقترب في النهاية من الصحراء القاحلة التي يمهد لها ظهور الصخور العارية أو الأرض التي تغطيها الأملاح، ومع ذلك فمن الصعب أن نقارن أستراليا بالصحراء الكبرى إذ أن في أستراليا يندر أن يوجد مكان ينعدم فيه النبات تماماً، وقد يكون أكثر أقاليم العشب صعوبة هو إقليم الشجيرات التي يستحيل اختراقها، وهو إقليم تغطيه شجيرات متشابكة تنمو بينها بعض الأشجار أحياناً. وهناك مناطق استبس أخرى تبدو كأنها أرض رعوية لكنها في الحقيقة من أكثر البقاع خطراً وأندرها سكاناً، لأن النبات الذي يشبه العشب هو في الحقيقة نبات شوكي جاف وأعواده يابسة حادة كأشواك القنفذ وليس لها أي قيمة غذائية.



(شكل ١٠) بعض التوزيعات في أستراليا

ولسنا نعرف تماماً ما هي أنواع النبات الذي كان السكان الأصليون يعيشون عليه، غير أن شيئًا من تلك النباتات الأصلية لم يستأنس بالزراعة، ومن المتواتر أنه كان في جنوب أستراليا واحد وعشرون نوعاً مختلفاً من الجذور، وأربعة أنواع من العصارات، وسبعة أنواع من الطفيليات، ونوع من الساجور وزهور البرنكسيا Branksia بما تحويه من عسل وفير، وكانت جميعها تستعمل في الغذاء، ومع ذلك فإن النباتات الغذائية في الشمال كانت أكثر جداً مما كانت في الجنوب.

وكما كانت الحياة النباتية قليلة كذلك كانت الحياة الحيوانية، ولم يكن هناك حيوان يمكن استثنائه غير الكلب الأسترالي نصف المتوحش، ومن المحتمل أنه أول ما وصل إلى أستراليا كان نصف مستأنس.

وكما أنه لم يكن بأستراليا حيوان مستأنس لم يكن بها أيضًا حيوان مفترس، ومع ذلك فلا بد أن صيد الكنجرو والأيمو كان شاقاً بسبب قدرتهما على الجري السريع، ولم يكن صيد الحيوانات الأخرى سهلًا لأنها جميعًا حيوانات ليلية.

ثم إن طبيعة القارة ومواردها أرغمت أهلها الأصليين على أن يكونوا صيادين قبل كل شيء، وكان لزاماً عليهم أن يحصلوا من بين العشب والشجيرات على غذاء يوم بيوم وإلا هلكوا من الجوع. وقد كان من نتيجة ذلك أن أصبحوا من أمهر الصيادين وقصاصي الأثر في العالم، ولا زالت حكومة أستراليا إلى اليوم تلجأ أحيانًا إلى بعضهم ليعاونوها على افتقاء أثر المجرمين.

ويعتقد الثقات أن أول من دخل أستراليا من السكان هم أولئك الذين استوطنوا تسمانيا، وأنهم دخلوها عندما كان مضيق تورس في الشمال ومضيق باس في الجنوب لا يزالان جزءاً من اليابس. فلما هبطت الأرض وانفصلت تسمانيا انعزل أهلها عن بقية سكان القارة. ولا يوجد اليوم أحد من أولئك التسمانيين فقد هلك آخر فرد منهم في سنة ١٨٦٧ . وبعد انفصال تسمانيا نزح إلى أستراليا جنس جديد دخلها من الشمال وصار يعرف بالأستراليين الأصليين، وذلك قبل أن تهبط الأرض في شمال رأس يورك وقبل تكون مضيق تورس. فلما تكون هذا المضيق انفصل الأستراليون عمن يليهم إلى الشمال، كما انفصل التسمانيون من قبل، ولبثوا قروناً عديدة دون أي اتصال بالعالم الخارجي لبعد القارة عن

العمران في جميع الاتجاهات إذا استثنينا شمالها الشرقي، وقد حرمتهم هذه العزلة من أن تصلهم أي آراء من الخارج، فبقوا على حالهم المتأخرة ولم يحدث تغير يذكر في طريقة حياتهم. أما سكان الشمال فإن ثقافتهم وطرق حياتهم قد اعتراها بعض التغير لقربهم من جينيا الجديدة وجزر مضيق تورس التي كان أهلها يجوبون البحار في فلا يقهم المنحوتة من جذوع الأشجار.

ومن المحتمل أن عدد السكان الأصليين في أستراليا لم يكن كبيرًا في يوم من الأيام، ويقدر أنه كان في سنة ١٧٨٨ من ٢٥٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف. ومنذ دخل الجنس الأبيض أخذ عدد أولئك في التناقض حتى أنه لا يقدر اليوم بأكثر من ٥٠ ألف من الخالصين و١٤ ألف من المهجنين، وبعض هؤلاء يعيشون في أقاليم خصصت لهم بينما لا يزال بعضهم يعيش في الفلوات الفقيرة التي لم يسكنها الأوروبيون، كما كانوا يهيمون منذ أقدم العصور، وبعضهم قد برم بقيود المدينة فتقهقر إلى أقاصي أعماق القارة. وقد يعيش المرء في فكتوريا أو في نيوسوث ويلز سنوات عديدة دون أن تقع عينه على أحد من السكان الأصليين الذي يعيش أكبر عدد منهم في أستراليا الشمالية والوسطى وفي الشمال الغربي من أستراليا الغربية.

ويرى العلماء أن سكان أستراليا الأصليين ينتمون إلى بعض الشعوب التي تكلمنا عنها في الفصل السابق (الساكاي والفدا والكادير) وأنهم جميعاً من جنس واحد هو المعروف باسم ما قبل الدرافيدي. وهم بلا

شك شعب من أقدم شعوب العالم وأكثرها تأخراً، وهم موزعون في مساحات شاسعة من القارة مما يجعل اختلافهم في مظهرهم وطرق حياتهم اختلافاً يسيراً من إقليم لآخر أمراً طبيعياً، ويظهر هذا الاختلاف على الأخص في لون البشرة وفي شكل الرأس.

وهؤلاء الأقوام ذوو أجسام طويلة رشيقة مفتولة، وصدور عريضة جميلة، لكن أرجلهم مع ذلك رديئة التكوين. وهم في طولهم أقل من الرجل الإنجليزي العادي، إذ يبلغ متوسط طول الرجل منهم خمسة أقدام وست بوصات، ولو أن منهم من يزيد على سنة أقدام، كما أن منهم من لا يزيد على خمسة. أما النساء فمتوسط الطول بينهن، يقل عن متوسط الطول بين الرجال بنحو أربع بوصات. ولون البشرة يختلف من الأسمر العادي إلى لون الشوكولاته الداكن، ولون الأطفال أقل سواداً من لون البالغين، والرؤوس مستطيلة (أي أن عرضها أقل من ٧٥% من طولها) وجباههم متراجعة إلى الخلف، وعظام حواجبهم وأنوفهم بارزة، وأفواههم كبيرة، وشفاههم غليظة، ولكنها ليست مقلوبة كشفاة الزنوج، وأنوفهم عريضة ومنخفضة في جزئها الأعلى، ومحدبة في وسطها مما يجعلها شبيهة بأنوف اليهود وعيونهم السوداء غائرة، ولكن أهم ما يميزهم شعرهم النبي القاتم الذي لا هو مفلفل ولا مكتكت كشعر الزنوج فهو مموج أو أشعث، بل قد يكون مستقيماً. على أن لون الشعر يصعب تحديده لأنهم يدهنونه دائماً بالمغرة على سبيل الزينة. ويكثر الشعر على الوجه وعلى الجسم، ويطلقون لحاهم التي يتبدل لونها في الكبر إلى لون أشهب، فتضفي على الرجال ثوباً من الوقار. وأيديهم صغيرة وأرجلهم

رفيعة، وتساعدهم أقدامهم العريضة بأصابعها الرخوة على أن يلتقطوا بها الأشياء بنفس السهولة التي يلتقطونها بها بأيديهم، بينما تساعدهم صلابة قاع أقدامهم على السير فوق الأرض الوعرة بسهولة لا تتيسر لرجل أوروبي ينتعل نعلاً مناسباً.

وكل ما يستعمله الأستراليون الأصليون من قبيل الملبس، متخذ من المملكة الحيوانية، باستثناء الأحزمة المصنوعة من لحاء الشجر، وملابسهم في الواقع قليلة جداً، إذ أنها لا تعتبر أبداً من الضرورات، وتتكون من شراشيب أو أهداب من الخيوط المصنوعة من شعر الأوبوسم Opossum[٣] أو من مآزر مصنوعة من نفس المادة أو من الشعر الآدمي. ويحمل الرجال أسلختهم في مناطقهم. ويلبس الوطنيون في الليالي الباردة ملابس ثقيلة مصنوعة من جلود الكنجرو أو الأبوسم أو الدب الأسترالي. وتحتاج عباءة الشخص البالغ إلى ثلاثين أو أربعين من جلود الأوبوسم، وهم يدبغون الجلود ثم يخرزونها بمخراز مصنوع من العظام، ثم يشبكونها بعضها إلى بعض، بواسطة خيوط رفيعة يمررونها في الخرق الناتجة، وبذلك يتم صنع العباءة. والسكان الوطنيون في فكتوريا هم أكثر الأستراليين استعمالًا للملابس، حيث الجو هناك أبرد، ويستعملون مرايل من الجلود أو الفراء أو الريش، كما يصنعون أبسطة من جلود الأوبوسم، وحينما يعيش الوطنيون قريباً من مواطن المستعمرين الأوروبيين، تغطي نساؤهم أجسامهن بما يجدنه من قطع الأقمشة ومن

---

(٣) حيوان من ذوات الجيب يعيش في أستراليا.

الثياب. ويطيل الرجال شعورهم ويكومونها أحيانًا على هيئة قرص من الشعر، مختلط بدهانات مختلفة من المغرة الحمراء والدهون والأقذار، بينما يندر أن يسدل النساء شعورهن حتى تصل إلى أكتافهن؛ وفي هذه الحالة يندر أن يكومنه على هيئة أقراص، بل يغلب أن يكون ملفوفًا في شبكة، أو مربوطاً بشريط، مع استعمال قضيب من الخشب في حجم قلم الرصاص، في أغراض التمشيط. وينتشر في كل مكان استعمال أدوات الزينة على اختلاف أنواعها، وهي تشمل عقوداً منوعة من أسنان الكنجرو ومن الأصداف ومن قطع الغاب، وحلياً للجبين، من أسنان الكنجرو، ودبابيس تلبس في الأنف. ومن عاداتهم خرق أناف الطفل في الطفولة المبكرة بأداة من العظام تشبه المخراز، ثم يترك الخرق بعد ذلك على حاله، أو تدخل فيه قطعة رفيعة من العظام. لكن الأساور المصنوعة من الغاب لا تستعمل إلا بين الذين يعيشون في الأقاليم الوسطى. ومن وسائل الزينة أيضاً التشريط، وأكثره يتم في أوقات الحداد على الموتى، ففي هذه المناسبات، يقطع الجلد بقطع من الصوان أو الزجاج، وبعد ذلك يحك الجلد برماد النار أو زغب الريش، ليساعد في اعتقادهم على سرعة شفاء الجرح، مع أن الذي يحدث فعلاً، هو أنه يترك أثره في الجلد على هيئة ندبة. ولأغلب هؤلاء الناس أيضًا ثنيات جلدية كبيرة، تكونت فوق بطونهم، من كثرة ما يشدون عليها بأحزمتهم، عندما يقضون أيامهم على الطوي. ومن الملاحظ أيضاً أنه يندر بين الرجال من لم يفقد من أسنانه الأمامية واحدة أو اثنتين، تكون قد أصابتها وأطاحت بها ضربة أثناء حفلاتهم التدريبية. ومن عادات النساء قطع عقلتين من عقل احدى

الخنصرين، واستعمال الخصاب بكثرة ولا سيما في الحفلات، ويستعملن في ذلك عديداً من الألوان، منها الأحمر والأصفر والأبيض والأشهب والأسود، وللمغرة الحمراء سوق رائجة عندهم، لأنهم يستعيضون بها في حفلاتهم عن الدماء البشرية.



(شكل ١١) أهل الحرف في القبيلة يصنعون فأساً حجرية

ويحيا هؤلاء الوطنيون حياة التجول، وتهيم كل قبيلة في الإقليم الذي تدعي ملكيته، ولا تقيم في مكان واحد، إلا ريثما يندر الصيد، أو يغيض الماء. أما طالما كان الصيد والماء وفيرين، فإنهم يتجولون في أقليمهم هنا وهناك جماعات صغيرة، لا تزيد إحداها على عائلتين أو ثلاث، وتتكون العائلة عادة من الزوج وزوجته أو زوجاته، وأولادهما، الحقيقيين أو المتبنين، ويقيمون مضارب مؤقتة بجوار موارد الماء. وهذه المضارب ينشئونها على نظام خاص كل واحد منها على بعد ١٥ إلى ٢٠ قدماً من الذي يليه، وتقيم كل عائلة في كوخ مستقل أو Wurly كما يسمونه. وهذه المساكن على جانب من البساطة، وقد لا تزيد على مجرد

حاجز لصد الريح، أو كوخ حقير. أما حيث يوجد قدر كاف من الطعام ومن الماء، فإنهم يقيمون مساكن أكثر متانة، يصنعونها من الأغصان المغطاة بقشور الأشجار أو بالعشب، وفي بعض الأحيان بطبقة من الطين، ويراعى أن تكون الناحية المفتوحة من هذا المسكن، هي الجهة التي لا تأتي منها الريح، وبذلك تحجب الريح عن النار التي يوقدونها في نفس الجهة، كما تدفع أيضاً دخان النار بعيداً عن الكوخ. وفي كوينزلند تغطى الأكواخ بأوراق الشجر، وفي أستراليا الغربية بلحاء الشجر أو بالحلفاء، وفي فكتوريا بالخشب أو بالعشب، ويقال إنه قد عثر في الشمال الغربي على أكواخ مبنية من الحجر. ويتكون كوخ الأرنتا Arunta التي تعيش في أستراليا الوسطى، من غصنين ذوي شعبتين، يغرسان في الأرض على بعد سبعة أقدام أو ثمانية. ويثبت فوق شعبتهما قضيب من الخشب في وضع أفقي، ثم يأتون بأغصان ذات أوراق عريضة يثبتون أطرافها السفلى في الأرض، ويسندون أطرافها العليا إلى القضيب الأفقي من الناحية التي تهب منها الريح. أما الأثاث فلديهم منه النزراليسير: حجر الطحن، ومغزل بدائي الصنع، يستعملونه في فتل الخيوط، وقليل من القصع الخشبية.

ويعتمد سكان أستراليا الأصليون في غذائهم على لحوم الأسماك والسحالي والضفادع والثعابين والديدان والحشرات، وعلى الخضر البرية، وبعبارة أخرى على كل شيء غير سام يصلح للأكل. ومقدار ما يستطاع الحصول عليه من هذه الأطعمة يختلف اختلافاً كبيراً في أجزاء القارة المختلفة. ومهمة النساء- يساعدهن أطفالهن- هي جمع الحشرات الصغيرة والجذور والفواكه والحبوب وما إليها، أما الرجال،

فعليهم الصيد والقنص وجمع العسل. وتجوب النساء والأطفال أنحاء الإقليم للبحث عن الطعام. ويحملن معهن عصا غليظة أحد طرفيها مدبب والآخر حاد، تستعمل في البحث عن الجذور، ثم يجمعن كل ما يحصلن عليه في قصعة من الخشب يحملنها فوق رؤوسهن أو فوق خصورهن. وأهم الجذور التي يجمعنها، جذور الرصغم، وهي نوعان. وتجمع أيضًا جذور نباتات أخرى كالبرسلان Purslane وتطحن بين حجرين، وما ينتج عن ذلك من طحين خشن يخلط بالماء، فيتحول إلى عجينة خشنة ثم يؤكل نيئاً أو مخبوزاً، وتتبع نفس الطريقة في ما يسمونه حبوب الناردو، أو السنبل الرومي، وهو نبات غير مزهر، ولكن القيمة الغذائية لهذا الطعام قليلة. ومن المحصولات النباتية الأخرى التي يجمعونها، نبات الطرطوفة (وهو طفيلي ينمو تحت التربة ويصل إلى أحجام كبيرة ويطلق عليه اسم الخبز الوطني) وحبوب السنط وغيره والفواكه والطفيليات، وحتى المن (وهو عصارة تتركب من سكر العنب وتوجد على بعض النباتات) له عندهم قيمته. وتجمع النساء كذلك ما صغر من الحيوان كالفئران والسحالي والثعابين والضفادع والقواقع والديدان الصغيرة والكبيرة (grubs & caterpillars) وبالاختصار يجمعن كل ما يستطاع تناوله.

ويقوم الرجال بجمع العسل، وعندما يعييهم العثور على خلايا النحل البري، يمسكون نحلة ويلصقون على جسدها بالصمغ زغب ريشة، وبذلك يستطاع تتبع أثرها إلى حيث يوجد عسلها المختزن. ويصيد الأهالي الأسماك كلما كان الصيد ممكناً، ويستعملون في ذلك المزاريق

والحراب والمصايد والشباك والسدود والسم، وتقوم النساء بجمع الأسماك ذات المحار.

وكثير من الوطنيين يجيدون السباحة والغطس، وفي بعض الأحيان، عندما يشاهد الوطني سرباً من البط مستقراً فوق صفحة النهر، يغطس بهدوء في الماء ويسبح تحته إلى حيث يوجد الطير ثم يجذبها تحت الماء ويكسر عنقها واحدة بعد أخرى. وقبل أن يحس بقية السرب بالخطر، ويأخذ سبيله إلى الجو، يكون قد حصل على عدد وفير منه. لكن الوطنيين مع ذلك لا يعرفون الملاحة، ولا توجد أية وسيلة من وسائل النقل المائي، لدى الذين يعيشون منهم في بعض الجهات الغربية والجنوبية الغربية، لكن الأرماث كثيرة الاستعمال في الشمال الغربي. والرمث أو الطوف في أبسط صورة،

كتلة من الخشب يجلس فوقها الإنسان ويدلى رجليه في الماء ويسيرها تجذيفاً برجليه أو بيديه. وهناك أرماث أرقى قليلاً من هذه، وتتكون من جذعين أو ثلاثة من جذوع الأشجار مربوط بعضها إلى بعض، ويجلس فوقها رجل أو أكثر ويسيرونها بالتجذيف بمجاذيف صغيرة أو بحراب. وقد يكون أكثر أنواع الأرماث الأسترالية انتشاراً هو ذلك النوع الذي يسمى الجذع المنحنى، وهو كثير الانتشار عند الوطنيين الذين يقطنون ما يسمى الآن فكتوريا ونيو سوث ويلز. وطريقة صنعه أن يأتوا بلوح من الخشب يقشرونه من جذع شجرة خاصة من نوع من أنواع الكافور، ثم يعرضونه للنار ويجنون أطرافه وهو فوقها، ثم يربطون

الأطراف أو يخيطونها بجبال مصنوعة من قشور شجرة أخرى؛ وفي بعض الأحيان يقلفطونها بالطين. وإذا كان القارب قد صمم على أن يعيش سنوات عديدة، بذلوا في تشكيله جهداً كبيراً، وقضوا في تجفيفه وتمتينه أياماً عديدة. وهذه الأرماث (أو الأطواف) التي تصنع من ألواح الخشب، يندر أن يزيد طولها على اثنى عشر قدماً أو أربعة عشر، وأصغرها ما كان مصنوعاً ليستعمله شخص واحد، على أن الكبير منها قد يتسع لثمانية أشخاص أو عشرة. وهذه الأرماث المصنوعة من الألواح المحنية تستعمل عادة في الأنهار، وتدفع بقضيب من الخشب أو جاروف من قشر الشجر أو بمجذاف صغير، وتوضع في قاعها كتلة من الطين الجاف تستعمل موقداً للنار.

ويوجد من الأطواف نوع آخر راق يصنع من عدة ألواح من قشور الشجر مخيطة بعضها إلى بعض، وهذا النوع– وتوجد منه أشكال مختلفة– يستعمل عادة عند الوطنيين الذين يقطنون السواحل الشرقية من شمال برسبين إلى خليج ركنجهام، وهي تسير بمجاذيف صغيرة ذات شكل معين، أو على شكل مضارب. وتستعمل الفلك المنحوتة من جذوع الأشجار في شمال القارة. وفي بعض الأحيان يوجد لها عارض جانبي واحد يحميها من الانقلاب، وقرب رأس يورك يوجد لها عارضان وبعض هذه الفلك ذات العوارض قد يبلغ طولها خمسين قدماً وتسير بالشراع كما تسير بالمجاذيف الصغيرة، ومن المعتقد أن هذه القوارب ذات العوارض الجانبية ليست من أصل أسترالي بل عرفها الأستراليون من جينيا الجديدة.



(شكل ١٢) وطني من شمال أستراليا في قاربه المفرغ

ومهارة الأستراليين في قتل الحيوانات البرية والإيقاع بها بأسلحتهم البدائية– لكن المتقنة الصنع– أمر عجيب حقاً، فإن كل ما كان في متناول أيديهم من المواد الأولية يصنعون منه أسلحتهم لم يكن يعدو الأحجار والأصداف والعظام والأسنان والخشب وألياف النباتات المتنوعة وصمغ بعض النبات وشمع العسل، وذلك قبل أن يجيئهم الأوروبيون بالقوارير الزجاجية والفواصل الفخارية (Earthenware insulators) والحديد، ولا يعرف استعمال القوس منهم سوى سكان كوينزلند الذين هم أصلاً من سلالة البابوا. أما السلاح الوحيد الذي يمتاز به الأستراليون الأصليون فهو "البومرانج"، وهو قطعة من الخشب

رقيقة ومقوسة، يتراوح طولها بين قدمين وثلاثة أقدام، بها ثنية بسيطة في كلا طرفيها، على أن هناك عدداً من القبائل لا تعرف هذا السلاح. و"البومرانج" على أنواع عديدة، والنوع الذي يرتد إلى حيث يقف قاذفة، هو في الواقع أداة من أدوات اللعب، ولو أنه قد يستعمل أحياناً في صيد الطيور، ولكن كثيراً من القبائل لا تستعمل هذا النوع. وللأهالي الوطنيين مهارة في قذف هذا السلاح بحيث يتخذ في الهواء طريقاً بيضوي الشكل تقريباً. و"البومرانج" الحربي العادي يقذفه الرجل وهو منحن، فيصيب العدو أسفل درعه، وهو يقذف بحث يصيب الأرض أولاً على بعد نحو ستين قدماً، ثم يرتفع منها ويطير نحو مائتين وأربعين قدماً على ارتفاع ثابت هو أربعة أقدام. وبعض أنواع "البومرانج" يمكن قذفها مسافة سبعمائة وخمسين قدماً وهو ينفذ بسهولة خلال الأجزاء اللينة من جسم الإنسان.

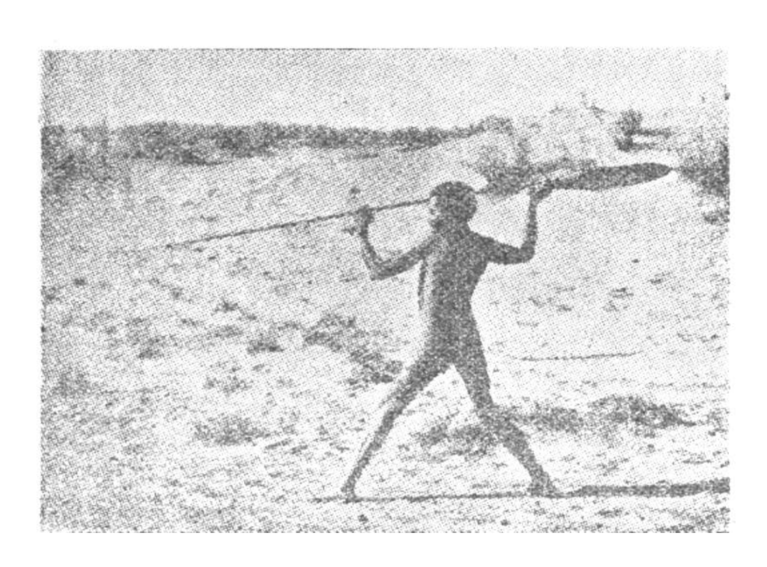
وكانت الحراب وما زالت أهم أسلحة الصيد والحرب، وكثيراً ما تزود الحربة بثلاث قطع من السلك، ولها في الغالب رأس منفصل عن بقية جسمها يصنع من قطعة من الخشب المتين أو الحجر المشطوف، وفي الوقت الحاضر يصنعونها من الزجاج أو أسلاك التلغراف. وقد تقذف الحراب باليد، ولكنها في العادة تقذف بأداة قاذفة يسمونها womera أو Awesa، وهذ أداة على شكل ورقة شجرة يثبت في أحد طرفيها خطاف يوضع فيه طرف الحربة، بينما يخشن الطرف الآخر ليسهل لليد القبض عليه. وهذه الأداة هي للقاذف بمثابة امتداد للذراع يزيد قوته على القذف البعيد، وقد استعمل في أغراض أخرى كاستعمالها

أحياناً في توليد النار. وتوجد قاذفات تشبه هذه بعض الشبه، يستعملها الإسكيمو، وكثير من الوطنيين في غرب أمريكا الجنوبية وشمالها وجنوبها، وكذلك كان يستعمل مثلها أهل المكسيك القدماء.

وتتخذ السكاكين من الحجر المشطوف، وهي تمسك باليد أو تثبت بواسطة عصارة الشجر إلى أيد من الخشب، بينما تتكون البلطة من حجر مشكل تشكيلاً دقيقاً له يد خشبية تنتهي بشعبتين، ويثبت إليها بالصمغ أو بالربط بخيوط من الألياف أو من عصب الكنجرو. ومن أسلحتهم أيضاً الهراوات الصغيرة يقذفونها، والهراوات الكبيرة يضربون بها، ويستخدمون دروعاً من نوعين أحدهما لاتقاء الضرب بالهراوات، والأخر لاتقاء الضرب بالهراوات، والآخر لاتقاء الحراب، وكلا النوعين يزينونه بخطوط يحفرونها فيه، وتختلف أشكال الأدوات المتنوعة في أنحاء القارة المختلفة، وبعضها غير معروف أصلاً في بعض الجهات، فمثلاُ "البومرانج" لا أثر له في الأطراف الشمالية من شبه جزيرة رأس يورك، وكذلك قاذف الحربة غير معروف في الجنوب الشرقي من كوينزلند.

وسكان أستراليا الوطنيون صيادون مهرة، وهم يعرفون كل طريقة يستطيعون بها التغلب على ذكاء الحيوان. ومن ذلك إغراؤه عن طريق تقليد صوته. ويصاد الطير غالباً بطريقة بسيطة جداً أو بواسطة الشباك، لكن عندما يكون سرب كبير منها يستعمل "البومرانج" في الغالب. غير أن "الإيمو" القوي الذي قد يزن مائة وخمسين رطلاً، لا يصاد بهذه

السهولة، وقد تستعمل الشباك للإيقاع بالطير الكبير، وقد تحفر له حفرة كبيرة أو عدة حفر متتالية بالقرب من مساقطه، ويرشقون وسط الحفرة حربة قائمة يغطونها بالأغصان والتراب، ولا بد أن يسقط فيها عاجلاً أو آجلاً أحد تلك الطيور الكبيرة فيستقر جسده فوق الحربة. ويصاد الكنجرو- ......



(شكل ١٣) قذف الحربة

..... وهو على أنواع عديدة- بطرق مختلفة، أكثرها شيوعاً طريقة الشباك، على أن الكلاب قد تستخدم في الجو المطير. وأكثر الطرق رياضة أن يطارده رجل بمفرده حتى تخور قواه، لكن هذه الطريقة تستلزم قوة جسمية خارقة من جانب الصياد. وتصاد الأنواع الصغيرة من الكنجرو بواسطة الشباك أو الفخاخ تنصب في طريقها، بينما قد يصاد الأوبوسم Opossum في الليالي القمرية بمساعدة الكلاب، على أن

أكثر الطرق انتشاراً لصيده هي أن يبحث في جذوع الأشجار عن آثار مخالبه، فإذا عثر عليها، يصعد الوطني إلى الشجرة ويقطع في جذعها قطعاً في المكان الذي يظن أن الحيوان مختبئ فيه، ثم يجره إلى الخارج جراً، أو يسلط عليه الدخان، فيضطره إلى الخروج. والوطني ماهر في تسلق الشجر، ويزيد في سهولة مهمته ما يحفره في جذعها من حزوز ليثبت فيها قدميه.

ومعظم الأطعمة تطهى بالشي على النار، أو على الأحجار المحمية. أما الطيور فإنها عادة تنتف ثم توضع على النار. وكان سكان فكتوريا فيما مضى يصنعون نوعاً من الأفران يتخذونها من الأحجار المحمية، وعليها عشب مبلل، وكانت الطيور توضع على العشب وتغطى بالطين، ثم توضع بعد ذلك على النار، وتبقى النار موقدة حتى يتم نضج الطيور، وعندئذ يزيلون الطين فيقتلع معه الريش. أما الكنجرو فإنهم يحرصون قبل طهوه على انتزاع أعصاب الذيل، ويلفونها على عصل للانتفاع بها في الخياطة، ويطهى الكنجرو بطرق مختلفة، ففي بعض الأنحاء يحفرون في الرمل موقداً يحمونه ثم يضعون فيه الحيوان دون سلخ، ثم يهيلون عليه رماد النار ويتركونه ينضج على مهل، وفي بعض الأحيان يقطعونه ويطهونه قطعة قطعة.

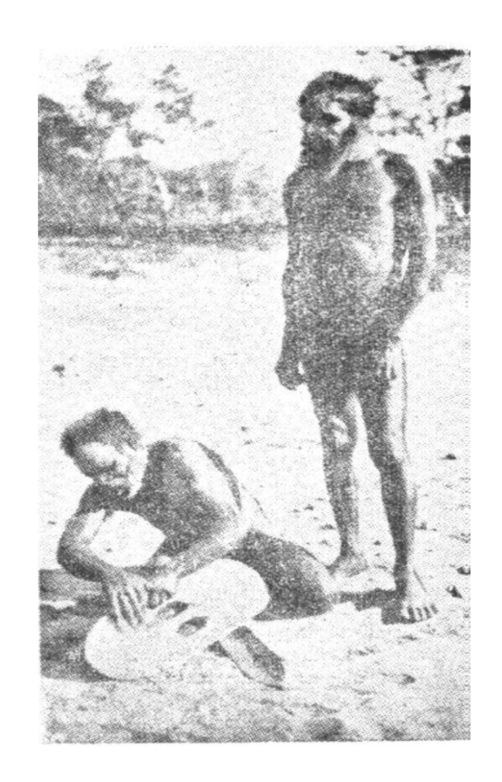
ولا يهتم الوطنيون بتنظيم طعامهم في مواعيد محددة، بل يتناولونه في أي وقت من النهار، غير أن الوجبة الأساسية يتناولونها قبل المساء؛ ويقوم الأب بتقطيع اللحم بواسطة حد الأداة القاذفة للحراب، ويعطى

منها نصيباً لكل من زوجاته وأولاده. ولا يفكر الوطنيون في المستقبل، ولا يدخرون له شيئاً، وفي أوقات المسبغة يشددون أحزمتهم على بطونهم ويحملون آلام الطوى.

وقبل أن نختم الحديث عن الطعام، نشير إلى عادة أكل اللحوم البشرية، فنقول: إن هذه العادة لم تكن منتشرة بين الأستراليين في كل مكان، لكن في بعض الجهات كانوا يأكلون من يقتل في الحروب ومن يقضي بالمرض، أما في سائر الأنحاء، فإن هذه العادة لم تمارس أبداً إلا في الاحتفالات.

والماء هو شراب الأستراليين المعتاد، ولكنهم كثيراً ما يحلونه بإضافة العسل إليه، أو إضافة ثمار "الباندانا" أو المن، أو بقايا أقراص العسل في خلايا النحل، وهذا الماء المحلى، كثيراً ما يعتريه التخمر، فيتحول إلى مسكر قوي. ويحفظ الوطنيون ماء الشرب في أوعية من الجلود والأصداف والخشب، وفي شمال القارة يستعمل القرع وأنواع من الأوعية المجدولة.

وللوطنيين ولع بالتدخين، وهم يدخنون أوراق شجرة خاصة ذات رائحة نفاذة، ويستعيضون عن "الغليون" بقصب البامبو، وكذلك يمضغون أوراق البتيوري Pitiuri ولبالبيه ويجدون في ذلك مخدراً بهيجاً.



(شكل ١٤) توليد النار بإشعال درع وقاذف الرمح معاً

ويولد الأستراليون النار بطريقتين، إحداهما طريقة الإدارة أو القتل، والثانية طريقة النشر. وقد وصف كابتن كوك أولى الطريقتين فقال: "إذا أراد الأسترالي توليد النار يأخذ قطعتين من الخشب اللين الجاف، إحداهما عصا يبلغ طولها نحو ثماني بوصات أو تسع، والأخرى مفلطحة، ثم يبري أحد طرفي القطعة الأولى حتى يصير نفطة غير حادة، ويضع هذا الطرف فوق القطعة المفلطحة ويديرها بين راحتيه بسرعة، وكثيراً ما يحرك راحتيه فوق العصا صعوداً وهبوطاً، ليزيد بذلك من سرعة دورانها بقدر الاستطاعة، وبهذه الطريقة تتولد النار في أقل من دقيقتين".

أما في طريقة النشر فإن القطعة المتحركة، وهي غالباً نفس أداة قذف الرمح، توضع أفقية فوق القطعة الأخرى، التي يغلب أن تكون درعاً، ويثبت الدرع على الأرض بواسطة القدمين، ويقوم رجلان بتحريك قاذفة الرمح بقوة إلى الأمام وإلى الخلف فوق الدرع، وبعد قليل يتصاعد الدخان من النشارة الدقيقة، التي تكون قد تناثرت من الاحتكاك، وعندئذ ينفخون نفخاً رقيقاً في الصوفان الجاف، الذي تناثرت عليه النشارة فتتولد النار وشيكاً. ولكي يوفر الوطنيون على أنفسهم مشقة توليد النار كلما احتاجوها، يحملون معهم شعلة موقدة أينما حلوا. هذا كان فيما مضى، أما اليوم فإن كثيرين منهم قد عرفوا استعمال الثقاب. ولا يعرف الأستراليون الأصليون صناعة الفخار، ولكنهم يصنعون أنواعاً مختلفة من السلال ومن الحقائب المجدولة، كما يصنعون الخيوط من ألياف نباتية ومن شعر الإنسان وشعر "الأوبوسم".

وإذا استثنينا الأطراف الشمالية من كوينزلند، نجد سكان سائر الأنحاء لا يعرفون آلة موسيقية بمعنى الكلمة، ولكنهم يضبطون الإيقاع بالعصى أو "البومرانج" أو بالضرب بالأيدي على جلود "الأوبوسم" الملفوفة أو المشدودة بين الركبتين.

الكتابة

ولا يعرف الأستراليون أي نوع من أنواع الكتابة، ولكنهم يتخذون ألواحاً من الخشب، يحفرون عليها حفراً وعلامات، ويستعملونها في التراسل، ويسمونها عصى المراسلات. ومن المشكوك فيه أن أحداً غير

المرسل الرسالة يستطيع أن يفهم مغزاها، ولكن العصا على أي حال تقوم دليلاً على صحة رسالة الشخص الذي يحملها، ويبلغ مضمونها شفوياً، كما أنها تساعد بلا ريب على تثبيت الرسالة في ذاكرة حاملها. وهناك طريقة للتخاطب أهم من عصى المراسلة، وهي طريقة الإشارات، وهذه الطريقة تتبعها بعض القبائل في التفاهم مع الغرباء.

ولدى قليل من القبائل، كلمات مستقلة للدلالة على الأعداد، فيما زاد على ثلاثة أو أربعة، ولكن الأعداد نفسها لا تقف عند هذا الحد. إذ الواقع أنه من المؤكد أن بعض القبائل تستطيع العد إلى مائة، أما التعبير عما زاد على أربعة من الأعداد، فيكون بطرق شتى، فبعض القبائل مثلاُ تعبر عن العدد خمسة بقولها: اثنان اثنان واحد (باكولا باكولا نجورا) والعدد عشرة يعبر عنه عادة بأصابع اليدين، والعدد عشرين بأصابع اليدين والقدمين معاً.

أما الفن فلا يزال على حالة قصوى من البداوة، على أنهم قاموا بمحاولات للتعبير بالرسم، بدليل ما خلفوه من رسوم على الصحراء في أنحاء مختلفة من القارة، ما خلفته بعض قبائل الأقاليم الوسطى من رسوم على الأرض، وبعض قبائل شرق القارة من رسوم على لحاء الشجر.

الألعاب

وتمارس القبائل الأسترالية كثيراً من الألعاب، كلعبة مهد القط مثلاُ، وهي تتلخص في عمل أشكال تمثل أشياء مختلفة، باستعمال الخيوط

وشدها على أصابع اليدين، والاستعانة بالفم والركبتين، وأحياناً بأصابع شخص ثان، وهذه اللعبة يمارسها النساء والأطفال، بينما في شمال كوينزلند لا يمارسها إلا الرجال. ويلعب الأطفال بالنحلة وبالكرة وبأسلحة مقلدة يتشبهون بها بآبائهم. وتنتشر بين الرجال المصارعة والمبارزة بالسلاح، كما يمارسون في كل مكان "ألعاب التقليد" و"ألعاب التظاهر".



(شكل ١٥) الوطنيون يستعدون لحفلة الكور بوري

ومن ألعابهم الغريبة، لعبة "الويت ويت" أو "فأر الكنجرو" وهي قطعة من الخشب، يبلغ طولها من ١٢ إلى ٢٠ بوصة، ذات رأس قمعي، وذنب طويل، ويستطيع اللاعب المتمرن أن يقذف بها إلى مسافة بعيدة.

ويقضي هؤلاء الأقوام أغلب لياليهم في حفلات راقصة يسمونها "كوروبري" corroboree قد تستمر بضع ليال متعاقبة، وهم يقيمونها

عادة في الليالي التي يكتمل فيها القمر بدراً، ويضيفون إلى ضوئه، ضياء شعلة من النار يوقدونها، ويقوم النظارة من الشيوخ (وأحياناً من الشباب) ومن النساء والأطفال، بالغناء، وضبط الإيقاع بالنقر بالعصى، وبـ "البومرانج" وغيرها، بينما يقوم الشبان بالتمثيل والرقص، بعد أن يخططوا أجسامهم برسوم ذات أشكال خاصة، أما النساء فلا يرقصن إلا نادراً.

وهذه الحفلات الراقصة كثيرً ما تمثل تقاليدهم وعاداتهم وأعمالهم السحرية، وقد تكول ذات طابع ديني، على أن الغرض الحقيقي منها، هو تسلية المشاهدين، ولا شك في أنها تدخل عنصر السرور إلى حياتهم الاجتماعية.

ويجري بين بعض هذه الجماعات والبعض الآخر، قدر محدود من التبادل التجاري، وهم ينظمون أحياناً رحلات خاصة لجلب بعض المحصولات، كالحجارة والمغرة الحمراء، وهما مادتان لا توجدان إلا في مناطق خاصة. ويتم التبادل في بعض الجهات بطرق المقابضة، وهي إعطاء قدر معلوم من سلعة ما، في مقابل آخر من سلعة أخرى، يعتبر مساوياً في قيمته للقدر الأول. على أن الذي يحدث في أغلب الأحيان أن تتم المقايضة على شكل تبادل الهدايا، وحينئذ لا يراعي فيها التساوي في القيمة، ويندر أن يكون الأمر كذلك، ولا ينظر إلى تبادل الهدايا هذا على أنه تعامل، بل يعتبر واجباً وامتيازاً اجتماعياً وهو من ناحية أخرى، وسيلة لتقوية أواصر الصداقة؛ وعلى أي حال فهو وسيلة من وسائل نقل السلع التي توجد في ناحية ما، إلى سكان الجهات المجاورة لها.

الحياة الاجتماعية

ومع أن معيشة القبائل الأسترالية بدائية إلى حد كبير، إلا أن حياتهم الاجتماعية تخضع خضوعاً تاماً لقواعد معروفة، فالقانون والنظام يخضعان للتقاليد، وينفذان بدقة تامة، وهناك قوانين دقيقة تنظم الزواج، وتبين ما يحل للإنسان من الطعام، وتعرض من يخرج عليها للعقاب الشديد، الذي قد يصل إلى الإعدام، كما تنص على عقاب من يلجأ إلى السحر، لإلحاق الأذى بأحد أفراد القبيلة.

وبعض عاداتهم وقوانينهم معقدة، إلى حد أن دراستها قد أثارت كثيراً من الجدل بين الأوروبيين، مع أن فهمها لا يستعصي على أي طفل من أطفال تلك القبائل.

وبعض عاداتهم وقوانينهم معقدة، إلى حد أن دراستها قد أثارت كثيراً من الجدل بين الأوروبيين، مع أن فهمها لا يستعصى على أي طفل من أطفال تلك القبائل.

أما نظام القبيلة عندهم فمعقد، وهو يختلف من قبيلة لأخرى، ونعني بالقبيلة عدداً من الناس ينتمون إلى أصل مشترك كما يشتركون في ملكية منطقة من الأرض، وتقوم بينهم صلات القرابة ويتكلمون لغة واحدة أو لهجة واحدة. وتنقسم القبيلة في العادة إلى عدد من العشائر، وتنقسم العشيرة إلى عدد من الجماعات منها عبارة عن عائلة أو عائلتين أو ثلاث. والعائلة هي في الواقع، الوحدة الأساسية التي يقوم عليها

المجتمع الأسترالي، وهي وحدة اقتصادية تقوم على الاكتفاء الذاتي، بمعنى أن الزوج والزوجة مسئولان عن توفير ضرورات الحياة لأفرادها. ويقدرون أن القارة الأسترالية عندما نزلها الأوروبيون لأول مرة، كان بها عدد من القبائل يتراوح بين مائتين وخمسين وثلثمائة.

ويرأس كل قبيلة زعيم، وقد تأتيه الزعامة عن طريق الوراثة، ولكن العادة المتبعة هي أن الزعيم يرث الزعامة إذا كان قد أظهر براعة في الحروب أو امتاز بالعقل الراجح، أو بالقدرة على السحر. ويساعد الزعم في مهام وظيفته مجلس من رؤساء الجماعات المحلية، بينما الأطباء أو السحرة، ليس لهم سلطة إلا ما يصلون إليه عن طريق نفوذهم الشخصي، وهم يؤدون في آن واحد، عمل رجال الدين ورجال السحر ورجال الطب في القبيلة.

وتنقسم كثير من القبائل- وليست جميعها- إلى طبقتين كبيرتين، تسمى كل منهما طبقة أخوية، وهما تختلفان اختلافاً تاماً عن الجماعات القبلية، ولا يحل لرجل أن يتزوج بامرأة تنتمي إلى نفس طبقته الأخوية. أما الأطفال فينتمون في بعض الأقاليم إلى طبقة أبيهم، وفي بعضها الآخر إلى طبقة أمهم. وتنقسم هاتان الطبقتان عند بعض القبائل أقساماً كثيرة صغيرة، وفي هذه الحالة، تصبح قوانين الزواج شديدة التعقيد، فقبائل الأرنطا Arunta مثلاً إلى ثمانية أقسام زواجية، ولا يستطيع الرجل أن يتزوج إلا من قسم معين، أما أولاده الذكور، فينتمون إلى قسم غير الذي تنتمي هو إليه، وغير الذي تنتمي إليه أمهم، في حين أن بناته يتبعن قسماً

آخر غير ما ذكر. ومما يزيد الأمر تعقيداً، ذلك النظام الغريب الغامض المعروف بالطوطمية Totemism وهو معروف لدى جميع سكان أستراليا الأصليين. وقد سكون "الطوطم" حيواناً أو نباتاً، أو أي شيء من الأشياء، ينتسب إليه شخص أو جمع من الأشخاص، ويرتبطون به بطريقة غامضة، وتتكون منهم مجموعة "طوطمية" واحدة. وسواء انتمى أفراد المجموعة "الطوطمية" إلى قبيلة واحدة أو لم ينتموا، فإنهم جميعاً يعتبرون إخوة، ويشتركون معاً في امتيازات خاصة، كما يشتركون في التزامات خاصة، وتحرم عليهم أشياء خاصة. وعلى كل فرد ينتمي إلى مجموعة "طوطمية" أن يقدم ما يستطيع من العون، لكل فرد ينتمي إلى نفس المجموعة، ويحرم عليه أن يسيء إلى "طوطمه" أو أن يقتله أو يأكله، كما يحرم عليه، في الغالب، أن يتزوج بامرأة تنتمي إلى نفس المجموعة. أما الأبناء فإنهم في بعض الأنحاء ينتمون إلى مجموعة أبيهم "الطوطمية"، وفي أنحاء أخرى ينتمون إلى مجموعة أمهم.

وتستنزل المجموعة "الطوطمية" الوفرة والقوة على "الطوطم" بواسطة حفلات تقيمها، وتتخللها أعمال سحرية، وهناك طقس سري (طريقة) لا يشترك فيه إلا العالمون بأصوات السحر.

ولا يعرف بالضبط كيف نشأت فكرة "الطوطم"، ولكنها موجودة في أنحاء أخرى غير أستراليا، لا سيما في أمريكا الشمالية، وبعض جهات إفريقية، وفي ميلانيزيا، كما أن بقاياها لا تزال ظاهرة بين القبائل الجبلية في الهند، ولفظ "طوطم" نفسه من أصل هندي.

وتقسيم القبائل إلى مجموعات، كالتي سبق ذكرها، لا يعدو أن يكون سبيلاً لتلخيص العلاقات القائمة بين أولئك الأقوام، على أن هناك في كل مكان، قوانين تحرم التزاوج بين الأقربين، فهي تنص على أن الرجل يحل له أن يتزوج فقط بامرأة تمت له بنوع خاص من القرابة لكن الواقع أن كل شخص في القبيلة، لا بد أن يمت بنوع من القرابة لكل شخص آخر من نفس القبيلة، بل إن أي شخص، لا بد أن يمت بنوع من القرابة، لأي شخص من أية قبيلة أخرى تربطه بها صلة، غير أن مدلول لفظ القرابة لدى تلك القبائل، يخالف مدلوله الذي نفهمه، فمثلاً لفظ أب عندهم، لا يقتصر معناه على الأب الحقيقي للشخص، ولكنه يطلق أيضاً على مجموعة كاملة من الرجال الذين تربطه بهم روابط قرابة خاصة، فالمبدأ الذي يسيرون عليه، في تقسيم الناس إلى مجموعات، بحسب وشائج القرابة، وفي نسبتهم إلى الاسم الذي يدل على تلك الوشائج، يفرق بين نظام القرابة التقسيمية، والقرابة الوصفية.

قوانين الزواج

وتختلف قوانين الزواج عند هذه القبائل من قبيلة لأخرى، وليس في وسعنا أن نتناولها هنا بالشرح جميعاً، ولكننا نكتفي بذكر أبسطها فيما يلي:

١- يحل للرجل، يتزوج ابنة خاله وابنه عمته، أو بأية امرأة أخرى مماثلة لهما في درجة القرابة.

٢- يحل للرجل أن يتزوج ابنة خاله. لكنه لا يحل له أن يتزوج ابنة عمته.

من أجل هذا كان على الرجل، إذا اعتزم الزواج، أن يبحث أولاً عما إذا كان يحل له زواج الفتاة التي وقع عليها اختياره، فإذا كانت القوانين تحرمها عليه، وتزوجها رغم ذلك، عرض نفسه وزوجته لعقوبة الإعدام؛ أما إذا كانت تحل له، فإن عليه أن يدبر أمر تزويج أخت من أخواته من أحد أفراد عائلة زوجته- وهذا هو النظام الذي سميناه "تبادل رأس برأس"، عند الكلام في الفصل الأول عن الأقزام- أو عليه أن يهرب بها، أو يختطفها؛ وهذا الحل الأخير يستتبع قيام مبارزة حبية إلى حد ما، مع أحد أقارب الزوجة، على أنه لابد من تدبير أخت يقدمها، في مقابل الزوجة التي اتخذها.

وعند ما يولد لهؤلاء الناس طفل، عليهم أن يقرروا أولاً ما إذا كانوا يسمحون له بالحياة؛ وقد يبدو هذا عملاً قاسياً، لكن الواقع انهم لا تتوافر لديهم الأطعمة الخفيفة، ولا الألبان، ولا أي نوع من الغذاء، الذي يصلح للأطفال. ولذلك كان على الأم أن ترضع طفلها عامين، أو ثلاثة أعوام، وهي لذلك لا تستطيع أن تربي كثيراً من الأولاد. والطفل الذي يعيش يعامل في العادة معاملة حسنة. ويلعب الأولاد مع البنات إلى سن السابعة دون أي تفريق، وبعد ذلك تبدأ البنت تتعلم واجبات المرأة، كتشييد الأكواخ، وجمع الطعام، وعمل الشباك. أما الأولاد فيبعدون عن البنات، وينامون في مساكن العزاب، ويلقنون واجبات الرجال.

والأستراليون- كسائر الشعوب البدائية- يخضعون البنين والبنات

لاختبارات خاصة، والاختبارات الخاصة بالبنات بسيطة نسبياً، أما الأولاد فعليهم أن يمروا بسلسلة طويلة من الطقوس المعقدة، وغالباً ما تكون شاقة إلى أقصى حد، تبدأ في نحو العاشرة، ولا تنتهي إلا بعد العشرين بكثير. وترمي هذه الاختبارات من جهة، إلى معرفة قوة الحدث عل الاحتمال، ومن جهة أخرى، إلى تعويده الطاعة لمن هم أكبر منه سناً، كما أنها ترمي إلى تعليمه تاريخ القبيلة المتوارث وتوكيد ضرورة مراعاة تقاليدها.

وتختلف هذه الحفلات نوعاً ما في كل قبيلة عن القبيلة الأخرى، ولكن المرأة في معظم القبائل لا تشترك إلا في المراحل الأولى منها، فإذا ما انتهى الغلام من المرحلة الأولى مثل كسر الأسنان الأمامية، أو الختان، أقاموا حفلاً خاصاً للدلالة على أن الشاب قد تحرر نهائياً من سلطة النساء، ولا يسمح للنساء بحضور المراحل النهائية من هذه الحفلات التي يطلع فيها الشبان على سر الجعران[٤] وتفسر لهم الطقوس الدينية، ويفقهون في معتقدات القبيلة وعاداتها، بما في ذلك قوانين تحديد الطعام.

والجعران عبارة عن شظية رقيقة من الخشب، مربوطة بخيط، إذا أديرت في الهواء بسرعة انبعثت منها أصوات غريبة مزعجة، وهذه الأصوات مصدر فزع شديد للنساء والأطفال، اللذين لا يعرفون سرها،

---

(٤) هذه الأداة تشبه أداة يلعب بها الأطفال في ريف مصر يسمونها الجعران، ولذلك رأينا أن نشتق لها هذا الاسم نفسه.

وينسبونها إلى القوى الخارقة.

"والشورنجا"– وهي أداة قريبة الشبه جداً بالجعران– هي شطفة من الحجر، مشكلة تشكيلًا خاصاً، تحفر عليها. أو تنقش، أشكال "طوطمية"، ويتراوح طولها من بضع بوصات إلى خمسة أقدام. وهي في نظرهم العلامة الخارجية لروح الأجداد، إن لم تكن هي نفسها روح الأجداد مجسمة، وهي أداة مقدسة، لا يسمح برؤيتها لأحد من النساء، أو من غير المطلعين على أصول العقائد.

دفن الموتى

وعند وفاة شخص تدفن جثته عادة، ولكن بعض قبائل الأقاليم الوسطى تتركها معرضة في مكان خاص أو فوق شجرة، بينما تحرقها قبائل "نيو سوث ويلز".

ويعبر عن الحزن على الميت بإحداث ندب عميقة في الجسم، وصبغه وحلق شعر الرأس.

ولهم، فيما يختص بمصير الروح، معتقدات شتى. منها أنها ترحل في اتجاه غربي، أو تبقى خالدة في الجوار، أو تعيش في الأشجار، أو تحت ماء البحر، وقد تتقمص شخصاً آخر أسود أو أبيض.

السحر

ويلعب السحر دوراً هاماً في حياة هؤلاء الأستراليين، وله أثر كبير

في كل ما يأتون من الأعمال تقريباً، ويستطيع كل واحد منهم أن يمارس السحر الأسود ضد أي شخص آخر أساء إليه، أما السحر التطبيبي، فلا يمارسه إلا المحترفون. وطريقة ممارسة السحر الأسود، أن يمثل الساحر دور الذي يغرس العظام أو الحجارة في جسم عدوه، أو دور الذي يقوم بطريقة غامضة غير مفهومة بإزالة بعض أعضاء عدوه الداخلية. ومن المواد التي تنسب إليها قوى سحرية خارقة، بلورات الكوارتز، وشحم الكلى الآدمية. ويمر ممارس السحر الطبي باختبار خاص يشتمل على تمثيل القتل وإعادة الحياة، كما أن استنزال الغيث من الأمور التي يمارسها السكان في كل مكان.

الفصل الخامس

البشمن سكان كلهاري

جنوب إفريقية هضبة شاسعة، يعلو معظم أجزائها كثيراً على ثلاثة آلاف قدم، فوق مستوى سطح البحر، وتحف بها من الجنوب الشرقي مرتفعات "داركنزبرج" العالية. وحرارة هذا الإقليم دون المدارية، ولكن ارتفاع الجهات الداخلية يخفف من حرارتها، فيصبح هواؤها منشطاً، ويصبح مناخها في جملته مناسباً للمستعمرين الأوروبيين.

وتسقط معظم أمطار هذا الإقليم في أشهر الصيف، إذا استثنينا الإقليم الصغير الواقع حول "كيبتون"، إذ يسقط مطره في الشتاء. ويبلغ مقدار المطر أقصاه في الجنوب الشرقي، حيث سفوح "داركنزبرج" المواجهة للرياح، ويتناقص تدريجاً نحو الغرب، حيث يوجد إقليم شاسع لا يصل متوسط مطره السنوي إلى عشر بوصات. وهنا- كما أسلفنا في الباب السابق- تصبح فترات الجفاف الطويلة، التي يتعرض لها الإقليم أحياناً، كما تصبح قلة المطر وعدم انتظام سقوطه، عوامل هامة تجعل الحياة فيه غير مضمونة.

وليس في هذا الإقليم غابات إلا في المناطق الساحلية، في جنوبه الشرقي، أما الداخل فمناطق معشبة، تقل أعشابها نحو الغرب، حتى

تنتهي تدريجياً إلى إقليم كبير شبه صحراوي، هو إقليم "كلهاري" الذي تتخلله مساحات صغيرة متباعدة من أعشاب "البشمن" والشجيرات الشوكية، والذي يتخذ في أقصى الغرب مظهراً صحراوياً صرفاً حين ينتهي إلى صحراء الناميب (Namib) على ساحل إفريقية الجنوبية الغربية.

وعندما نزل الهولنديون في منتصف القرن السابع عشر، الإقليم الذي توجد به الآن مدينة الرأس، كان يسكنه جنسان من الناس قصار القامة، يضرب لون بشرتهم إلى الصفرة، بينهم وبين سكان غابات الكنغو شبه قليل، دون أن يكون لهم الفكان البارزان، ولا الشفاه الغليظة المقلوبة، ولا العيون الواسعة، التي تمتاز بها الأجناس الزنجية. وكان أحد هذين الجنسين، أطول قليلاً من الجنس الآخر، ويعيش على رعي قطعان البقر، وهم يعرف الآن باسم "الهوتنتوت". أما الجنس الآخر فلم يكن يرعى البقر أو يعرف الزراعة، وإنما كان يعيش على الصيد والجمع، وقد أطلق الهولنديون على هذا الجنس اسم "البشمن".

وهؤلاء الأقوام، الذي يعتقد أن موطنهم الأصلي كان إقليم البحيرات الاستوائية الإفريقية، كانوا في وقت من الأوقات منتشرين في سائر الإقليم الذي يقع جنوب "الزمبيري"، ولكن من المحتمل جداً أنهم لم يكونوا أول جنس استقر فيه، إذ قد عثر الباحثون على بقايا جنس أقدم منهم. وجاء بعد "البشمن"، "الهوتنتوت" بقطعانهم من الأبقار، فدفعوا "البشمن" أمامهم إلى الجهات التي يقل فيها المطر، فازداد الحياة فيها فقراً وشدة.

هكذا كانت الحال عند ما وصل المستعمرون الأوروبيون، ولكن في الوقت نفسه تقريباً، كانت قبائل "البانتو"، ذات البشرة السوداء، والأصل الزنجي، والتي كانت تعيش على رعي الماشية، وعلى قليل من الزراعة، كانت هذه القبائل آخذة في الانتشار جنوباً، في الهضبة الوسطى وعلى الساحل الشرقي، يقتلون أو يأسرون أو يطردون أماهم كل من صادفهم من الأجناس الأخرى؛ وبمرور الزمن وقف "البانتو" وجهاً لوجه أمام الهولنديين، ثم بعد ذلك أمام البريطانيين. ولم يستطع "البشمن" أن يبقوا في بلادهم عبيداً لأسياد من الدخلاء، وكذلك صعب عليهم– وهم أقوام من القناصين– الحياة جنباً إلى جنب مع الزراعيين من المستعمرين، المنحدرين من أصل أوروبي، والذين أخذوا ينتشرون في تلك الأقاليم على حساب سكانها الأصليين.

من أجل ذلك كان حتماً أن يزحزح "البشمن" تدريجاً نحو المناطق الجافة الفقيرة في الغرب. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن بعض المستعمرين أعلنوا على "البشمن" حرب الفناء، حتى لم يبق اليوم من "البشمن" الخلص غير القليل. على أنه يجب أن نقرر أن المستعمرين البيض كانوا أحياناً يستخدمونهم في رعي القطعان، وأنهم كانوا دائماً أمناء مخلصين لمن أحسن معاملتهم. ويقدر عدد "البشمن" في الوقت الحاضر بنحو ستة آلاف نسمة، يعيش بعضهم في البقاع الجرداء، في الشمال الغربي من اتحاد جنوب إفريقية، ويعيش أكثرهم في الجزء الشمالي من إفريقية الجنوبية الغربية، وفي "بتشوانالند". والذي يهمنا من أمرهم أنهم جنس من القناصين والجماعين، يقطنون مناطق العشب

الفقيرة، والمناطق الصحراوية في الأقاليم المدارية.

صحراء كلهاري

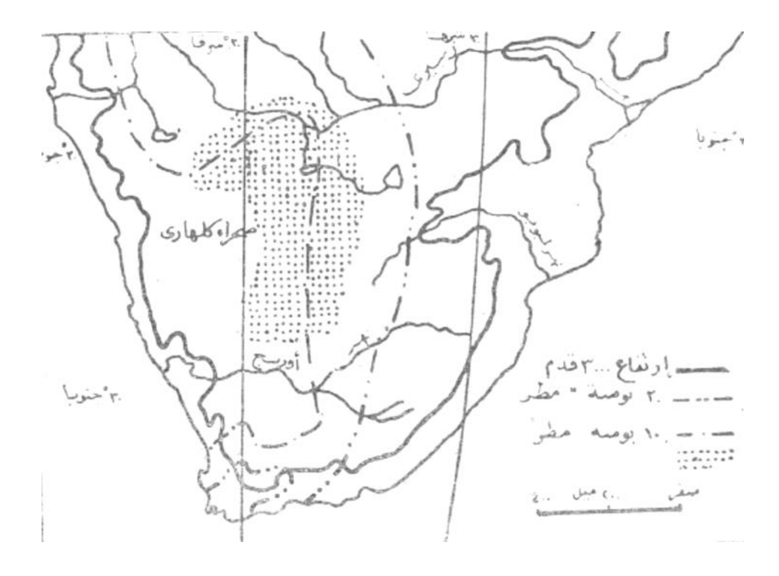
وصحراء "كلهاري" موطن "البشمن" في الوقت الحاضر، وهي تمتد من نهر "أورنج" في الجنوب إلى مستنقعات "أوكافنجو" Okavango وبحيرة "نجامي" في الشمال، وهو إقليم ذو أنهار منقطعة الجريان، وأمطار غير مضمونة تختلف في مقدارها اختلافاً كبيراً من عام إلى عام، ولكنها على أي حال قليلة دائماً. وليس الحصول على مورد دائم من الماء مضموناً، إلا في البقع المنخفضة من مجاري الأنهار، وفي المستنقعات المنخفضة، والمسطحات الراكدة، والحاجة إلى الماء، هي العامل الأساسي الذي يتحكم في تنقلات الإنسان والحيوان، ولذلك كان الحصول على الماء، لا على العام، هو مشكلة الحياة الحقيقية. وفي البقاع التي يتوفر فيها الماء، تتغطى الأرض بأعشاب، تتخللها شجيرات شوكية، وبعض أشجار قصيرة من "الباوباب" أما في ما عداها من البقاع، فلا يوجد إلا مساحات صغيرة متفرقة من عشب "البشمن"، وقليل من شجيرات شوكية متباعدة وأحراش من شجر السنط، تدل بوضوح على مدى ما يرتفع الماء في مجاري الأنهار.

كذلك ينمو – حتى في أكثر الجهات جفافاً– عدد من النباتات البصلية، ولا سيما بطيخ البشمن المشهور، وعدد من النباتات الدرنية تشبه الحصى شبهاً عجيباً، حتى ليمر بها السائر دون أن يتبينها.

وكانت هذه الجهات، إلى عهد قريب، تعج بحيوان الصيد مثل البقر الوحشي والوعول والتياتل والزراف والفيلة والخرتيت وحمير الوحش والنعام. وكان القنص أهم مورد للسكان، بسبب قلة الفواكه والجذور الصالحة للغذاء.

البشمن

ويبلغ متوسط طول الرجل من البشمن خمسة أقدام، ويقل متوسط طول المرأة عن ذلك قليلًا، ويزيد المتوسط على ذلك بين الجنسين على السواء، إذا توافر الغذاء الضروري. ولون البشرة عندهم أصفر، أو قاتم مشرب بضفرة، وأيديهم وأقدامهم صغيرة، ويقال إنها رشيقة، ورؤوسهم أيضاً صغيرة ومستطيلة، تمتاز بانخفاض الهامة، وبروز الجبين، وازدياد.....



(شكل ١٦) أين يعيش البشمن حالياً

..... عرض الأنف، وبروز عظام الوجنتين. وعيونهم ضيقة، وغالباً ما تكون منحرفة، ولكن نظرهم مع ذلك قوي، وآذانهم غالباً غير ذات شحمة، وشعر البدن والوجه قليل جداً، وشعر الرأس قصير وأسود وملبد، وينمو في مجموعات متفرقة، على هيئة خصلات محببة أو حبات متجمعة من الفلفل. ومن خصائصهم البارزة، تركم الشحم على الإليتين، وهو أمر منتشر على الأخص بين النساء.



(شكل ١٧) رجل وامرأة وطفل من البشمن

ولا يستعمل "البشمن" من الملابس إلا القليل، يصنعونه من منتجات الحيوان، فيلبس الرجال قطعة من الجلد مثلثة الشكل، تمر من الرجلين وتربط حول الوسط، وتلبس المرأة مئزرة صغيرة، تتدلى أمامها من حزام حول الوسط، وتزيد المرأة المتقدمة في السن مئزرة أخرى، تتدلى من الكتفين على الظهر. وتصنع هذه المآزر أحياناً من خيوط من الخرز. على أن أهم ما تتدثر به المرأة، هو "الكاروس"، وهو عباءة قصيرة من

فراء نوع من التياتل Springbok تفصله وتزركشه، ثم تلبسه على الكتفين، وتتخذ منه في النوم غطاء. وكذلك يستعمل "الكاروس" حقيبة تحمل فيها الأشياء، فإنه إذا ربط حول الوسط اتسعت ثناياه لحمل الطفل والطعام وخشب الوقود. ويلبس الرجال– وأحياناً النساء أيضاً– طواقي من الجلد وكثيراً ما يلبسون في أثناء السير أحذية خفيفة، أو صنادل من الجلد أيضاً. ويشيع بين الرجال والنساء على السواء استعمال العقود الخرزية، وهي قطع مثلثة الشكل من قشور بيض النعام، يخرمونها بسكاكين من حجر الصوان، وتتخللها أحياناً قطع مستديرة من الجلد. ومن عاداتهم خرم الأنف ووضع ريشة فيه، وكذلك لبس الحجال والأساور ذات الأجراس، وهذه الأجراس لا تعدو جيوباً صغيرة من الجلد، في داخلها قطع من الحصى. ويهتم "البشمن" بالتزين في المناسبات الاجتماعية، فيرسم الرجال مثلاً على أجسامهم دوائر وأشكالاً مختلفة، باللون الأحمر أو الأصفر أو الأسود.

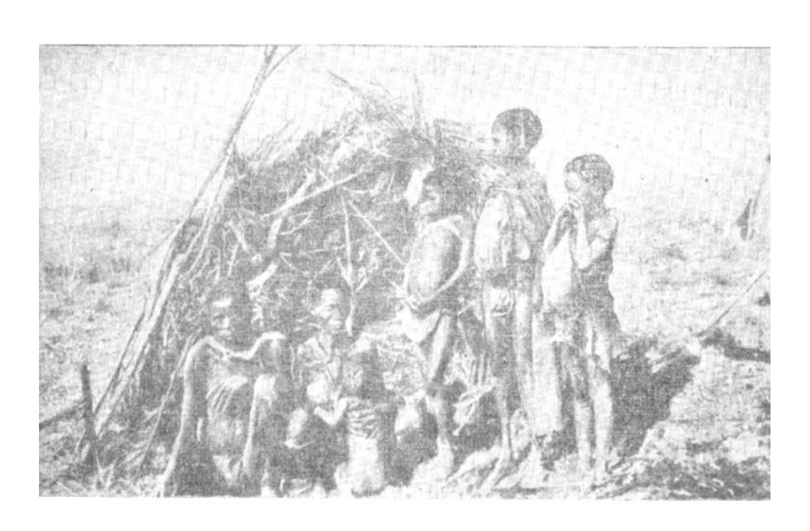
و"البشمن" على درجة بدائية في نظامهم الاجتماعي وفي ثقافتهم، فهم يعيشون في جماعات، يتراوح عددها من عشرين إلى مائة شخص، وتتكون كل مجموعة من عدد من العائلات، تعيش كل واحدة منها في كوخها الخاص، وقد لا يتصل بعضهم ببعض إلا في فصل الجفاف، عندما يحطون الرجال جميعاً قرب مورد الماء، فإذا حل فصل المطر، تفرقوا هائمين في الإقليم الذي يشتركون جميعاً في ملكيته، والذي يرثه أبناؤهم من بعدهم. وتتكون القبيلة من عدد من العائلات، ترجع إلى أصل واحد، وتتكلم لغة واحدة، ولكن القبيلة في حد ذاتها ليس لها في

نظامهم الاجتماعي أهمية تذكر.

ولا يحاول "البشمن" ممارسة الزراعة، ولا تربية الحيوان، ولكن لهم قدرة خارقة على القنص، وعلى جمع المحصولات النباتية البرية؛ وقد اضطرهم السعي وراء الماء ووراء حيوان الصيد، إلا أن يعيشوا عيشة بداوة وتنقل، هائمين على وجوههم في المنطقة التي يعدونها ملكاً لهم، وعند ما يحطون الرحال في بقعة من الأرض، يقوم أكبر الرجال سناً بتحديد الموقع الذي تقام فيه الأكواخ، ويوقد فيه شعلة من النار، قبل أن تبدأ النساء في عملية التشييد، ويراعى أن لا يكون الموقع أبدً قريباً جداً من مورد الماء، لئلا يكون ذلك سبباً في نفور حيوان الصيد إذا أراد الارتواء.

ويبنى هؤلاء الناس أكواخهم على شكل نصف قبة، فيرشقون في الأرض عدداً من العصى يبلغ طول الواحدة منها نحو أربعة أقدام، ثم يجدلون بينها بالعساليج، ويغطونها بالأعشاب، فإذا جاء فصل المطر أضافوا إلى ذلك مزيداً من الأعشاب. وبذلك يكاد الشكل القبابي يصير تاماً. أما في داخل الكوخ، فإنهم يحفرون الأرض، ويغطون التجويف الناتج من ذلك بالقش، ويتخذون من هذا منامة، يرقدون فيها على جنوبهم، وأرجلهم مقبوضة إلى صدورهم. وفي خارج الكوخ يحتفظون بشعلة من النار موقدة. وفي بعض الأقاليم تغطي الأكواخ الصغيرة المقببة، بحصير من قصب الغاب، يوضع بعضه بجوار بعض، ويجدل جدلاً متيناً. وعند ما يعتزمون الرحيل، تقوم النساء بحزم الحصير وربط

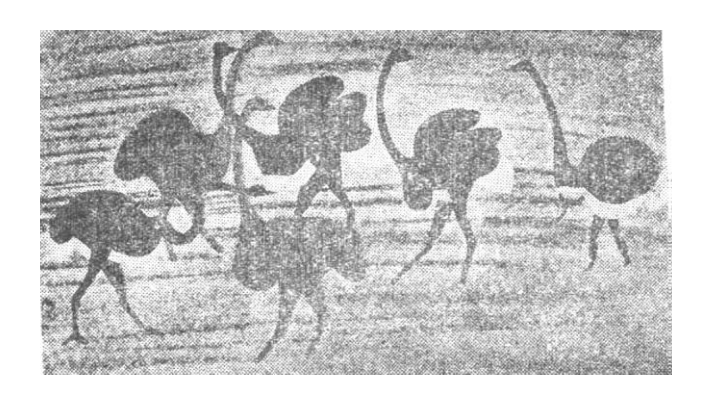
العصى حزمة واحدة. وكان بعض "البشمن" فيما مضى يتخذون مساكنهم في الصخور وفي الكهوف، وكانت الكهوف الكبرى- وهي مساكن الزعماء- تزخرف غالباً برسوم من الحياة متعددة الألوان، تمثل مناظر الصيد، أو الحيوان، وقطعان الماشية، وأشكالاً لها رؤوس حيوانات.



(شكل ١٨) مأوى البشمن

و"البشمن"- كسائر الصائدين الذين تناولهم الكلام آنفاً- ذوو خبر تامة بكل ما يحيط بهم من الظواهر الطبيعية. وأهل الجنوب، الذين يجيدون تقليد الحيوان، يلجأون في الغالب إلى طريقة من طرق التنكير، فمثلاً قد يلجأ الصائد الذي يخرج عادة منفرداً- إلا إذا كان يصطحب معه شخصاً يمرنه- قد يلجأ هذا الصائد إلى لف أعواد من العشب حول رأسه، ثم ينساب بعج ذلك بين الأعشاب في قفزات متقطعة، وبهذه الطريقة يستطيع إذا بقي دائماً تحت الريح أن يصل إلى مسافة قصيرة جداً من فريسته؛ وفي بعض الأحيان يقلد النعامة في مظهرها وفي حركتها

التي يجيد تقليدها، وقد يبلغ به الأمر أن يقلدها وهي تتناول طعامها، ثم يقتل من بينها العدد الذي يريده، دون أن يزيد عليه شيئاً.



(شكل ١٩) نقوش الكهوف تمثل صيد النعام

ولا بد للصائد أن يكون قريباً جداً من فريسته، لأن مدى السلاح وقوته على الإصابة غير كبيرين. وبما أن السم الذي يسقي به السهام، لا يظهر مفعوله وشيكاً، كان على الصائد أن يتعقب فريسته، ويلحق بها قبل أن تدركها الضباع أو النسور.

وإذا أرادوا الحصول على قدر كبير من الصيد، خرج الصيادون في شبه حملة، وأقاموا في عرض الوادي حواجز من الخوابير والأغصان، تاركين فتحات تحفر أمامها حفر ليقع فيها الحيوان. وليس هذا العمل بالأمر الهين، إذا عرفنا أنهم لا يملكون من أدوات الحفر غير "الكيبي" Kibi أو عصا الحفر، وهي لا تزيد على قطعة من الخشب، يدبب أحد طرفيها ويحمي من النار ليزداد صلابة، ثم تمرر الخشبة في حجر مثقوب يثبت في وسطها، ليزيد ثقلها. فإذا تمت الاستعدادات، قام ضاربو

الطبول بحملتهم الواسعة، مبتدئين من الجهة الواقعة فوق الريح، فتهرب الحيوانات أمامهم نحو الحاجز، ويكون عدد من الصيادين قد اتخذوا أماكنهم قرب كل فتحة للإجهاز على الحيوان، بمجرد سقوطه في الحفرة.

ويستعمل الصيادون من الأسلحة، الأقواس والسهام. وأقواسهم قصيرة، وسهامهم صغيرة، ولكنها قاتلة، لأنها مسمومة. ومؤخر السهم شظية رفيعة من القصب مخرمة ولكنها غير مريشة، يلفون حول كل من طرفيها خيوطاً يربطونها ربطاً محكماً، يحول دون انفلاقها. أما طرف السهم الأمامي فيبلغ طوله نحو ست بوصات، وهو قطعة من عظام رجل النعامة أو الزرافة، تشكل بحيث تناسب قصبة السهم التي ستوضع فيها دون تثبيت، ويربطون إليها قطعة مدببة من ساق ريشة من ريش النعام تكون بمثابة النصال. أما رأس السهم فيدبب، ولكن الغالب أن يكون قطعة منفصلة من الكوارتز أو أي حجر صلب آخر. وهم يتخذونها في الوقت الحاضر من الزجاج أو من الحديد، ويلصق هذا الرأس بواسطة الصمغ، أو أي عصارة أخرى، بطرف السهم، بعد أن يحفروا في قطعة العظم حفرة صغيرة يبيت الرأس فيها.

وتؤخذ السموم التي يسقون بها سهامهم من عصارات نباتات شتى يعرضونها للشمس ليتبخر ماؤها وتزداد كثافتها، وكثيراً ما يستعملون سموماً حيوانية أشد فتكاً، يحصلون عليها من العقارب والأفاعي و(ذات الأربع والأربعين) والثعابين؛ وأشد هذه السموم جميعها، ما كان مأخوذاً

من دودة صغيرة يسمونها "نجوا" (N'gwa). وتختلف السموم في قوة مفعولها اختلافاً كبيراً، وعندما يتم تحضيرها وتصبح صالحة للاستعمال تكون في شكلها أشبه بقطعة من الشمع سمراء أو سوداء. ويضع الصياد السم على رأس السهم بواسطة فرشاة، أو قطعة خاصة من الحجر، تسمى حجر السم، وهي قطعة من الحجر مسواة وناعمة، محفور فيها أخدود. ولا يلمس السم بالأيدي أبداً، ومع ذلك فلدى "البشمن" أنواع من الترياق، يحتفظون بها لوقت الضرورة. ويحمل الصياد سهامه في كنانة من الجلد، أو لحاء الشجر، مزينة بجلد الثعبان، كما يحمل عدداً منها أيضاً مثبتاً حول رأسه، يلجأ إليها إذا دعت الحاجة إلى سرعة العمل، وليبعث بها الرعب أيضاً إلى قلب العدو.

وعلى النساء جمع الأحطاب، وجلب الماء، وصيد الحيوان الصغير، وجمع الخضر للطعام. والأداة الوحيدة التي يستعملنها هي عصا الحفر (أو خشبة الحفر). ومما يجمعنه أيضاً، ما يسمى بيض النمل الأبيض، أو أرز "البشمن"، وهي يقلينه على النار، في قليل من الدهن، حتى يضرب لونه إلى الحمرة. ومما يسعين وراءه أيضاً، الديدان والحشرات والجراء والضفادع والسحالي والثعابين والسلاحف، وكذلك يجمعن جذور الأعشاب، ويحتفظن بها لاستعمالها في فصل الشتاء. ويصنع "البشمن" ما يشبه الخبز من لباب نوع من النخيل يسمونه "زاميا" (Zamia). أو من جذور نوع من النبات. ويقوم الرجال بجمع العسل، ويذهبون في البحث عنه إلى أي مكان غير مبالين بالارتفاع، وهم يستدلون على موضع خلايا النحل البري بواسطة طير الوقوق (-bee

cuckoo)، وعن ما يعثر أحدهم على خلية، يغرس في الأرض بقربها سهماً من سهامه عليه شارته الخاصة به، وبهذا يثبت ملكيته للخلية، فلا يقربها أحد سواه. ومثل هذه الطريقة تتبع في إثبات ملكية عش بيض النعام، أو مجموعة من جذور النبات.

ويتناول "البشمن" طعامهم دائماً مطبوخاً، ويقوم النساء والرجال على السواء بعملية الطبخ. وتولد النار بإدارة قطعة من الخشب على قطعة أخرى. ومن العسير في بعض الجهات الحصول على الماء، ولكن "البشمن" لهم مهارة فائقة في العثور عليه. ويستطيع الأوروبيون طبعاً أن يحصلوا عليه من أعماق بعيدة، ولكن هؤلاء البدائيين مقيدون بالموارد السطحية. وكثيراً ما يروون ظمأهم بما يحوي البطيخ من الماء، ولكنهم قد يضطرون أحياناً إلى الحصول على الماء من بين حبات الرمال المبللة، فيحفرون في الرمل حفرة، ويرشقون فيها عوداً من قصب أجوف، يلفون حول أحد طرفيه لفة من العشب اليابس، ثم يمصون الماء إلى أعلى خلال العود. وهذه الطريقة بطيئة وشاقة، وقد تنتهي بتقرح الشفاه وإدمائها. والماء لندرته له قيمة لا تقدر، وهم يختزنونه في بيض النعام أو في جزء من أمعاء حمار الوحش، أو الحمار البري "Gnu". ويحمل بيض النعام الذي يخزن فيه الماء في حقائب من الشباك، ويزخرف بالتخطيط، أو برسم صور الحيوانات، أو مناظر تمثل صيدها، وتصنع لكل واحدة منها رقبة من الشمع.

ويصنع "البشمن" من العسل البري شراباً جيداً مخمراً، وهم مغرمون

بالتدخين ويستعملون بدل الطباق، القنب البري، يدخنونه في غلايين من الخشب، أو القصب أو الحجر، ويصنعونها على شكل أنبوبة أحد طرفيها أوسع قليلاً من الطرف الآخر، على أن بعض السائحين قد ذكروا غلايين أو في من ذلك كثيراً.

وتتميز لغة "البشمن" بما يخالطها من "تكتكة"، وهم ينقسمون لغوياً إلى أربعة أقسام رئيسية، وليس لهذه الأقسام علاقة كبيرة بالأقسام السياسية.

و"البشمن" مولعون بالفنون، وقد سبق الكلام على الرسوم البديعة المتعددة الألوان، التي كانوا يزينون بها جدران بعض كهوفهم، هذا عدا ما خلفوه من الرسوم المحفورة على واجهات الصخور الملساء بأدوات حادة، وكانوا في بعض الأحيان يرسمون الشكل الخارجي فقط، وفي أحيان أخرى كانوا يزخرفون السطح الكلي للشكل بحزوز أو علامات.

ولهم كذلك وبع بالموسيقى والرقص، ومن آلاتهم الموسيقية قيثارة ذات أربعة أوتار، ونوع بدائي من السنطير، ذو اثنى عشر وتراً، والناي المصنوع من القصب الأجوف، والطبول أو الدفوف.

تقاليد الزواج

وإذا أراد أحدهم الزواج، اختار عروسه من الجماعات المجاورة، وفي يوم الزواج يهديها إزازاً من جلد الحيوان، ويف بعض القبائل يصيد العروس بقرة من بقر الوحش ويهديها لأهل العروس ليقيموا بها وليمة

العرس. وفي أثناء الاحتفال بالزواج يقوم العروس ويمسك بعروسه، فيهجم عليه ذووها شارعين أسلحتهم، وعلى الزوج أن يثبت ويتلقى الضربات، ويظل في الوقت نفسه متشبثاً بعروسه لا يتخلى عنها، فإذا أفلح في ذلك، انصرفوا عنه وتم الزواج، وإلا فعليه أن يجتاز التجربة نفسها مرة أخرى.

وبعد الزواج يقيم العروسان بضعة أسابيع مع أهل العروس، ثم يتنقلان معاً إلى حيث يقيم أهل الزوج.

والقاعدة المتبعة بين أولئك الأقوام، أن يتزوج الرجل بامرأة واحدة، على أن التقاليد لا تحرم الزواج بأكثر من واحدة. وعند ما يولد طفل جديد يحتفلون بمقدمه، فيغنون ويرقصون، وكذلك يفعلون في يوم الاحتفال بتسمية المولود الجديد. ولا يعترف ببلوغ الأولاد مبلغ الرجال، إلا إذا اجتازوا فترة تمرين وتدريب خاص، وفي هذا الأخير يشرطون جبينه بالعلامات الخاصة بالقبيلة.

ومن عاداتهم دفن جثة الميت قرب الكوخ في وضع النائم، يرقدونه على جنبه، وتبقى ركبتاه مثنيتين إلى الصدر، ويدفنون معه جميع ممتلكاته، ثم يضعون الحجارة على القبر، لتذود عنه الحيوان، وبعد ذلك تشد الجماعة رحالها، ولا تعود إلى هذه البقعة قبل مضي عامين.

ويمارس "البشمن" السحر. ويوجد بينهم من الرجال والنساء من يدعي التطبيب عن ريقه، وبعض أساطيرهم شائقة حقاً.

و"للبشمن" جميع الفضائل البدائية النبيلة، كالشجاعة التي لا تعرف الخوف، والتقدير العظيم للحرية كما أنهم كرماء، فخورون ببلادهم، مخلصون لزعمائهم، ولم يغير طول علاقتهم بالجماعات التي تفوقهم في المدنية، شيئاً من طرق حياتهم، وهم صائرون تدريجاً إلى الزوال.

الفصل السادس

الهنود الحمر سكان السهول

تقطن جميع شعوب الجماعين التي مر ذكرها فيما سبق، المناطق الدافئة أو الحارة، فإذا ولينا وجوهنا شطر الجماعين والقناصين، من سكان المنطقة المعتدلة، نجد الهنود الحمر– الذين كانوا إلى عهد قريب يجوبون البراري الداخلية بأمريكا الشمالية– قوماً من الصيادين الماهرين.

وقد يكون من المفيد أن نعرف شيئاً عن الهنود بوجه عام، قبل أن نتكلم عن طريقة حياة هنود السهول، وهو الاسم الذي يعرفون به. فالعناصر التي كانت تعيش في أقصى شمال أمريكا الشمالية، على شواطئها المطلة على المحيط المتجمد الشمالي، أطلق عليها اسم خاص هو "اسكيمو" لما كان يتميز به أفرادها من طرق معيشة خاصة، وكذلك لمظهرهم الغريب. أما سائر السكان الأصليين، فقد أطلق عليهم اسم الهنود الحمر، وهو اسم يدل على أن الكاشفين الأولين كانوا يعتقدون أنهم وصلوا جزر الهند الشرقية.

ويشبه بعض الهنود الحمر بعضاً شبهاً كبيراً، فهم جميعاً ذوو شعر أسود مستقيم، وجلد يختلف في لونه بين الأسمر الضارب إلى الصفرة، والأسمر النحاسي، ولكنه ليس أحمر بحال من الأحوال، وعلى ذلك فإن

تسميتهم بالحمر تسمية خاطئة. وعيونهم سمراء، أو سمراء داكنة، ومنحرفة قليلاً، يظهر فيها أحياناً ما يسمى الثنية المغولية The Mongolian fold ولو أن هذه تكثر بين الصغار، وتقل بين البالغين. وليست أنوفهم قصيرة ولا مفلطحة كأنوف المغول الأسيويين، بل يغلب في الواقع أن تكون من النوع ذي القنطرة العالية الضيقة، الذي نفهم مدلوله من لفظي "وجه الصقر". ووجوههم عادةً أوسع من وجوه الأوروبيين، وصدورهم أكثر امتلاء، ولكن أجسامهم تتناسق دائماً مع أطرافهم، ولو أن اليدين والقدمين في الغالب أصغر من مثيلاتها في الجنس الأبيض.

وبالرغم من التناسق العام، توجد اختلافات تظهر بوضوح إذا شوهدت عن قرب. ولبعض الهنود رؤوس ضيقة، وللبعض الآخر رؤوس عريضة، وبعضهم طويل، وبعضهم قصير. وأقصر شعوبهم تلك التي تعيش في أقصى الشمال، وفي جنوب القارة، وفي الأقاليم المدارية في أمريكا الجنوبية. وقد يكون من بين أسباب قصر القامة، عند بعض هذه الشعوب، قلة التغذية التي تضطرهم إليها ظروفهم الطبيعية. ويجمع الثقات على أن هذه العناصر أتت في الأصل من قارة آسيا، عن طريق ما يعرف الآن باسم ممر بيرنج، في سلسلة من الهجرات، كانت أولاها منذ بضعة آلاف من السنين.

ومع أن هؤلاء الناس كانوا يشبهون بعضهم بعضاً شبهاً كبيراً إلا أن طريقة معيشتهم كانت تختلف اختلافاً كبيراً، وذلك حسب طبيعة الأقاليم

التي كانوا يقطنونها، وقد حدا هذا ببعض علماء الأجناس إلى تقسيم أمريكا إلى مناطق ثقافية، تتفق إلى حد كبير والأقاليم الطبيعية، التي كانت أهم عامل أثر فيها، على أنه لا بد قبل أن نصف تلك المناطق، أن نعرف ماذا كانت تحوي أمريكا، قبل أن ينزل بها الأوروبيون، ومعهم خيلهم وأغنامهم وماشيتهم وقمحهم.

فقد كان لدى الهنود قليل من الحيوانات المستأنسة، وهذه أيضًا– فيما عدا الكلب– كانت مقصورة على مناطق محدودة، فكانت اللاما و"الألباكا" مثلاً، مقصورة على "الأنديز" جنوب خط الاستواء، ولم يكن الهنود قد استأنسوا مطية يركبونها ولا ماشية يحلبونها، ولم يكونوا يعرفون من الحبوب غير الذرة، التي كان نموها مقصوراً على الجهات الدافئة، والأرز البري المسمى "زيزانيا"، وكان يكثر في بلاد "الأيروكواز"، ومع ذلك لا يبدو أنهم انتفعوا به في شيء، بينما كانت قبائل "الأوجبوا" Ojibwa التي تقطن شمال بحيرة "سوبيرير" وغربها تجمع منه كميات كبيرة. وهناك أيضًا البطاطس و"المانيوق"، وكلاهما سهل زراعته، وكانت بعض قبائل أمريكا الجنوبية تزرعها. ولم يكن الهنود يعرفون المحراث ولا العجلات، وبالتالي لم يكونوا يستعملون العجلات في النقل. وكانوا يطحنون حبوبهم باستعمال "الصلاية" والمدقة، ويفتلون بأيديهم ما يصنعون من خيوط قليلة، ويصنعون الفخار إما بإنشائه طبقة طبقة، وإما بطريقة أخرى أكثر انحطاطاً، وهي وضع كتلة الطين ثابتة على الأرض، ثم تجويفها باليد؛ وكانوا يصنعون البلط والسكاكين والمجارف من الحجر. صحيح أن بعض القبائل كانت تصنع الآلات وأدوات الزينة من نحاس

يستخرج محلياً. ولكنهم كانوا يشكلونه بالطرق كما يشكلون الحجارة، لأنهم لم يكونوا يعرفون طريقة الصهر.

ويبدو أنه توجد دائماً مادة من مواد الطعام تكون هي الغذاء الرئيسي ويكون ما عداها ثانوياً، فإذا وضعنا هذه الحقيقة نصب أعيننا، استطعنا أن نقسم أمريكا إلى تسع مناطق غذائية، كما هو مبين فيما يلي، وهي تطابق بالتقريب المناطق الثقافية.



(شكل ٢٠) المناطق الغذائية في العالم الجديد، عن "كلارك وسلر"

فعلى شواطئ المحيط المتجمد الشمالي، يقع موطن الإسكيمو،

الذين يعيشون على صيد اللبونات المائية، "والكاريبو" أو الرينديرالوحشي. وفي جنوبهم كان الهنود يعيشون على صيد "الكاريبو" وجمع محصولات نباتية برية. وفي الجهات الشمالية من ساحل المحيط الهادي، يوجد إقليم كان سمك "السلمن"، أهم مادة غذائية لسكانه. كما أن في جنوبه إقليماً يعتمد سكانه في غذائهم على أنواع البندق العديدة والحبوب البرية. وإلى شرق هذا الإقليم، كان يوجد إقليم "البيزن" bison أو الجاموس الوحشي، وسيأتي الكلام عليه تفصيلاً فيما بعد. وإلى شرق هذا الإقليم الأخير كان يوجد إقليم زراعة الذرة، على أن إقليم الزراعة الكثيفة الذي كانت الذرة أهم محصولاته، كان يمتد من المكسيك عبر أمريكا الوسطى إلى شيلي. وفي أمريكا الجنوبية المدارية، حيث كانت معظم الأراضي تغطيها غابات كثيفة، كان السكان يعيشون على صيد الحيوانات الصغيرة، ولكن كثيرين منهم كانوا أيضًا يزرعون "المانيوق". وأخيراً كان في جنوب القارة إقليم يعيش سكانه على صيد "الجواناكو" وهو حيوان مجتر من فضيلة الأيل.



(شكل ٢١) خريطة توضح موقع البراري في أمريكا والاستبس في آسيا

ونستطيع أن نجمل المناطق التسع المذكورة في خمس مناطق تسكنها شعوب من الصائدين، وثلاث تسكنها شعوب من الزراع، وواحدة يسكنها شعب من جامعي الحبوب البرية. وسنتكلم عن بعض هذه الشعوب بالتفصيل فيما بعد، ولكن يجمل بنا أن نشيرها هنا إلى أن أهم القبائل الزراعية، كانت تعيش على الأخص فوق الهضاب في أمريكا الوسطى، وشمال أمريكا الجنوبية، وأن اشتغالهم بالزراعة كان العامل الأساسي الذي رفعهم نسبياً في المدنية إلى مستوى عال. فالزارع لا بد له من بعد النظر، لأنه لو استهلك كل ما ينتجه، لعرض نفسه للهلاك جوعاً إذا صادفته سنوات عجاف، كما أن الزراع لا بد من المعرفة التامة بفصول السنة، ولا بد له كلما زاد عدد السكان، من توسيع رقعة الأرض المزروعة، وهذا يؤدي في الغالب إلى امتداد الزراعة إلى جهات جافة نسبياً، وهذا بدوره يؤدي حتماً إلى استعمال الري. وأشهر تلك القبائل المتمدينة كانت "الإنكا" في بيرو، و"المايا" في "يوكوتان"، و"والآزتك" في المكسيك.

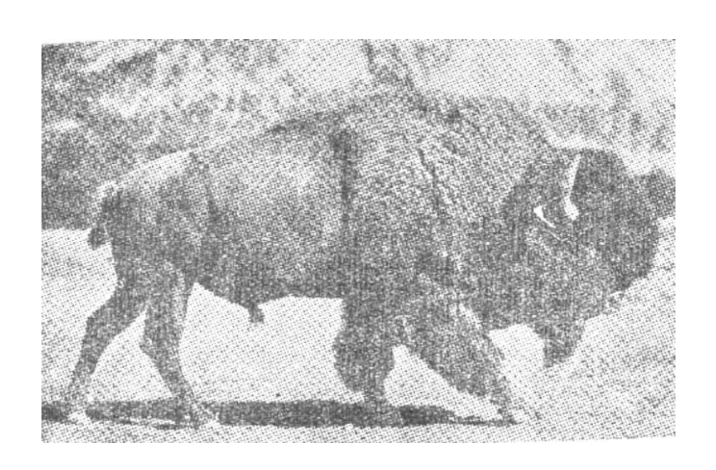
ولنعد الآن إلى حياة أولئك الهنود الذين كانوا يقطنون البراري الداخلية في أمريكا الشمالية. وهذه البراري عبارة عن سهول عظيمة معشبة، ذات مساحة شاسعة، وهي تنحدر من سفوح جبال روكي في الغرب إلى نهر المسيسبي في الشرق، ولا يزيد عرضها في أغلب جهاتها على خمسمائة ميل، ولكنها تمتد من قرب خليج المكسيك في الجنوب إلى كندا الوسطى في الشمال وهي مسافة تبلغ ألفاً وخمسمائة ميل. وفي هذه المساحة الشاسعة– كما هي الحال في جميع الأقاليم الواقعة وسط

كتل متسعة من اليابس- نجد الفرق بين درجة حرارة الصيف، ودرجة حرارة الشتاء كبيراً، كما نجد مقدار المطر الساقط قليلاً. وفي الأجزاء الجنوبية من هذا الإقليم، يقصر فصل الشتاء، ويندر سقوط الثلوج، أما في الشمال فالشتاء قارس البرد، وقد يهبط متوسط الحرارة إلى ما تحت درجة التجمد خلال ثلاثة أشهر أو أربعة. والمطر، وأغلبه يسقط في فصل الصيف، قليل في جميع أنحاء هذا الإقليم، فهو في الشرق أقل من عشرين بوصة، ويتناقص نحو الغرب حتى يصل في غرب الإقليم إلى عشر بوصات أو نحوها. ويرجع انعدام الأشجار في هذا الإقليم، في المكان الأول إلى قلة المطر، وقصر فصل النمو.

وفي الشتاء تلبس معظم الأرض حلة من الثلج، ناصعة البياض، ولكن عند ما يقبل الربيع ترتفع الحرارة، وينصهر الثلج، وتنبت الحشائش والنباتات الحولية، ولكن الأشجار، ولا سيما الصفصاف وخشب القطن cotton-wood، لا تنمو إلا في وديان روافد المسسبي بينما تتغطى أعالي سفوح الجبال الغربية بمجموعات من أشجار الصنوبر. وفي الشرق، حيث يزيد مقدار المطر، ينمو العشب إلى ارتفاع ستة أقدام، أما نحو الغرب فإن الحشائش تقل في الارتفاع وفي الانتشار، حتى لا تزيد في النهاية على ما يسمى أعشاباً فقيرة scrub land. ويبلغ العشب ذروته عقب عواصف المطر الصيفية الأولى، ولكنه يذبل فيما بعد تحت وطأة أشعة الشمس المحرقة؛ ولا يبقى منه إلا خصلات محترقة بفعل الحرارة.

وكانت البلاد، قبل مجيء الأوروبيون، تعج بحيوان الصيد من الأغنام الجبلية والأيل (Elk) والغزلان على سفوح الجبال في الغرب، وبقر الوحش (antelopes) في البراري والقندس (Beavers) وطيور الماء قرب الأنهار، و"البيزن"، وهو أهمها جميعاً، وهو الذي يطلق عليه الأمريكيون خطأ اسم الجاموس. ولم يكن "البيزن" مقتصراً على البراري، لأن منه أنواعاً كانت تعيش في الغابات في الشمال والشرق، ولو أن العدد الذي كان يعيش منه في البراري، كان أكثر كثيراً، وكان يهيم في قطعان هائلة العدد، قد يبلغ الواحد منها ألفاً أو يزيد، متنقلاً من مرعى طبيعي إلى آخر، متجهاً في الربيع نحو الشمال إلى أرض رعوية جديدة، ومرتداً في الخريف إلى الجنوب. ويقدرون أن عدده لم يقل في أي سنة عن ثمانية ملايين رأس، وذلك قبل أن يدخل الحصان والأسلحة النارية إلى هذه البلاد.

ولا يمارس الهنود الذين يسكنون السهول أي نوع من الزراعة فيما عدا القليل من الطباق الذي يزرع في الغالب ليستعمل في المناسبات، ولم يكن لهم من سبيل إلى الاشتعال بالرعي إذ لم يكن لديهم أغنام ولا ماشية ولا ماعز، لكنهم كانوا صيادين وكانوا يعتمدون في المكان الأول على صيد البيزن: على أنهم كانوا كذلك يصيدون القليل من بقر .....



(شكل ٢٢) البيسون الذي يسمى غالباً البفلو

..... الوحش وغيرها من آكلات العشب. وكان نساؤهم يقمن بجمع ما يصلح للطعام من الحاصلات النباتية كاللفت البري والكرز البري وبعض أنواع التوت مما كان يدخل عنصر التنويع إلى غذائهم. أما البيزن فيكاد يكون من مستلزمات حياتهم، وكانوا ينتفعون بكل جزء من جسمه، فكانوا يتخذون الثياب من جلده بعد أن يدبغ دون أن يزيلوا ما عليه من شعر، فإذا دبغ ورقق بعد إزالة شعره صنعت منه أغطية الخيام والقمصان والسراويل والجوارب والحقائب وما إلى ذلك؛ فإذا قطع إلى سيور ضيقة اتخذت منه حبال. وكان شعره يستعمل لحشو الوسائد، وهو يستعمل في الوقت الحاضر لحشو السروج وكذلك لتزيين الملابس والدروع. وكانوا يصنعون من عصبه الخيوط رفيعها وغليظها، ومن حوافره الغراء ومن قرونه المغارف وأواني الشرب ومن عظامه أدوات لدباغة الجلود، بينما كان لحمه يؤكل جميعه أحياناً لكن مطبوخاً في أغلب الأحيان.

من هذا يتضح أن حياة أولئك الهنود كانت تتوقف إلى حد كبير على تحركات البيزن، وكانت هذه الحيوانات الضخمة تهاجر في الربيع وأوائل الصيف في جماعات هائلة إلى أجود المراعي، ولكنها كانت تتفرق في الخريف والشتاء– عندما يصبح العشب أكثر جفافاً وندرة– في قطعان قليلة العدد، ومع ذلك كان من النادر في أي وقت أن نجد فرداً واحداً منها يتجول بمفرده. وكان الهنود لهذا السبب مضطرين إلى أن يحيوا حياة التنقل، وكانوا كذلك ينقسمون في الشتاء إلى جماعات قليلة العدد تنتشر في الأرض يبحث كل منها عن الصيد في المساحة التي يدعى حق امتلاكها، فإذا جاء الصيف التأم شمل الجماعات المتفرقة واجتمعت عائلات كثيرة منهم ليستطيعوا تنظيم حملاتهم على القطعان الهائلة.



(شكل ٢٣) خيمة التيبي عند قبائل البلاك فوت

ولما كانوا يحيون حياة التنقل كانت مساكنهم عبارة عن خيام، وكانت خيامهم مخروطية الشكل يغطونها بالجلود ويسمونها تيبي

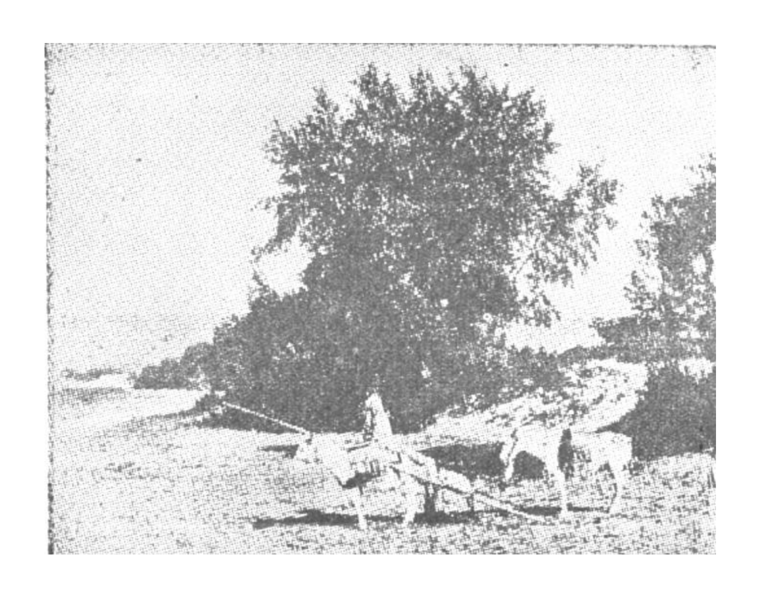
(Tepee أو Tipi) وهي أفخم خيام استعملها الرحل على الإطلاق. وكان من واجب النساء ضرب هذه الخيام، وكانت الخيمة تبلغ نحو أربعة عشر قدماً في قطرها ونحو عشرة أقدام في ارتفاعها، فكن يأتين بأربعة أعمدة طويلة من خشب الأرز أو الصنوبر يحصلن عليها من على سفوح الجبال، ثم ينصبنها ويربطن أطرافها العليا بحبال مصنوعة من عصب البيزن فيتكون منها شكل هرمي، ثم يؤتى بنحو عشرة أعمدة أخرى أو أكثر تثبت بين الأعمدة الأولى بحيث يتكون من قواعدها دائرة، بينما تتفرع أطرافها العليا على هيئة قمع. وبعد ذلك ينشر فوق هذه الأطراف غطاء من جلود البيزن المدبوغة بلون الكتان الأبيض، وغالباً ما يزينونها بأقلام القنفذ أو برسوم ملونة بالأحمر والأزرق تصور ما قام به مالكها من أعمال مجيدة أو تمثل أشكالاً هندسية منتظمة. وكان صنع الغطاء– الذي يقرب شكله جداً من شكل نصف الدائرة– عملاً يستلزم مهارة ويحتاج إلى وصل نحو اثني عشر جلداً من جلود البيزن بعضها ببعض بواسطة مخارير من العظام، وكان هذا الغطاء يثبت إلى الأرض بالأوتاد أو بالحجارة وتترك في أعلاه فتحة ذات سدادات يمكن حبكها لتسمح هذه الفتحات بتسرب الدخان منها. وكان مدخل الخيمة فتحة عليها ستر من الجلد يقوم مقام الباب، أو ربما استعاضوا عن الستر بضم جانبي الفتحة أحدهما إلى الآخر. وفي وسط الخيمة تقوم شعلة النار تحيط بها حجارة مسطحة، وإلى الداخل من الشعلة وفي مواجهة مدخل الخيمة يجلس رب الأسرة، وقد يعلق خلفه ستارة داخلية من الجلد ارتفاعها نحو ثلاثة أقدام أو أربعة تغطي نصف الحائط الداخلي، وتوضع حشية رب الأسرة

وزوجته على الجانب الأيسر من المدخل، وينام الأطفال والخدم على الجانب الأيمن منه، وتتخذ الحشايا من العشب اليابس أو من عساليج الشجر المغطاه بالأجزاء الرقيقة من جلد الجاموس. وكانت توضع عند الرأس– وفي أغلب الأحيان عند القدمين أيضًا– مساند للاستعمال أثناء النهار. وليس لديهم عدا ذلك أثاث يذكر فيما غير القليل من الأدوات المنزلية كحقيبة أو حقيبتين من الجلد تحفظ فيها الملابس وسهام وآلات تعلق في أعمدة الخيمة.

وكانوا يصنعون أدواتهم وأوانيهم من الخشب أو منتجات الحيوان، ولم يكونوا يعرفون صناعة الفخار ولا صناعة السلال. وكانوا يصنعون أواني الطبخ من حجر الخفاف أو جلود البيزن، والحقائب والأكياس من الجلد، والفناجين والقصع من الخشب، والملاعق والأكواب والصحون الصغيرة من القرون، بينما كانوا يتخذون من أحشاء البيزن أوعية لحفظ الماء. واشهر أدواتهم مطرقة من الحجر لها يد مركبة فيها، وأوتاد من القرون، ومخارز ومكاشط من العظام، وسكاكين من حجر الصوان؛ ولم يكن في حياة الترحال التي يحيونها مكان لآية أداة قابلة للكسر. وكانوا يولدون النار بمثقب وحراق من روث البيزن الجاف، على أنهم كثيراً ما كانوا يحملون معهم من معسكر إلى معسكر شعلة موقدة فوق عصا ليوفروا على أنفسهم مؤونة توليد النار من جديد.

ولم يستعمل الهنود في انتقالهم أحذية الصقيع ولا الزلاقات، ولكنهم كانوا أحياناً يربطون بضائعهم فوق جلد كبير تجره النساء

والكلاب كما تجر الزلاقات، وكانت الأحمال الثقيلة تنقل عادة فوق الظهر، ولكن كثيراً منها كانت تحمله الكلاب؛ على أن وسيلة النقل الشائعة فوق السهول كانت أداة عجيبة يسمونها "ترافويس" Travois قد تكون تطورت في الأصل عن الطريقة التي كانوا يثبتون بها أعمدة الخيام فوق ظ الكلاب وكان "الترافويس" يتكون من عمودين طويلين يثبت واحد منهما على كل جانب من جانبي الكلب ويجرجر طرفاهما الخلفيان على الأرض. وعلى هذه الأداة البدائية كانت تثبت حقيبة شبكية النسيج توضع فوقها الأدوات الصغيرة. فلما أدخل الحصان إلى أمريكا انتقل "الترافويس" إلى الحصان، وبذلك استطاع الهنود أن ينقلوا أحمالاً أكثر ثقلاً.

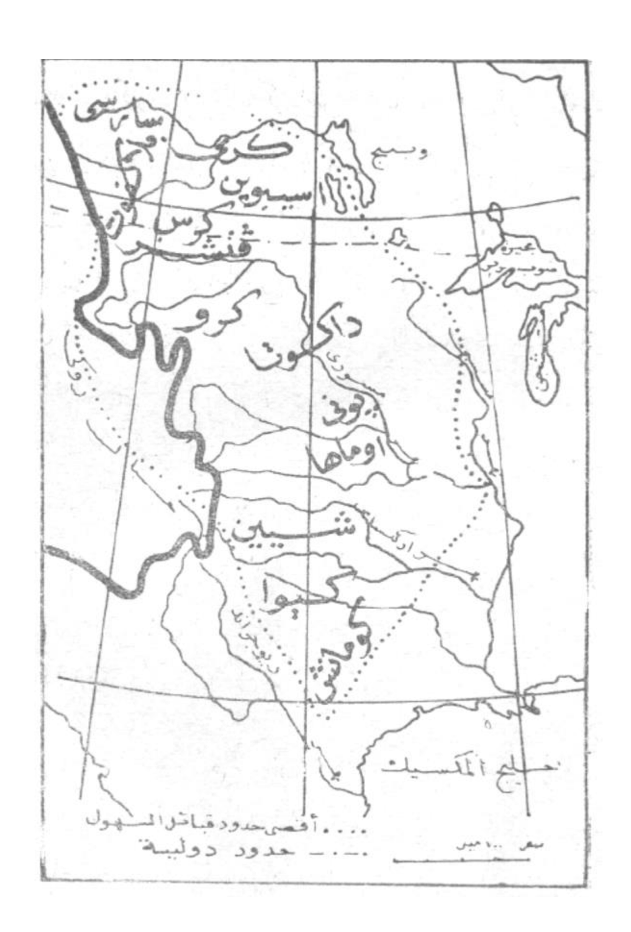


(شكل ٢٤) زحافة الخيل (الترافويس) عند هنود السهول

واستعمل الهنود لعبور الأنهار قوارب من الجلد، واستعمل بعضهم

نوعاً من الأرماث تنشأ على الفور من جلود مشدودة على عصى يجرونها خلفهم وهم يسبحون.

ولم يكن هنود السهول ينتمون جميعاً إلى قبيلة واحدة، أو يتكلمون لغة واحدة، ولم يصلوا جميعاً إلى هذه الأقاليم في وقت واحد. فقبائل الشيين Cheyenne مثلاً لم تقطن هذه السهول إلا بعد أن كشف الأوروبيون القارة الأمريكية، إذ جاءوا في الأصل من الإقليم الواقع في شمال بحيرة سوبيرير حيث كانوا يعيشون على الزراعة ويحيون حياة الاستقرار، فلما تحولوا إلى قنص البيزن غيروا طريقة حياتهم بسرعة وأصبحوا بعد قليل لا يختلفون عن سائر هنود السهول. وكانت أشهر القبائل هي بلا كفوت Blackfoot وسارسيSarcee وأسيبوين Assiboine وفرع من الكري Caree في كندا، وكرو Crow وداكوتا وبوني Pawnee وشيين Cheyenne وكيوا Kiowa وكومانش Comanche في الولايات المتحدة.



(شكل ٢٥) توزيع قبائل هنود السهول

على أن هؤلاء الهنود جميعاً كانوا يشبهون بعضهم بعضاً شبهاً كبيراً من حيث المنظر والثقافة. فكانوا جميعاً طوالا نحافاً أقوياء يميل لون بشرتهم إلى السمرة الخفيفة المشربة بصفرة؛ وكان شعرهم أسود مسترسلاً كما كان شعر وجوههم قليلاً، وعيونهم سمراء قاتمة وأنوفهم ضيقة بارزة، وكان كثير منهم يتركون شعرهم يطول ويفرقونه في الوسط ويثنونه في خصلات أو يتركونه مرسلاً على الكتفين، على أن بعضهم

كانوا يحلقون شعرهم أو ينتفونه ويتركون في أعلى الرأس خصلة صغيرة يسمونها خصلة الهامة، وكانوا أحياناً يلبسون فوق الرأس قلنسوة الحرب أو لباس الرأس وهو من الريش، وكان يختلف اختلافاً كبيراً ولكنه في العادة جميل جداً، وكان أحياناً يتدلى خلف الظهر إلى الأرض.

ويزين الهنود أجسامهم بالنقش وبالوشم، وكان كثير من الرجال يشوهون جلودهم بخطوط قبيحة المنظر بعضها يعتبر من علامات الحداد، بينما بعضها الآخر يفتعله صاحبه بنفسه دلالة على الشجاعة وقوة الاحتمال، ولكنها كانت في الغالب تفتعل تقرباً إلى الأرواح. ولكي يحدث أحدهم مثل هذه الندوب على صدره وظهره، كان يمرر خلال لحمه شطفاً متينة من الشخب تربط إليها جماجم البيزن الثقيلة بواسطة حبال من الجلد، ثم يجري المسكين بأقصى ما يستطيع من سرعة يساعده اثنان من رفقائه كل منهما يمسكه من أحد ذراعيه، ويظل يجري حتى ينشق لحمه وتسقط عنه الجماجم.

وكان هناك اختلافات بسيطة في الملابس، ولكن هذه كلها قد تغيرت تغيراً كاملاً منذ اختلاطهم بالأوروبيين. وكان الرجال يلبسون في العادة قميصاً يتدلى إلى الفخذين وإزاراً وسروالاً طويلاً وحذاء من الجلد، ويزيدون على ذلك في وقت الزمهرير جلباباً من جلد البيزن المدبوغ باللون الأبيض مزيناً بنقوش عجيبة، وغالباً ما كانوا يزينونه بأقلام القنفذ يثبتونها تثبيتاً غير تام كي تحدث خشخشة مسموعة عند كل حركة. وكانوا في الصيف عندما تشتد حرارة الشمس يخلعون كل ملابسهم فيما

عدا الإزاز والأحذية الجلدية. ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا في أنهن كن يستبدلن بالقميص جلباباً طويلاً يتدلى إلى الركبتين أو إلى العقبين؛ وكان في هذا ما يغنيهن عن استعمال الإزاز. وكانت قمصان الرجال وملابس النساء على السواء تصنع عادة من الأجزاء الرقيقة من جلود الأيل أو الغزال أو بقر الوحش، لأنها أكثر نعومة من جلود البيزن. وكانت هذه الملابس تزخرف بنقوش ترسم عليها أو بصفوف من أقلام القنفذ الملون أو ريش الطيور وتزين بجلود بنات عرس. وكانت السراويل تزين بهداب وشراريب وخصلات صغيرة من شعر هامات الأعداء الذين لقوا حتفهم على يدي صاحبها. وكان من واجب الرجال الحصول على الجلود اللازمة لعمل الملابس، ولكن دبغها وتفصيلها وحياكتها كانت من عمل النساء. وكانت الجلود تعالج بخليط من مواد نباتية ومن مخ البيزن مع تكرار الدلك والكشط والدق، وذلك كي تصير ناعمة الملمس. ولم تكن النساء تستعمل زخارف في الملابس، وكن يقصصن القماش بسكامين من العظام ويثقبنه بمخارز ويخطنه بإبر من العظام وخيوط من العصب المفتول. وأشهر الحلي عندهم الأقراط المصنوعة من العظام والأصداف، والعقود المصنوعة من مخالب الدببة ومن أقراص من العظام.

والفن الهندي الزخرفي يشمل أشكالاً هندسية منحوتة أو منقوشة أو مطرظة بأقلام القنفذ المصبوغة، أما الفن الواقعي فكانوا يقصرونه على الملابس وأغطية الخيام.

ولم يكن لدى الهنود أي نوع من أنواع الكتابة، ولكنهم كانوا يرسمون بالدخان علامات برعوا في استخدامها كوسيلة للاتصال. وكان في استطاعتهم التخاطب مع غيرهم ممن لا يتكلمون لغتهم وذلك بواسطة لغة الإشارات التي بلغت عندهم درجة عظيمة من الرقي؛ وكان عندهم نظام عشري للدلالة على الأرقام، ولكن مما يؤثر عن قبيلة الكروز Crows أنهم لم يكونوا يعرفون من الأعداد شيئاً بعد الألف، حيث كان من رأيهم أن الرجل الأمين لا يحتاج إلى ما فوق ذلك من الأرقام.

ويحب الهنود أولادهم حباً عظيماً ولا يوقعون عليهم عقوبة، والأمهات يؤرجحن أولادهن ويغنين لهم أغاني التهنين. وفي اليوم الثاني بعد ولادة الطفل تخرق الأم أذنه بمسلة ليلبس فيها القرط، وفي اليوم الرابع من مولده يقيمون حفلاً شائقاً احتفالاً بتسمية الطفل، وعندما يبلغ نحو ستة أشهر يربط إلى مهد هولوح مسحوب الطرفين مغطى بالجلد يربط إليه الطفل بسيور من الجلد ذات أهداب. وترضع الأم طفلها حتى بعد أن يكتمل العام الثاني من عمره، أي حتى يصبح في مقدوره مضغ اللحوم، إذ أن اللبن والأطعمة اللينة كلاهما غير متوفر لديهم. وقبل أن يعرف الحصان في أمريكا كانت الأم عند الرحيل تحمل طفلها في مهده على ظهرها.

ويقضي أطفال الهنود معظم وقتهم يلعبون في الهواء الطلق، ولا يتلقون أي نوع خاص من التثقيف، ولكنهم كانوا يتعلمون كثيراً عن طريق محاكاة آبائهم، فكان من أحب الأشياء إليهم أن يلعبوا لعبة إدارة البيت

أو لعبة "الزواج" أو لعبة "صيد البيزن" على أن الآباء كانوا يعلمون أبناءهم ركوب الخيل والسباحة واستعمال الأقواس والسهام، بينما كانت الأمهات يعلمن بناتهن شؤون المنزل.

ومع أن وصول الولد أو البنت إلى دور البلوغ كان له عندهم أهمية خاصة، إلا أنهم لم يكونوا يقيمون لذلك أية حفلات خاصة، مع أن الأولاد عند بلوغهم كانوا يرشحون للانضمام إلى جمعية من الجمعيات.

وإذا بلغ الشاب العشرين بدأ التفكير في الزواج، ولم يكن الزواج مسألة حب بل كان أمراً يتفق عليه الآباء فيما بينهم. ومن المحتمل أنهم لم يكونوا فيما مضى يحتفلون بالزواج، وكل ما هناك أن العروس كانت تنتقل إلى خيمة زوجها بمجرد، يدفه مهرها. وكان الشبان في السهول يشترون زوجاتهم شراء في مقابل خيل وفراء وعطايا أخرى. وكان العرف يقضي بالتزوج من خارج العائلة، ولكنهم كانوا يشجعون الزواج من نفس القبيلة أو من قبيلة أخرى تربطهم بها صلة القرابة. وكان الزواج بأكثر من امرأة أمراً جائزاً، وكانوا فعلاً يمارسونه إذا سمحت مواردهم. وكان الإرث ينحصر في الرجال، ولكنه كان في قبيلة الكروز ينحصر في النساء.

أما أجراءات الحداد عندهم فكانت أكثر استفاضة من إجراءات الزواج، فكان الرجل إذا مات تخطط جثته وتلبس أحسن ملابسه وتلف في جزء من غطاء الخيمة وتخرج من أحد جوانب الخيمة، ثم يسير المشيعون وأمامهم الطبول إلى مكان الدفن حيث يقيمون بتشويه أجسامهم بين الغناء والرقص والصياح، وبعد ذلك توضع الجثة بقدميها

متجهين نحو الغرب على خشبة ممدودة بين أربعة أعمدة أو بين شعاب شجرة، وبعد أن تتحلل الجثة تؤخذ العظام وتوضع في كهف أو في شق بين الصخور. وكانت قبيلة الأسينوبويين Assinoboine تصف الجماجم في السهول في شكل دائري بحيث تتجه وجوهها جميعاً نحو مركز الدائرة.

وكانت الهنود يجدون من وقتهم متسعاً للهو زيادة على ما ينفقونه في البحث عن الطعام وفي الحروب. وكانوا يمارسون كثيراً من الألعاب علاوة على الرقص والغناء الذي كان يصحب بعض احتفالاتهم، فكانوا يلعبون الخذروف ويقذفون الجلة ويزلجون على الجليد ويتسابقون في الجري ويتبارون في رمي السهام ويصوبون المزاريق إلى أطواق متحركة ويلعبون نوعاً من الهوكي يتبارى فيه الرجال ضد النساء. وكان للهنود غرام خاص بالمقامرة ولا سيما ألعاب التخمين.

والكرم عند هؤلاء الهنود طابع واضح، فكان الضيفان يستقبلون أحسن استقبال، ويجلسون في مكان الشرف في مؤخر الخيمة، وتفرش لهم ربة البيت جلد البيزن في مكان الضيفان، ثم يؤتى بالسروج وتعلق في أعمدة الخيمة. وبعد ذلك يؤذن بالدخول لكل راغب في لقاء الضيف، ثم يملأ الغليون– وهو عادة من الطين الأحمر أو خشب البوداق ذو ساق طويلة من خشب البوداق مزخرفة مزخرفة بديعة بالريش والشعر وأقلام القنفذ– يملأ هذا الغليون بالطباق ويمرر على الحاضرين من اليمين إلى اليسار، وبعد ذلك تقام وليمة وتضع ربة البيت أمام

الضيف قصعة مملوءة بلحم البيزن المسلوق.

وكانت القبيلة عند هنود السهول وحدة سياسية محدودة ومنفصلة انفصالاً تاماً عن جميع من حولها. وكان هناك ثلاث قبائل يتكون منها شعب البلاكفوت (Blackfoot)، وهي البلاكفوت الحقيقيون والبلض (Blood) والبيجان (Piegan). وكانت هذه القبائل الثلاث تتشابه تشابهاً كبيراً في اللغة والعادات، وكان يجمع بينها شعور بصلة الدم، ومع ذلك كانت كل واحدة منها مستقلة سياسياً ولها زعيمها الخاص. وكانت كل قبيلة تتكون من بطون، وكل بطن تتكون من عائلات تربط بينها صلة القرابة، وقد تشمل أيضاً بعض الغرباء. ولم يكن عدد العائلات في البطن الواحد متساوياً، ولمن كان لكل بطن اسمها الخاص وإقليمها الخاص الذي تحدده حدود معروفة. وكان يحكم كل بطن مجلس مكون من الرجال البارزين يترأسهم زعيم مشهوداً بالمهارة في القنص والحرب وبالقدرة على التنظيم، وكانت جميع بطون القبيلة الواحدة تجتمع معاً بضعة أسابيع من كل صيف ينتخب خلالها زعيمها، وفي هذه الفترة أيضًا كانوا يتفقون على التنظيمات الحربية، حيث كانوا يضربون خيامهم على شكل دائرة تتوسطها خيماً الزعيم ومن حولها خيام البطون المختلفة في صفوف من الدوائر، كل بطن على حدة. وكانت هذه القبائل تنقسم أيضًا إلى جماعات مختلفة بخلاف انقسامها إلى بطون، وكان لكل جماعة منها حفلاتها ورقصاتها الخاصة، ولم يكن أعضاء الجماعة الواحدة ينتمون بالضرورة إلى بطن واحدة، بل كان من الجائز أن يكونوا من خليط من البطون.

وكان عدد الأعضاء في هذه الجماعات- وكذلك نظمها وأعمالها- تختلف باختلاف القبائل، وكان بعض أعضاء هذه الجماعات يقومون أثناء أشهر الصيف بأعمال الشرطة تحت إشراف الزعيم ومجلس القبيلة، وكانوا ينظمون الحياة في المعسكر وكذلك في أثناء الرحيل، ويقومون بالحراسة إذا كان هناك عدو قريب، كما كانوا يتولون معاقبة كل من يخالف القواعد المرعية في صيد البيزن.

ولم يستأنس الهنود من الحيوان غير الكلب، وكانوا يستخدمونه كما رأينا في نقل البضائع وفي الصيد، أما الخيل التي يقترن ذكرها في ذهن العامة بالهنود فإنهم لم يعرفوها إلا بعد أن أدخلها الإسبان إلى المكسيك، وسرعان ما انتشر الحصان والسرج والركاب نحو الشمال من قبيلة إلى قبيلة، وسرعان أيضًا ما أصبح الهنود فرساناً ماهرين. وقد كان للخيل فضل مساعدة هنود البراري على التجول مسافات أوسع لولاها ما استطاعوا قطعها، ثم إنها جعلت القنصل أسهل مما كان، كما أنها كانت العامل الأول الذي ساعد بعض القبائل المستقرة عند حافة البراري على غزوها، وكذلك ساعدتهم على سرعة الحركة والانتقال فأخذت بعض القبائل تتخطى حدودها وتغير على من يليها، ونشأ عن ذلك حروب مستمرة، وأصبحت الحرب في الواقع أحب لهو إلى هنود السهول.

وكان أشهر أسلحة الوطنيين القوس والسهم. وكان طول القوس نحو ثلاثة أقدام يصنعونه من الخشب أو من القرن، وكانوا يتخذون الوتر من عصب الحيوان ويصنعون وقاء للرسغ من الجلد الخام، وكانت مؤخرة

السهم من الخشب ورأسه من العظم أو القرن أو الصوان المشطوف، وكانوا يحملون السهام في كنانات من الجلد.

وقد جلب المستعمرون الأوروبيون معهم الأسلحة النارية. فساعدت على القضاء على البيزن وعلى زيادة الاعتداءات بين القبائل إلى درجة كبيرة، كما ساعدت البنادق على زيادة الهجرات وغيرت كثيراً من عادات القبائل. وكان الهنود يستعملون– عدا الأقواس– حراباً ثقيلة من الخشب يثبتون في نهايتها أحياناً أطراف قرون الأيل، كما كانوا يستعملون هراوات



(شكل ٢٦) حلقة الكمين لصيد البيسون

مدببة من الحجر وسكاكين للكشط، وكانوا يستعملون في الدفاع دروعاً مستديرة من الجلد الخام السميك.

وقبل مجيء الأوروبيون كان الهنود يهاجمون البيزن وهم راجلون بالأقواس والسهام، ويبدو أن هذه الطريقة لم تؤد إلى نقص ملحوظ في عدد هذه الحيوانات. وكان البيزن أحياناً يصاد أفراداً، لكن عندما كانوا

يسمعون بوجود قطيع من البيزن في مكان قريب كانوا يمنعون منعاً باتاً الصيد المنفرد مخافة أن يؤدي ذلك إلى ابتعاد القطيع وهربه، وكان المتبع في مثل هذه الحالة أن يساق القطيع إلى زريبة مغلقة؛ وفيما يلي ما كتبه شاهد عيان عن صيد البيزن بهذه الطريقة:

"زريبة البيزن مكان فسيح دائري الشكل مسور يبلغ قطره نحو مائة ياردة، وعلى مدخله يكون الثلج إلى ارتفاع يكفي لمنع الحيوان الذي يكون قد دخله من أن يخرج ثانياً. وعلى بعد ميل تقريباً– على كلا جانبي الطريق المؤدي إلى الزريبة– كانت ترشق في الأرض خوازيق على أبعاد متساوية تقريباً، كل منها على بعد نحو عشرين ياردة من الذي يليه، وكان المقصود بهذه الخوازيق أن يظنها الحيوان رجالاً فلا يخرج عن الطريق الذي يؤدي إلى الزريبة. وعلى بعد نحو خمسين أو ستين ياردة من مدخل الزريبة كانت توضع بين الخوازيق خمسين أو ستين ياردة من مدخل الزريبة كانت توضع بين الخوازيق أغصان الشجر لتحجب الهنود الرابضين وراءها في انتظار البيزن.

وتتجلى المهارة الحقيقية في هذا النوع من المطاردة في الدور الذي يلعبه راكبو الخيل الذين يقومون بالمناورة حول القطيع في السهول كي يضطروه إلى اللجوء إلى الطريق المؤدي إلى الحظيرة والذي يبلغ عرضه نحو ربع ميل؛ فإذا تم ذلك صاح الفرسان صيحات عالية وأخذوا يضيقون الخناق على الحيوان فيتملكه الرعب ويندفع بأقصى سرعة نحو الفخ، وعندما تقترب الحيوانات من الرجال الرابضين وراء الأسوار يقوم

هؤلاء أيضاً من مكمنهم ويزيدون في فزع الحيوان بالصياح وإطلاق النار فلا يجد الحيوان الذي اشتد به الرعب بداً من الالتجاء إلى الحظيرة حيث يجهز عليه وشيكاً بالسهام أو بالبنادق.

وكان في وسط الحظيرة شجرة كان الهنود قدد علقوا عليها شرائح من لحم الجاموس وقطعاً من القماش على سبيل الشكر لواهب الحياة الأعظم، وسمعنا أنهم أحياناً يضعون في الشجرة رجلاً يغني للروح المسيطر في أثناء اقتراب الجاموس، وعلى هذا الرجل أن يظل في مكانه حتى يتم القضاء على جميع الجاموس الذي انساق إلى الحظيرة. وهذا النوع من القنص يشبه تماماً ما يتبعه أهل جزيرة سرنديب في قنص الفيلة، ولكن على مقياس صغير"[٥].

وكان من عادة القبائل القاطنة على سفوح الجبال في الغرب أن يسوقوا البيزن بين صفين من الرجال والنساء يرفعون أصواتهم بالصياح، ويأخذ الصفان في الاقتراب نحو هوة سحيقة حيث يهوى الحيوان ويقضي عليه.

وبعد ما عرف الهنود الخيل أصبح في استطاعتهم مطاردة القطعان من مسافات بعيدة، وكذلك أصبح في استطاعتهم وهم فوق ظهور الخيل أن يحيطوا بالقطيع ويسوقوه في دائرة تأخذ في الضيق تدريجاً حتى يصير كله كتلة واحدة ويقع فريسة سهلة للسهام.

---

(5) Franklin, John; narrative if a journey to the Shores of the Polar sea,

ولما عرفت الأسلحة النارية سار صيد البيزن بخطى حثيثة وتم القضاء عليه بسرعة حتى لم يبق منه الآن غير العدد القليل الذي يحتفظ به في المتنزهات الأهلية في كندا والولايات المتحدة. وفي سنة ١٨٩٩ كان عدد البيزن الذي يهم في البراري يقدر بما لا يزيد على ٦٣٥وذلك حسب الإحصاء الذي أورده تورناداي Tornaday.

وعند ما كان الحيوان الذي لجأ إلى الحظيرة يقضي عليه جميعه كانت جثثه تقطع تمهيداً لنقلها إلى المعسكر بواسطة الرجال والنساء والأطفال والكلاب؛ وفي بعض الأحيان كانوا يقيمون وليمة في مكان الصيد قبل نقل اللحوم إلى المعسكر. وقد وصف باركمن Parkman مثل هذه الوليمة فقال:

"ثم اجتمع الهنود حوله، وسرعان ما كانت عدة سكاكين تعمل فيه، وكانت هذه السكاكين تؤدي عملها بمهارة عجيبة حتى أن الأعصاب المتشابكة كانت تفصل على حدة، والعظام الضخمة كانت تنزع بسهولة كما لو كان ذلك بفعل ساحر، وفي طرفة عين كانت الجثة الضخمة قد أصبحت كتلة هائلة من اللحم الغارق في الدماء. ولم يكن منظر جموع المتوحشين الملفتين حول هذه الكومة مما ترتاح له عين الرجل المتمدين، فقد كان بعضهم منهمكاً في تكسير عظام الفخذ الضخمة وازدراد ما تحويه من نخاع، وكان البعض الآخر مشغولاً بقطع أجزاء من الكبد وغيرها من الأجزاء الممتازة وازدرادها في الحال بشهية دونها شهية الذئاب، وكان منظر معظم الوجوه الملوثة بالدماء من الأذن إلى

الأذن منظراً بشعاً ومخيفاً. وقدم لي صديقي عظمة ذات نخاع قد شقت بمهارة حتى أن ما بها من نخاع كان كله بادياً للعين مرة واحدة. ومن الواجب إحقاقاً للحق أن نقرر أن بعض أجزاء الجثة فقط تعتبر لائقة لمثل هذه الولائم التي يقيمونها في مكان الصيد.



(شكل ٢٧) خريطة توضح توزيع البيسون في فترات مختلفة

وكان الهنود يأكلون اللحوم في الأغلب مطبوخة، وهم يسلقونها في أوان مصنوعة من الجلود الخام والحجارة، أو يشوونها في رماد النار أو في جحور أو تنضج على النار. وعندما كانوا يريدون حفظ اللحم كانت النساء تقطعه إلى شرائح تجفف في الشمس ثم تحمص على النار، وبعد ذلك تسحق جيداً. وهذا المسحوق يحفظ في أكياس من الجلد أو من أمعاء الحيوان ويختم بالدهن، وفي هذه الحالة يسمى "بمكن" Pemmican، وكثيراً ما كانوا يسحقون مع اللحم Service berries أو الكريز، وبهذه الطريقة يحصلون على مسحوق شهي يسمونه "بمكن البري" Berry pemmican. وقد اهتم المستكشفون والصيادون الأوائل من الأوروبيين باستعمال هذا النوع من الطعام إذ أنه مركز وعظيم القيمة الغذائية.

ويعتقد الهنود الحمر– كسائر الشعوب البدائية– في عدد من الأرواح تسكن الأشجار والحيوان والصخور والأنهار، وهم يعتبرون بعض هذه الأرواح حارسة لهم ويبنون هذا الاعتقاد على رؤى يرونها.

وكانت رقصة الشمس أهم حفلاتهم الدينية، وكانت جميع القبائل تزاولها فيما عدا الكومانش Comanche. وكان الاحتفال عيداً سنوياً يستمر أياماً عديدة ويقع عادة عقب الموسم الصيفي لحملات صيد البيزن الجماعية، حيث كان هذا الصيد يمدهم بما يلزم لتلك الحفلات من اللحوم. وكانوا ينتخبون من بينهم زعيماً أو رئيساً للاحتفال وينصبون عموداً مقدساً يعلقون فيه القرابين للروح الأعظم وهذا العمود كانوا يقطعونه من شجرة بطريقة تمثل قطع عدو ثم يجرونه إلى مكان الاحتفال

وسط مظاهر الفرح العظيم، وكانت عادة قبائل الأسينيبويين Assiniboine الرقص في اليوم الأول من أيام الاحتفال، وفي اليوم الثاني يعرض السحرة ألاعيبهم وحيلهم، فإذا كان اليوم الثالث اشترك جميع الحاضرين في احتفال عظيم تحتل فيه لحوم الكلاب مكاناً هاماً بين ألوان الطعام. وكان من عادة بعض القبائل– كالبلاكفوت والكروز– أن يقوم المحاربون الشبان أثناء رقصة الشمس بتعذيب أنفسهم إرضاء للروح الأعظم كما كان يحدث أثناء هذا الرقص أن يتبادلوا "الحزمات الطبية" باحتفال لائق.

وكان هناك بضع أدوات مقدسة أو "طبيات" لعبت دوراً هاماً في حياة أولئك الهنود؛ وكلمة "طبيات" تشمل في الواقع إجراءات العلاج كما تشمل المواد الطبية نفسها، وهذه الأخيرة تشمل "الحزمات الطبية" والخيام الملونة والدروع المقدسة والقمصان الخاصة بالحرب وما إليها، وكان كل من هذه الأدوات المقدسة رمزاً لنعم خاصة أسبغتها على صاحبها القوي الخارقة، وكانت الخيام المنقوشة المزخرفة طبقاً لتعليمات تلقاها صاحبها في الرؤيا يملكها مشاهير رجال الطب أو "الشامان" وكانت هذه تلعب دوراً هاماً في الطقوس الدينية، وكان للدروع المقدسة المزخرفة طبقاً لتعليمات الأرواح في الأحلام قدرة على حماية لابسها في الحروب؛ والحزمة الطبية التي سبق ذكرها قد تكون أي شيء، من بضع ريشات ملفوفة في قطعة جلد أو قماش إلى مجموعة من الأشياء محفوظة في حقيبة كبيرة من الجلد، وكانوا يعتقدون أن هذه الحزمات تجلب لصاحبها التوفيق في الصيد والحرب والسفر كما تضمن له نصيباً من الاحترام. وكان معظم الشيوخ يمتلكون نوعاً من "الطبيات"، ولكن الذين

كانوا يملكون ما يسمى "الغليون الطبي" كانوا يتمتعون بأكبر قسط من التقدير. وكان مكان الرجل أثناء الحفلات يتأثر بنوع الحزمة التي يملكها، ولذا كانوا دائماً يتطلعون إلى الحصول على حزمة أعلى مقاماً. وكانت الحزمات الطبية قابلة للبيع والشراء، فكان الرجل الذي يملك حزمة طبية يعتقد أنها جلبت له التوفيق يعمل منها صوراً ويعرضها للبيع، على أن بيعه للصورة الرابعة كان يفقده حق امتلاك الحزمة. ورقم ٤ مقدس عند الهنود وهو يرد كثيراً في حفلاتهم. وكان تبادل الأدوات الطبية إجراء هاماً ومطولاً، لأن المالك الجديد لم يكن عليه أن يعرف فقط مغزى كل قطعة بل عليه أن يعرف كذلك وبالدقة تفاصيل الرؤيا التي يرجع إليها أصلها والأغاني التي اكسبتها قوتها، فإن الرمز لم تكن قوته في جوهره بل في الرؤيا الخاصة به وفي تاريخه وفي الأغاني التي تقترن به.

ويلعب الوحي دوراً هاماً في حياة الهنود، فهم ينظرون إلى الأحلام نظرة تختلف كثيراً عن نظرتنا إليها، فإن الأرواح في اعتقادهم هي التي تظهر لهم وتلقى إليهم بتعليماتها. ومن اعتقادهم أن الرؤى لا يراها إلا القليلون، وكان أكثرهم يقومون بتعذيب أجسادهم ليحاولوا بذلك إغراء الأرواح بالظهور لهم والإيحاء إليهم، وكان بعضهم في سبيل ذلك يعذبون أنفسهم عذاباً مؤلماً يجعل رؤيتهم الأحلام أمراً غير مستبعد، على أن الحوادث كثيراً ما أثبتت فيما بعد كذب أحلامهم.

وقد يكون "الشامان" رجلاً أو امرأة، على أن يكون قد جاءه الوحي وأن يبرهن على صدق ما حبته الأرواح من قوى خارقة. وكما أن الأحلام

كانت مختلفة كذلك كانت القوى التي يدعونها مختلفة، فكان بعضهم يتخصص في التنبؤ والتكهن وبعضهم في توجيه حملات الصيد، وبعضهم الآخر كانت له قدرة في الحروب، على أنهم جميعاً كان لهم إلمام بالسحر.

وأهم مميزات ثقافة هنود السهول بإيجاز هي الاعتماد على البيزن وسكني الخيام في جميع فصول السنة، والنقل بواسطة الكلاب والترافويس (وفي الأزمنة الحديثة بواسطة الخيل والترافويس) وجهلهم التام بالفخار والسلال والنسيج الحقيقي، واستعمال جلود البيزن والغزال في ملبسهم، واتقان أشغال الجلود، وتنظيم خيام المعسكر في شكل دائري، ونظام بوليسي لتنظيم صيد البيزن، وتفوق عام في فن الزخرفة، واحتفال ديني يعرف باسم رقصة الشمس.

وكان للهنود الذين يعيشون على حافة البراري نصيب من صيد البيزن وكانوا يعتمدون عليه- بدرجات متفاوتة- في الحصول على بعض طعامهم، وتعتبر ثقافة مثل هذه القبائل ثقافة انتقالية، إذ تشتمل على بعض صفات من ثقافة هنود السهول مع بعض صفات من ثقافة غيرهم من القبائل المجاورة، وكانت القبائل التي تليهم إلى الشرق تزرع الذروة والبقول والقرع وكانت تتخذ لها في فصل الزراعة مساكن دائمة من لحاء الشجر أو الحصير أو الطين بجوار زراعتها، فإذا جاء فصل صيد البيزن وانتقلت إلى البراري اتخذت لها مساكن مؤقتة هي في العادة من الخيام (التيبي). وقد استعملت هذه القبائل قليلاً من الفخار والسلال وصنعت حقائب من الغزل والنسيج كما كان يفعل جيرانها إلى الشرق؛ لكن

القبائل التي كانت تقطن إلى الغرب كان اعتمادها على البيزن أقل واعتمادها على الغزلان وعلى الصيد الصغير أكثر، وكذلك كانت تعتمد إلى درجة كبيرة على حبوب الأعشاب البرية؛ وهذه القبائل لم تعرف الفخار ولكنها كانت تصنع أنواعاً جيدة من السلال. أما الهنود الذين كانوا يقطنون على الحدود الشمالية الشرقية فكانت ثقافتهم تجمع بين معالم ثقافة الصائدين في الغابات ومعالم ثقافة الهنود من سكان السهول.

وقد سبقت الإشارة إلى الأثر الذي كان لدخول الخيل والأسلحة النارية في القضاء على البيزن وفي استمرار الحروب بين القبائل. وقد تنتج عن قلة عدد البيزن أن الهنود لم يحرموا من مورد غذائهم فقط بل حرموا كذلك من أهم مواد كسائهم ومأواهم، مما صير حياتهم شاقة جداً. وقد تناقص عدد الهنود كثيراً بسبب الحروب والأمراض (لا سيما الجدري والسل الرئوي) والخمور وما طرأ على طريقة حياتهم م تغيير. وقد حدث اختلاط كثير عن طريق التزاوج بين بعض القبائل مثل الكروز croes وبين الأوروبيين، ونتج عن ذلك أن نصف عدد الكروز فقط في الوقت الحاضر من الهنود الخالصين. ويحيا الهنود في الوقت الحاضر حياة هادئة في مناطق خصصت لهم: يزرعون المحاصيل ويرعون الماشية والخيل، بينما نجد أرضهم قد تغيرت، ففي الشرق– حيث يزيد مقدار الساقط من المطر– يزرعون كثيراً من الحبوب، وفي الغرب الأكثر جفافاً يرعون قطعاناً هائلة العدد من الماشية والخيل.

القسم الثاني

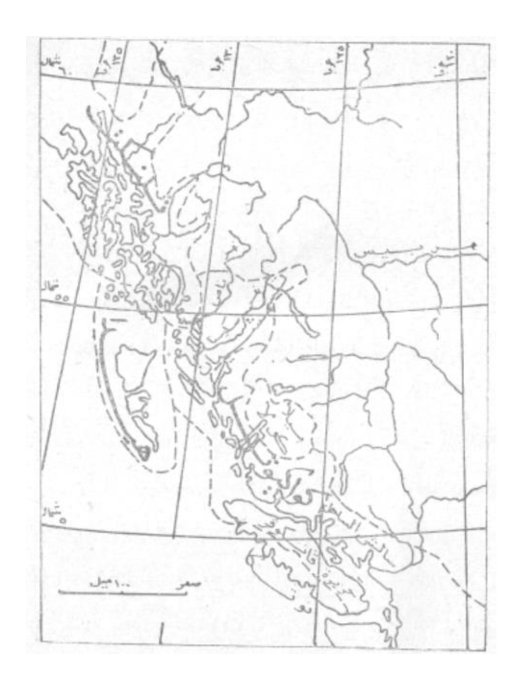
القانصون والصائدون

الفصل السابع

هنود السواحل في كولومبيا البريطانية

ينقسم الهنود الذين يعيشون في أيامنا هذه فيما يعرف الآن بكولمبيا البريطانية، من الناحية اللغوية إلى الأقسام الآتية: التلنكت Tlinkit الذين يقطنون الأقاليم الشمالية وتقطن أغلبيتهم في ألاسكا؛ والهايدا Haida الذين يقطنون جزر الملكة شارلوت؛ والتسمشيان Tsimshian الذين يقطنون في حوضي نهري ناص وسكينا؛ والكواكيوتل Kwakiutl الذين يقطنون في جنوب التسمشيان؛ والبلاكولا Bella Coola الذين يكادون يقسمون الكواكيوتل نصفين؛ والنوتكا Nootka في غرب جزيرة فانكوفر؛ والسالش الساحليون Coastal Salish في شرق الجزيرة المذكورة وفي الساحل المقابل لها من القارة. ويمتاز هؤلاء الأقوام بما يمتاز به سائر الهنود كالوجه العريض والأنف الضيق والعيون السمراء والشعر الأسود والبشرة السمراء. لكن لهم أيضاً بعض الصفات الخاصة بهم التي تميزهم عمن سواهم. وبالرغم مما بينهم من اختلاف في اللغة وفي المظهر فإنهم كانوا جميعاً قبل مجيء الأوروبيين يحيون حياة متشابهة، فكانوا يحصلون على طعامهم – في المكان الأول– من صيد الأسماك في البحر والأنهار وقنص الحيوانات البحرية فضلاً عن البرية. والواقع أنهم كانوا قد كونوا لأنفسهم ثقافة خاصة بهم تفوق كثيراً ثقافات معظم الجماعات غير الزراعية.

ونظرة إلى خريطة كندا تبين لنا أن الأقاليم الساحلية التي نتكلم عنها تشبه إلى حد كبير أقاليم غرب اسكتلندة والنرويج، فهناك سلسلة من الجزر تمتد بحذاء الساحل وهناك فيوردات طويلة تمتد أميالاً عديدة في داخل اليابس، بينما ترتفع من الشاطئ في كل مكان جبال شاهقة، ويخترق هذه المرتفعات قليل من الطرق ولا يشقها نهر أبداً في أي مكان بين نهري فريزر وسكينا وهي مسافة تبلغ خمسمائة ميل، ولذلك كان أسهل طريق للمواصلات هو طريق البحر. وقد كان هدوء الماء في الفيوردات وفي البحار الداخلية الواقعة بين الجزر وبين القارة من العوامل التي ساعدت الوطنيين على المغامرة بركوب البحر، هذا إلى أن وفرة الخشب في الغابات كانت تسد حاجاتهم منه لبناء القوارب.



(شكل ٢٨) خريطة توضح القبائل الساحلية في كولمبيا البريطانية

ومناخ الأقاليم الساحلية في كولمبيا البريطانية يشبه مناخ غرب أوربا في اعتدال حرارته ووفرة أمطاره، ففي بعض جهاته يزيد المعدل السنوي للمطر على ١٠٠ يسقط معظمها وابلاً مدراراً في الخريف والشتاء، أما الثلوج فيندر أن تبقى فوق السهول زمنياً يذكر، وهذا القول صحيح لا سيما فيما يختص بالجهات الجنوبية بما فيها جزيرة فانكوفر، حيث لا تبقى درجة حرارة الشتاء تحت درجة التجمد إلا فترة وجيزة لأن الإقليم يتعرض حينذاك للدفء بسبب هبوب الرياح الغربية التي تصحب تيار اليابان الدافئ. أما حرارة الصيف فمعتدلة لكنها لا ترتفع إلى الحر الذي تصل إليه في الداخل.

وفي مثل هذه الأحوال المناخية يجود النبات وتتغطى الأرض من ساحل البحر إلى ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام على سفوح المرتفعات بغابات كثيفة من الأشجار دائمة الخضرة ذات السيقان الطويلة المستقيمة، كما تنمو تحتها طبقة يصعب اختراقها من النباتات السرخسية الكبيرة ومن الشجيرات معظمها ذات ثمار صالحة للطعام. وأهم الأشجار التي يمتاز بها الإقليم شجرة تنوب دوجلاس Douglasfir التي كثيراً ما يصل حجمها إلى درجة هائلة حتى لقد يبلغ قطرها خمساً وعشرين قدماً وارتفاعها ثلثمائة قدم. ويتخلل هذه الأشجار أنواع أخرى متعددة منها التنوب fir والسرو والطحماء hemlock والشربين الأصفر والأحمر ذو الألياف المستقيمة. ومن الشربين أيضاً ما يصل حجمه إلى درجة عظيمة. وكانت أهمية شجرة الشربين للقبائل الساحلية كأهمية شجرة جوز الهند لسكان جزر البحار الجنوبية:

"فمن قشرها الخارجي كانوا يصنعون حبالهم وخيوطهم وسقوف مساكنهم والثقاب البطيء أو "النار المتنقلة" وكثيراً غير ذلك. ومن قشرها الداخلي كان نساؤهن ينسجن الملابس لهن ولأولادهن والفراش والوسائد، ويفرشن به مهاد الرضع من الأطفال، كما كن يصنعن منه عصابات الكبس واللوايا لتشويه رؤوسهن، هذا عدا استخدامه في أغراض عديدة أخرى. ومن أخشابها كان الرجال يصنعون المساكن العائلية والجماعية وكذا القليل من الأثاث الذي كانوا يعرفونه كالبراميل والقدور والغلايات والأقداح والصحون واقصع، ومنها أيضًا صنعوا القوارب الرشيقة الخفيفة ما كان منها للصيد أو للحرب، كما صنعوا صناديق الموتى والخزائن والأقنعة التي يلبسونها في حفلاتهم والعلامات المميزة لهم والأعمدة التذكارية والقضبان الطوطمية وأدوات أخرى لا حصر لها. ومن فروعها الصغيرة صنعوا أمتن أربطتهم وحبالهم، ومن جذورها، بعد فلقها، كان النساء والبنات يجدلن السلال الجميلة التي لا ينفذ منها الماء والتي اشتهر بها هذا الإقليم"

وفي وادي نهر فريزر الأدنى وغيره من الأقاليم الجنوبية كانت أشجار البتولا والحور الرومي والاسفندان والحور الأبيض وشجر التفاح المر والصفصاف تحل محل بعض أنواع الأشجار الصنوبرية.

وكانت الغابات فيما مضى تعج بحيوان الصيد ومن أهمها الأيل والغزال والأغنام الجبلية، ولكنهم لم يكونوا يهتمون كثيراً بصيدها، وقد يكون من أهم أسباب ذلك ما كان يجود به البحر من الرزق الوفير.

وكانوا يصيدون كلب الماء وعجل البحر ذا الفراء وعجل البحر ذا الشعر وسبع البحر والدرفيل والحوت. ولكن أهم حاصلات البحر الذي كانت كولمبيا البريطانية وما زالت تمتاز به، هو سمك السلمن. فقد كان هذا النوع من السمك هو الغذاء الرئيسي للأهالي قبل عصر التبادل التجاري.

وتوجد من السلمن أنواع عديدة لكل منها موعده الخاص بالهجرة وهو موعد خروجه من البحار وصعوده في الأنهار لوضع بيضه، وهناك أنواع أخرى كانوا يصيدونها ويتغذون عليها كسمك الدخس Sturgeon والرنجة والحلبوط halibut والحوت cod والأوليكان oolikan، ولكن القدر الذي كانوا يستهلكونه من هذه الأنواع لا يقارب ما كانوا يستهلكونه منن السلمن. وسمك الأوليكان مملوء بالدهن لدرجة أنه إذا جف يلتهب كالشعلة، ومن هذا أطلق عليه اسم سمك المصباح، وهو من فصيلة السلمن لكنه أصغر منه إذ لا يزيد طول الواحدة منه على تسع بوصات. وكانت أعداد هائلة من هذا النوع تصعد زمن الربيع في الأنهار ولا سيما نهر ناصر Nass، لدرجة أن الصائد كان يستطيع أن يملأ منه عدة مقاطف. وكان الدهن والشحم الذي يحصلون عليه من بعض الأسماك سلعة تجارية هامة، يعبئون كثيراً منها في صناديق من خشب الشربين وينقلونها عبر الجبال في طرق محددة معروفة.

وكانوا يجمعون كميات كبيرة من أسماك المحار من الشواطئ المنخفضة بعد انحسار ما المد عنها ويأكلون بعض ما يجمعون ثم يجففون الباقي ويحفظونه ليقايضوا عليه مع القبائل التي تقطن الأقاليم

الداخلية. كذلك كانوا يجمعون من الشاطئ بعد انحسار ماء المد القواقع وبلح البحر Mussels وعقارب الماء (أبو جلنبو Crabs).

ولم يستأنس هنود السواحل في كولمبيا البريطانية حيواناً غير الكلب ولم يزرعوا نباتات غذائية، ولو أن التلنكت Tlinkit والهايدا Haida استنبتوا من الحبوب نباتاً غير معروف الأصل تماماً زرعوه وسموه خطأ بالطباق. وكانت بعض الجماعات الأخرى تراقب الأماكن التي ينمو فيها هذا النبات برياً وتزورها في فترات منتظمة لتحصده. ولأوراق هذا النبات أثر مخدر، وكانوا يمضغونها بعد تجفيفها وخلطها بالجير.

وقد اعتمد هؤلاء الناس في طعامهم على صيد الأسماك، وكان طعامهم يتكون أساساً من لحومها ومن لحوم الثدييات البحرية وسمك المحار وحيوان الصيد والطيور البرية وبيض الطيور وأعشاب البحر وبعض أنواع من قشور الشجر والفواكه والجذور. وكانوا يصنعون من زيت السمك والثدييات البحرية ومن دهنها صلصلة يتناولونها مع كل طعام تقريباً. وكانت بعض الأعشاب البحرية تجمع وتكبس ثم تخزن لاستعمالها زمن الشتاء وكان القشر الداخلي لأشجار التنوب الفضي (Spruce) والصفصاف يكشط من الأشجار ويدخن وتصنع منه أقراص تدخر للاستهلاك في الشتاء وكانت الكميات الهائلة من فصائل التوت المختلفة التي يجمعها النساء والصغار في الصيف تدخ إلى طعامهم عنصراً جديداً سارا، وكان بعضها يحفظ بطرق شتى ويدخر لأيام الشتاء. وكانت القبائل التي تعيش في الجنوب تجمع كثيراً من جذور بطاطس

الخنزير (Cammas) وهو نبات يقترن دائماً بنبات الزئبق hyacinth، وكانوا إذا دخنوه حصلوا منه على خبز ذي طعم سكري نوعاً ما.

ولم تكن معظم القبائل الوطنية تعير صيد حيوان الغابات أي اهتمام، ولكن البلاكولا Bella coola والتسمشيان Tsimshian وبعض القبائل الأخرى كانت تقنص أنواعاً مختلفة من الحيوانات البرية أثناء أشهر الشتاء، وكانت الطيور وحيوانات الصيد الصغيرة تقنص بالفخاخ أو الشباك بينما كانت الغزلان تصاد بالشبك أو توقع في كمين بواسطة صائد يقلد أصواتها باستعمال صفارة خاصة ثم يعمل فيها سهامه. وكانت الدببة تقنص بواسطة الكلاب وترمي بالسهام أو توقع في حفر غاية في الاتقان أو بواسطة الحبائل، أما النوتكا Nootka والكواكيوتل Kwakiutl فكانوا ينظمون حملات واسعة لصيد الدببة، وكذلك كانت تصاد الأيل (elk) والأغنام الجبلية والماعز. وكان الصيادون يصنعون أقواسهم من خشب الشربين أو الفشاغ (yew، وهو نوع من السرو) وكانت سهامهم غير مريشة ولها ساق خشبية جزؤها الأمامي من الخشب أو من العظام ورأسها ذو السفاة من الخشب أو من العظم كذلك. وكان للأصواف والجلود والقرون والأعصاب التي يحصلون عليها مما يقنصون فوائد شتى أهم من فائدة لحمها الذي كانوا يأكلونه عادة عندما تندر أنواع الطعام الأخرى.

وكانت الثدييات البحرية تصاد من أجل فرائها ولحومها معاً، وكان لحم الحوت يعتبر طعاماً فيما لكنهم مع ذلك يعتمدون في الحصول

على حاجاتهم منه على ما يقذف به ماء البحر إلى رمال الشاطئ، على أن النوتكا Nootka كانوا يتسلحون برماحهم ويغامرون بقواربهم وراء الحوت، وكان يتزعم هذه الحملات أمهر القاذفين بالرمح وهو الذي يضرب الضربة الأولى، كما أنه هو الذي يوجه الرجال ويقودهم إلى حيث يصبحون على مرمى الرمح من الحوت، على مما في ذلك من خر على القارب الخفيف الذي يحطمه الحيوان بضربة واحدة من ذنبه الجبار. ومن عادة الحوت إذا أصيب أن يغوص في الماء ويسحب وراءه الحبال والعائمات فيتبعه الصائدون ويصوبون إليه مزيداً كلما طفا على سطح الماء طلباً للهواء؛ وبعد مدة يعجز الحيوان عن الغوص بسبب ما أصابه من الجراح الكثيرة وما يعلق به من الحبال التي تمسكها العائمات، وعندئذ يستطيعون الاقتراب منه والقضاء عليه، ثم يحملون جثته في قواربهم وسط مظاهر الفرح والابتهاج. وغني عن البيان أن حملات صيد الحوت لم تكن جميعها حليفة النجاح لأن الحيوان إذا لم تكن جروحه شديدة كان أحياناً يستطيع الإفلات رغم ما يمسك به من حبال وعائمات.

وكانت الدرافيل والقنادس تصاد– وعلى الأخص في الربيع– بالرماح تصوب إليها من القوارب، وقد حدث بعد اختلاط الهنود بالأوروبيين أن أصبح صيد القنادس يجري على نطاق واسع بسبب تقدير الأوروبيين العظيم لجلدها الجميل حتى أصبحت الآن في طريقها إلى الانقراض. وكانت عجول البحر وسباع البحر تصاد أيضًا بالرماح أو الضرب بالهراوات وهي راقدة بين الصخور في الأشهر الأولى من العام.

وكانت مهارة الوطنيين الحقيقيين تتجلى في صيد السمك، وكان الحوت والحلبوط وكلب البحر تصاد بالخيط والسنارة، وكان الخليط الواحد يضم أحياناً ما لا يقل عن مائة سنارة، وهذه السنانير – التي كانت تختلف أشكالاً باختلاف نوع السمك الذي تعد لصيده– كانت تصنع بإتقان فائق من الخشب المعوج أو العظم، وكان الخليط يصنع من حبال مفتولة من ألياف نباتية أو من أعشاب بحرية خاصة. وعندما كانت الرنجة والأوليكان تكثر في مياه ضحلة كان كثير من الهنود يستخدمون ما يسمى مجرفة السمك (Fish-rake) وهي عمود طوله نحو ثمانية عشر قدماً له سلاح طوله نحو ستة أقدام وعرضه نحو قدم واحدة مثبت فيه عدد من الخوازيق المصنوعة من العظام، وكل ضربة من ضربات هذه المجرفة في الماء الضحل الذي يعج بسمك الرنجة أو الأوليكان كانت تأتي بثلاث سمكات أو أربع، لكن المقادير التي كانت تصاد بالفخاخ أو الشباك أو السدود كانت تفوق بكثير المقادير التي تصاد بهذه الطريقة. وكانت الشباك تصنع عادة من حبال مصنوعة من ألياف نبات القريص Mettle وسلال الفخاخ من سلخ من خشب الشربين أو أغصان الصفصاف.

وكانت الأنواع المختلفة من السلمن هي العنصر الرئيسي في غذاء الهنود الساحليين، وكان صيد السلمن يتم في أغلب الأحيان بشبك الجر أو الخيط والسنارة أو السدود، فالكواكيوتل Kwakiutl والسالش Salish مثلاً كانوا يقيمون بحذاء الشواطئ التي يغطيها الماء وقت المد سدوداً من الحجر على شكل حدوة الفرس، فإذا انحسر عنها ماء المد

ترك السلمن وراء السدود. على أن معظم الهنود كانوا يستفيدون من رحلات السلمن السنوية ليصيدوه في الأنهار وهو في طريقه لإلقاء بيضه. وعندما كان موسم الهجرة يبلغ ذروته كانت الأسماك تكاد تسد الأجزاء الضيقة من الأنهار فيصير من أسهل الأمور إصابتها بالحراب أو سحبها من الماء جماعات بواسطة مجراف، على أن الذي كان يتبع عادة هو إقامة سد في عرض النهر. وكان الهايدا يقيمون في عرض النهر في الأجزاء العميقة منه حواجز من الأغصان اللينة ويتركون فيها فتحات تؤدي إلى فخاخ أسطوانية الشكل من الأغصان المجدولة. أما في أجزاء النهر التي يكون ماؤها ضحلاً وتيارها سريعاً فكانوا يقيمون سدين من القضبان بينهما مسافة صغيرة، وعندما يقفز السلمن فوق أحدهما ينحصر بين الاثنين ويسهل صيده بواسطة الحراب أو الشباك الغارقة dip nets. وبعض هذه السدود كان على درجة عظيمة من الإتقان، وكانت إقامتها تستدعي تضافر الجهود من القوم أجمعين.

وكان السلمن الذي يصاد يطبخ أو يجفف ويجزن لفصل الشتاء أو يستخرج منه الزيت، وكل هذه المهام كانت تترك للنساء يقمن بها. وكان القسم الذي يعدونه للشتاء تقطع رؤوسه وتفتح بطونه بسكين من الحجر وتستخرج أحشاؤه وتفصل سلسلته الفقرية بمهارة، وبعد ذلك تعلق الأسماك في صفوف تحت مظلة بدائية الصنع وتترك لتجف بفعل الشمس والهواء أو بفعلهما وبمساعدة النار والدخان. وإذا كان المراد استخراج الزيت تركت الأسماك حتى تكاد تتعفن ثم تؤخذ نحو ٤٠ أو ٥٠ من الأسماك المتعفنة وتوضع في برميل خشبي كبيلر به ماء ثم تظل

بعض الوقت تقلب وتغلي، وهذا الغيان يحدث نتيجة إسقاط حجارة محمية في البرميل وبعد انتهاء هذه العملية يصب عليها ملء دلو من الماء البارد ليجعل الزيت يطفو على وجه الماء، وعندئذ يقشط الزيت بواسطة ملعقة مصنوعة من الخشب أو من القرن. وكان هذا الزيت الخام يترك بعض الوقت ثم يغلي ثانياً، وكلما تكونت فوق سطحه رغوة أزالوها، حتى إذا لم تعد الرغوة تتكون تركوا الزيت يبرد، وبعد ذلك قاموا بتخزينه في أوعية مختلفة الأشكال من مرارة السمك fishes' bladders أو أمعاء الدببة بعد تنظيفها وتجفيفها.

وكان السلمن الطازج يطبخ بطرق مختلفة، فكان يشوى بأكمله وهو معلق فوق النار من عصى مثبتة في الأرض تخترق أطرافها جسمه وتنحني فوق النار، أو كان جسمه يشق نصفين ثم يوضع بين فلقتي عصا وأحياناً كان يشوي فوق حجر ملتهب أو يغلي في الماء. وكام السلمن المراد غليه يلف عادة في قطع من قشر الشجر لكي يبقى متماسك الأجزاء، ثم يوضع مع الماء في وعاء من الخشب أو من جديل لا ينفذ منه الماء، ثم يسقطون في الماء الحجارة المحمية (أو حجارة الطبخ) بمساعدة ماشات من الخشب.

والواقع أن جميع اللحوم والأسماك الطازجة كانت تطبخ بغليها على النار أو بالطريقة المذكورة. أما الأطعمة المجففة فكانت تنقع ثن تغلى قبل تناولها أو كانت تغمس في الزيت، وكان لبعض الجماعات أطعمة خاصة يلتذون بتذوقها مثل بيض الرنجة herring spawn، وهذه كانوا

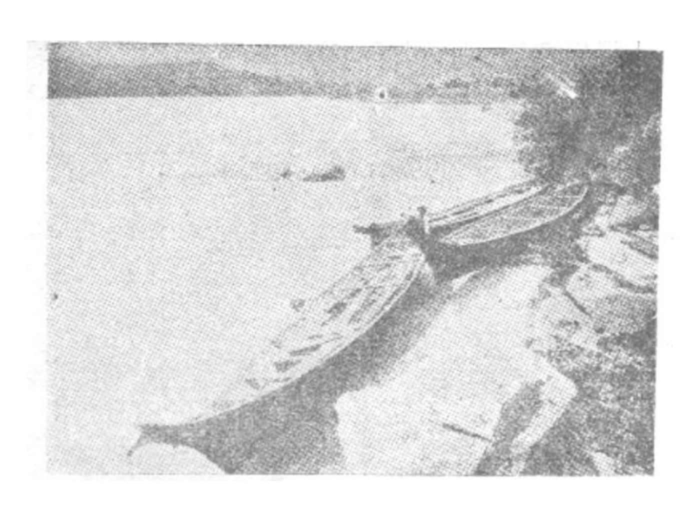
يحصلون عليها بأن يسقطوا إلى الماء الضحل غصناً مورقاص من أغصان شجرة الطحماء في الموسم الذي تلقى فيه تلك الأسماك بيضها، ثم يجففون ما يجمعونه من البيض ويخزنونه أو يغلونه مع التوت والأعشاب أو يسحقونه ويعجنونه بالماء ويضربونه حتى يصير عجينة قشدية القوام (Creamy paste).

وكان من عادة هنود السواحل تناول ثلاث أكلات في اليوم وكانوا عادة يغسلون أيديهم وينظفون أفواههم قبل كل أكلة. وكان الرجال والنساء يأكلون معاً، فيجلس الجميع متربعين حول حصير فوقها قطع من الخشب مملؤءة بالطعام يتناوله كل منهم بمعلقة من الخشب. فإذا كان هناك ضيفان تولت ربة البيت الطبخ وتولى رب البيت القيام على خدمتهم. فإذا بقى من الطعام فائض– وهذا ما كان يحدث دائماً– يجمع المتبقي بأكمله يفص حتف ويرسل إلى منازل الضيفان، وفي اليوم التالي تعاد الصحاف إلى صاحبها نظيفة وبها عادة بعض الهدايا، ولم يكن هؤلاء الهنود الساحليون يعرفون أي شراب مخدر ولم يعرفوا التدخين إلا بعد أن علمهم إياه الأوروبيون.

وكانت القوارب ضرورية كوسيلة للصيد وللانتقال على السواء، وكانت كلها من النوع المحفور (dug- out) وكذلك كانت – مثل قوارب سائر سكان أمريكا الأصليين– خالية من الحافة الوسطى (السفلى) (without keels)، وكان بعض الوطنيين يستعملون في الأنهار نوعاً بدائي الصنع من القوارب مصنوعاً من خشب التفاح المر (-cotton

wood) نهايتها مستديرتان وجانباه من مقدمة إلى مؤخرة مستويا السطح. أما القوارب التي كانت تستعمل في البحر فكانت تصنع من خشب الشربين لا من خشب التفاح المر، وكانت أكثر اتساعاً وأحسن صنعة من القوارب النهرية، ولكن كان فيها عيب واحد هو أن خشب الشربين كان سهل الانفلاق تحت تأثير ضربات الأمواج المستمرة، وكان القارب لهذا السبب عرضة للغرق إذ تسرب الماء إليه.

وقوارب الهنود ذات أحجام مختلفة، فبينما نجد بعضها لا يتسع لأكثر من شخصين نجد البعض الآخر يتسع لأربعين أو خمسين شخصاً ويصل طوله إلى ستين أو سبعين قدماً وعرضه إلى سبعة أقدام أو ثمانية؛ وكانت القوارب الصغيرة تستعمل في الصيد، والكبيرة في السفر وفي التجارة والحرب؛ وكان هناك أيضاً تنوع كبير في الشكل، فقوارب الشعوب الشمالية كانت ذات قاع مقوس وكانت تنحني انحناء خفيفاً إلى أعلى وإلى أمام في الجانبين ويف المقدمة، بينما قوارب النوتكا وغيرهم من شعوب الجنوب كانت ذات قاع مسطح ومقدم عال مدبب ومؤخر منخفض يكاد يكون عمودياً. وكان النوتكا والهايدا أمهر الهنود الساحليين في صناعة القوارب، وكان جيرانهم جميعاً يعتمدون عليهم في صنع قواربهم الكبيرة، وكانت قواربهم خفيفة تصلح للملاحة في البحار حتى أن النوتكا كثيراً ما كانوا يخرجون بها بعيداً عن مرمى البصر في البحار ذات الأمواج العالية غرب جزيرة فانكوفر، وكان الهايدا يصلون بها إلى فكتوريا وهي مسافة تبلغ ثلثمائة ميل. وكانت هذه القوارب تسير بالمجداف والشراع، ......



(شكل ٢٩) زورق مثالي من زوارق قبائل السالش

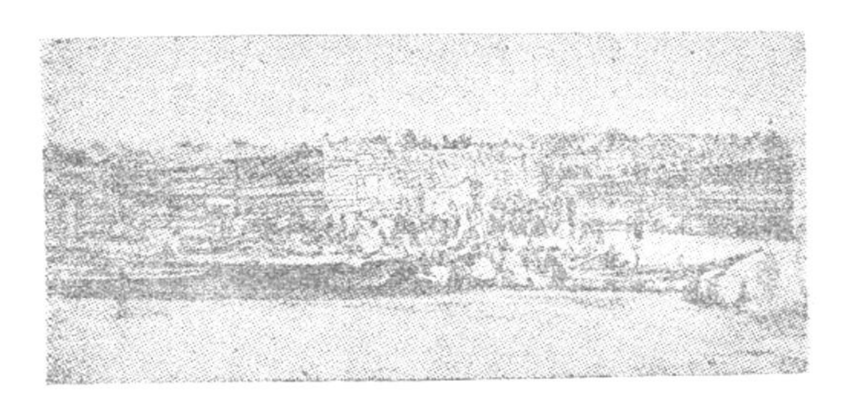
..... ولو أنه من المحتمل أن الشراع لم يعرف قبل عصر التبادل التجاري. وهذا هو الإقليم الوحيد في غرب أمريكا الذي استعمل فيه الوطنيون الشراع في تسيير قواربهم، وكان الشراع يتخذ من نسيج من لحاء الشجر أو من ألواح رقيقة من الخشب تثبت في ساريات تغرس في عوارض القارب. وكانت المجاديف كلها ذات حد واحد لكنها كانت تختلف من مكان لآخر في شكلها وفي المادة المصنوعة منها، وكان الرجال الذين يجدفون ينحنون ليستطيعوا التجديف، على أنهم كانوا في الزمن القديم يجدفون القوارب الكبيرة وهم وقوف.

ولم تكن جذوع أشجار الشربين الضخمة التي تصلح للتجويف إلى قوارب كبيرة توجد إلا في قليل من الأماكن، ولذا كانت هذه الجذوع، كما كانت القوارب الكبيرة المصنوعة منها، مادة تجارية يتبادلونها إلى مسافات بعيدة. وكانت الأشجار الضخمة تقطع عادة بالطريقة الآتية:

يحفر حول الجذع أخدودان بينهما مسافة تبلغ نحو تسع بوصات، وذلك بواسطة إزميل ومطرقة من الحجر، وبعد ذلك ينحت الجزء الذي بين هذين الأخدودين، وكلما تقدمت هذه العملية يزيد الأخدودان اتساعاً إلى أن ينتهي الأمر بانهيار الشجرة الضخمة. وبعد ذلك يفصل الجزء الذي يصلح لعمل القارب بنفس الطريقة، أو يفصل بطريقة الحرق، ثم تشق الكتلة الناتجة نصفين بواسطة الخوابير، ويؤخذ النصف الذي سيجوف إلى قارب ويشكل بواسطة النار. وكذلك كانوا يستخدمون النار لتساعد في أعمال التجديف التي يستخدمون فيها أزاميل من قرون الأيل ومطارق من الحجر. على أنهم كانوا يستخدمون القدوم في المرحلة النهائية، وهي أداة صارت بعد دخول الأوروبيون تصنع من الصلب، ولكن هذه لم تكن تختلف في شكلها عن الأداة الحجرية التي حلت محلها. وكان سمك الهيكل الخارجي للقارب يختلف باختلاف حجمه، فكان سمك أكبرها يبلغ نحو بوصتين، وكان لصانع القوارب مهارة في تقدير هذا السمك إذ يضع أصابع إحدى اليدين في جانب من الخشبة وأطراف أصابع اليد الأخرى في الجانب المقابل، حتى إذا ما أصبح الخشب رقيقاً إلى الدرجة المطلوبة ملئ جرم القارب بالماء ثم رفعت حرارته إلى درجة الغليان بواسطة إسقاط الحجارة المحمية فيه، بينما يقام حول القارب وقاء من الحصير ليمنع عنه التيارات الباردة، إذا أن هبة واحدة من الهواء البارد قد تسبب انفلاق القارب. وبعد ذلك يعمدون إلى الهيكل الذي أصبح لينا فيدعمونه بعارضات متدرجة في الطول، وبهذه الطريقة كان من السهل عليهم أن يصنعوا من كتلة الخشب التي

يبلغ طولها ثلاثة أقدام قارباً عرضة قدمان. وعندما كان عرض القارب يصل إلى المدى المطلوب كانوا يثبتون فيه العوارض بواسطة خوابير خشبية، فإذا ما برد هيكل القارب صارت جوانبه صلبة وصار من السهل احتفاظها بشكلها الذي بردت عليه. أما مقدم القارب ومؤخره فكانا يصنعان على حدة، ثم يثبتان فيه مسامير خشبية أو يشدان إليه بحبال مجدولة من ألياف خشب القريص تمر خلال خروق يحدثونها بمخارز من الخشب. وفي النهاية يطلى القارب كله صلاء غاية في الاتقان، ثم تنقش عليه شارة مالكه.

وكان هنود السواحل يسكنون طول العام في قرى دائمة تقع قرب البحر، ويفضلون مصب النهر الذي يكثر به السلمن أو الخلجان التي ترتادها ثدييات مائية، على أن تكون بالطبع قريبة من مورد الماء العذب الذي يحتاجون إليه في شربهم. وكانت القرية تتكون من بضعة مساكن خشبية كبيرة تختلف اختلافاً كبيراً عن كل ما كان يشيده سكان سائر ...



(شكل ٣٠) مساكن الألواح الخشبية عند السالش بمنطقة فكتوريا بكولمبيا البريطانية

.... أجزاء أمريكا الشمالية. وكانت المنازل- وهي نشيد دائمًا مواجهة للبحر على ارتفاع قليل من حد المد العالي- تختلف في شكلها عند الجماعات المختلفة، ولكنها كانت جميعاً تتشابه في كبر حجمها وفي اتساعها لسكني عدة عائلات وفي تشييدها من خشب الشربين ويف نكوينها من هيكل ثقيل ولكنه متين، وفي أنهم يكسونها بطبقة خارجية من الألواح يمكن نزعها. وكان هناك نوعان من المساكن: نوع ذو سقف محبوك وهو السائد عند قبائل الجنوب، ونوع ذو سقف (جملون) وهو السائد عند القبائل الشمالية. وكانت مساكن السالش وبعض النوتكا ذات قاعدة مستطيلة الشكل وذات سقوف منحدرة انحداراً قليلاً، وكانت غالباً عظيمة الاتساع إذ كان بعضها يصل طوله إلى بضع مئات من الأقدام ويبلغ عرضه أربعين أو خمسين قدماً ويقطنه عدد كبير من العائلات. وكان هيكل المنزل يتكون من صفين متوازيين من الأعمدة الضخمة من خشب الشربين يبلغ ارتفاع الواحد منها خمسة عشر إلى عشرين قدماً، تثبت في أطرافها العليا عوارض غليظة هي التي تستقر عليها ألواح السقف؛ وكانت الحوائط تتكون من ألواح مماثلة توضع أفقياً بعضها فوق بعض وطرف كل منها يركب طرف الذي تحته، كما هي الحال في ألواح السقوف التي تصنع لاتقاء المطر. وهذه الألواح الضخمة التي كانت تصنع منها السقوف والحيطان كان عرضها يصل إلى قدمين أو ثلاثة أقدام وبضع بوصات وكانوا يتركون في واجهة البيت فتحة بين الألواح هي مدخل البيت، كما كانوا يتركون فتحات أخرى بين الألواح بغير نظام، هي بمثابة نوافذ، ويمكن سدها بالحصير اتقاء للمطر.

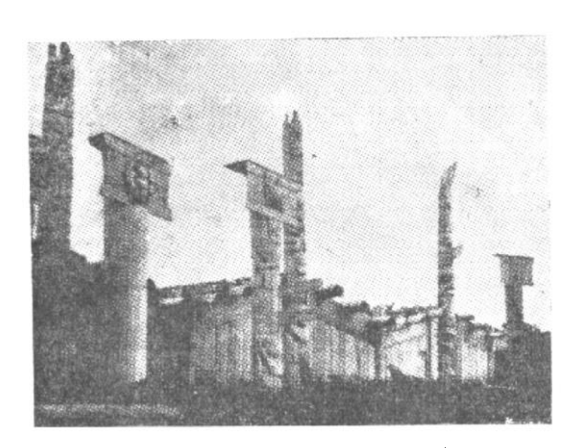
وكانوا يقيمون بجوار الحوائط نوعاً من المصاطب الخشبية ينام عليها السكان فوق فرش من طبقات حصير الحلفا مثنى طرف إحداها لتؤدي عمل الوسادة. أما أغطية الفراش فكانت بطاطين مصنوعة من شعر الكلاب أو الماعز أو من جلود الحيوان. وكانوا يحفظون تحت المصاطب خزين الشتاء من الجذور وخشب الوقود، بينما تكوم اللحوم المجففة والأسماك والفواكه على أرفف تتدلى من عوارض السقف.

وكانت المجموعات العائلية التي تحتل أركان المسكن المختلفة يفصلها بعضها عن بعض حواجز مؤقتة من الستائر مدلاة من السقف ومصنوعة من قصب الغاب أو من عشب المستنقعات؛ وكان في وسط المسكن ممر عريض يصل من أحد طرفيه إلى الآخر ويفصل بين المجموعتين من العائلات، وفي هذا الممر كانت تقوم كوانين النار كل واحد منها مشترك بين العائلتين القاطنتين على جانبيه. وكان من الممكن إزالة الحواجز وبذا يصبح لديهم بهو واسع. وفي فصل الشتاء كانت جميع الحيطان الداخلية عادة تغطي بالحصير.

وكانت منازل الجماعات الجنوبية ذات قاعدة أقرب إلى الشكل المربع منها إلى المستطيل، ولم تكن في اتساعها تقارب بعض منازل السالش salish، فمنازل الكواكيوتل Kwakiutl مثلاً كانت عادة تؤوى أربع عائلات كل واحد منها في ركن منه، وكانت منازل الهايدا– وهي عادة جيدة البناء– تبلغ أربعين قدماً في ثلاثين، ذات سقف منخفض منحدر من علو عشرة أقدام عند الواجهة إلى علو ستة أقدام عند

المؤخرة؛ وكان الجزء الأساسي من هيكل المنزل يتكون من ستة إلى عشرة أعمدة خشبية غليظة تدق في الأرض إلى عمق كبير، ترتكز عليها كمرات وعروق متينة وتسقف بألواح من الخشب أو بلحاء الشجر، وكذلك كانت الحيطان تتكون من ألواح توضع وضعاً عمودياً. وكان أوضح ما يمتاز به المنزل عمود الطوطم الذي كان يقوم أمام البيت وارتفاعه من ستين إلى ثمانين قدماً. وكانت هذه الأعمدة تنقش نقشاً جميلاً ويرسم عليها رمز الطوطم الخاص بصاحب المنزل وزوجته، بينما كان الداخل إلى المنزل يمر في الغالب خلال فم مفغور لحيوان خرافي هائل محفور في أسفل العمود. كذلك كان لمنازل التلنكت Tlinkit والتسمشيان Tsimshian أعمدة طوطمية، وكان ينقش على واجهاتها رسوم ضخمة أو رموز، كما كانت تبنى بها مصاطب النوم بطول الحيطان الجانبية والخلفية وتغطى أرضها بالحصير.

ولم تكن المنازل تحوي غير قليل جداً من الأثاث، فيما عدا الصناديق المصنوعة من خشب الشربين والأدوات المنزلية المعتادة كأدوات الطبخ وحجارة الطبخ وماشات النار والصحون والقصع والمغارف والحصير.



(شكل ٣١) قرية من قرى ال"هيدا"

وكان وجود خشب الشربين بكثرة من العوامل التي جعلت إقامة مثل هذه المنازل الكبيرة أمراً ممكناً، فإن الشربين متين وفي نفس الوقت لين سهل القطع والتشكيل، بينما جذوعه الضخمة كان من السهل شقها بدق أسافين من العظم أو من قرون الحيوان على طول عروقها المستقيمة، ومع ذلك فإن بناء البيت وإقامة عمود الطوطم الشاهق كانا يستدعيان قدراً هائلاً من الجهد ومن المهارة، فإن الوطنيين لم تكن لديهم عدد حتى ولا مجرد بكرة، ولذا كان هذا يستدعى تعاون عدد كبير من الرجال يدفع لهم أجر ويقدم لهم الطعام.

وكان سكان هذه القرى عادة يهجرونها في فصل الصيف إلى مختلف مناطق الصيد والجمع حيث كانوا يقيمون في مساكن مؤقتة، وكانوا في الغالب ينزعون الألواح من مساكنهم الدائمة ويحملونها معهم في قواربهم ليستعملوها في تسقيف مساكنهم المؤقتة.

ولم يكن الهنود سكان الساحل الشمالي الغربي لأمريكا يعرفون صناعة الفخار، ولكنهم كانوا يصنعون سلالاً رائعة متنوعة الأشكال أغلبها محكم لا ينفذ منه الماء، كانوا يصنعونها من لحاء شجر الشربين ومن جذور أنواع عديدة من النباتات والأشجار يجدلونها صحيحة أو ملفوقة. وكانت السلال غالباً تزين بخطوط أو أشكال زخرفية باللونين الأحمر والأسود. وأبدع تلك السلال ما كان يصنعه التلنكت Tlinkit والسالش Salish. وكانت الصحاف والمغارف والملاعق تصنع من القرون وتشكل بالحفر أو بالبخار. وكانت بعض المغارف التي يستعملها الهايدا في احتفالاتهم تتسع لنصف جالون.

على أن معظم الأدوات والأوعية كانت تصنع من الخشب؛ وكان الرجال يصنعون من خشب الحور قصعاً وصحافاً وصحوناً ذات أشكال وأحجام مختلفة يشكلونها باستعمال سكاكين من الحجر، ويصقلونها بقطع من جلد كلب البحر؛ كما كانوا يصنعون أواني الطبخ الكبيرة وصناديق التخزين من خشب الشربين، وكانت جوانب هذه الصناديق تصنع من لوح طوله مساو لطول محيط قاعدة الصندوق المطلوب، يحفرون فيه حزوزاً (أخاديد) على جانبه الداخلي في الأماكن التي ستكون فيها أركان الصندوق، وبعد أن يعرضوا هذا اللوح للبخار يثنونه ليعطوه الشكل الذي يريدون. ثم يثبت الطرفان الملتقيان بخوابير من الخشب أو بأربطة مجدولة من ألياف جذور شجر التنوب تمر في خروم سبق إحداثها، ويف النهاية يخفون تلك الأربطة بطريقة فنية. ثم يأخذون تلك الجوانب ويثبتونهها إلى القاعدة بنفس الطريقة.

وكانوا يحفرون على معظم الأدوات الخشبية– فيما عدا المعدة منها للأغراض غير الهامة– أشكالاً بارزة تمثل الطابع الفني الخاص بالإقليم، كما كانوا يشكلون بالحفر أقنعة الاحتفالات وهي تمثل حيوانات أو أسماكاً أو كائنات خرافية. وكانت بعض هذه الكائنات ذات فكين يتحركان أو عينين تدوران بواسطة تركيبات آلية خفية. وخلاصة القول أن أولئك الهنود برعوا في الحفر على الخشب بالرغم من أدواتهم البدائية.

وكان الهنود يستعملون في صنع المنسوجات جذور التنوب واللحاء الخارجي لشجر الشربين، وكانوا ينقعونها في الماء ثم يضربونها بالعصى كي تنفصل أليافها، وبعد ذلك يفتلونها خيوطاً ببرمها بين اليد والفخذ. وكانوا يصنعون عدا الحصير، نسيجاً من ألياف نباتية على إطار بسيط الصنع تتدلى فيه خيوط السدى من خشبة أفقية، ولم يكونوا يستعملون المكوك في هذا النسيج، بل كانوا يمررون بأصابعهم خيوط اللحمة من فوق خيوط السدى ومن تحتها. وهذا النوع من النسيج أقرب إلى صناعة الحصير، كما أن الإطار المستعمل فيه لا يمكن أن يسمى نولاً.

وكانت شعوب الشمال تستعمل صوف الماعز الجبلية البرية في صنع الأغطية، ولكنهم لقلته كانوا يضيقون إليه لحاء شجر الشربين، وفي الحالات النادرة كانوا يضيفون أيضاً سيوراً من جلد القندس البحري. وطانت بساطة هذا العمل الذي كانت الخيوط فيه تتحرك بواسطة الأصابع– النسيج بساطة هذا العمل الذي كانت الخيوط فيه تتحرك بواسطة الأصابع– النسيج بالأصابع– مما ساعدهم على عمل أشكال

مختلفة منه، كانت في الأيام الخوالي أشكالاً هندسية؛ ولكن في السنوات الأخيرة استطاعت النساء أن يرسمن على منسوجاتهن الزخارف التي ينتجها الرجال بالتلوين وبالحفر. وقد أنتج التلنكت Tlinkit تلك الأحرمة البديعة المسماة شلكات Chilkat التي انتشرت تجارتها في جميع المناطق الساحلية، وكان نسج تلك الأحرمة يستلزم كثيراً من الجهد ومن الوقت، ولذلك لم يكن في مقدور غير الأثرياء أن يحصلوا عليها، وهؤلاء لم يكونوا يستعملونها إلا في المناسبات.

وكان السالش Salish– ولا سيما القاطنون منهم في الأجزاء الدنيا من وادي نهر فريز– ينتجون أنواعاً من الأحرمة أقل جودة، وذلك بخلط صوف الأغنام بشعر الكلاب. وكان عندهم نوع من الكلاب صغير الجسم أبيض اللون كثيف الشعر يربونه من أجل شعره، ولكن مقدار الشعر الذي يأخذونه منه كان محدوداً. أما الإطار الذي كانوا يستعملونه في النسيج فكان أرقى من ذلك الذي كان معروفاً عند الشعوب الشمالية، وكان يتركب من خشبتين أفقيتين متوازيتين بينهما أخريان رأسيتان متوازيتان، وسداة تمر حولها جميعاً.

وكما أنه كان لمساكن هؤلاء الناس طابع خاص، كذلك كانت ملابسهم، فلم يحاولوا أن يصنعوا ملابس محبوكة على أجسامهم، ومع أن الحصول على جلود الحيوان كان ميسوراً لا أنهم لم يصنعوا منها قمصاً ولا سراويل كما كان هنود السهول يفعلون، ولم يكونوا يفصلون من الفراء كلابس كما كان الإسكيمو يفعلون. وكانوا جميعاً– فيما عدا

القليلين الذين اختلطوا بالقبائل الداخلية وتعلموا منهم لبس الأحذية– يسيرون حفاة، كما كانوا جميعاً في العادة يسيرون عراة الرأس كذلك، ولو أنهم كانوا أحياناً يضعون على رؤوسهم لباساً مخروطي الشكل منسوجاً من لحاء شجر الشربين أو جذور التنوب عليه زخارف من رسوم أسماك وحيوانات.

وكانوا يلبسون من الملابس أقل مما كان يلبس معظم هنود كندا، وربما كان هذا راجعاً إلى أن مناخ بلادهم أكثر اعتدالاً، ففي الصيف لم يكن رجال بعض الجماعات يلبسون ملابس على الإطلاق. وكانت هذه الجماعات مضطرة كسائر الهنود إلى استعمال الجلود بسبب قلة الأصواف، أو استعمال نسيج مصنوع من ألياف نباتية. وكان الرجال يسترون أنفسهم بإزار يتخذ في العادة من جلد الغزال، بينما تلبس النساء مآزر من ألياف الأشجار تتدلى من الوسط إلى الركبتين، وفوقه الكتف الأيمن ولها حزام حول الوسط. أما عباءة الرجال فكانت تصل إلى الركبتين من الأمام وتتدلى أكثر من ذلك قليلاً من الخلف، بينما عباءة النساء كانت تصل إلى العقبين. وكان الرجال النساء جميعًا يستعملون في الجو المطير أو حين السفر بحراً عباءة ضد المطر مصنوعة من نسيج من الألياف. وكانوا حين يشتد البرد يضعون على أكتافهم أحرمة من لحاء شجر الشربين أو ثياباً طويلة من الفراء، وكذلك كانوا يلبسون ضرباً من الكفوف (قفاز بلا أصابع).

وكان الرجال والنساء على السواء يثقبون الحاجز الأنفي ويلبسون

فيه أدوات الزينة، وكذلك كانوا يثقبون آذانهم ويلبسون فيها أقراطاً من الأصداف أو من العظام. وكان كثير من نساء الطبقة الراقية يثقبن شفاههن الفلي ويضعن فيها سلاية مستطيلة من الخشب على سبيل الزينة. وكانت عادة الوشم بالفحم على سمانة الرجل وعلى الساعدين والصدر أكثر ذيوعاً في الشمال منها في الجنوب، ولكن نقش الصور على الجسم في الاحتفالات باللون الأزرق والأسود والأحمر كان شائعاً في كل مكان. وفي مثل هذه الاحتفالات كانت هناك وسائل أخرى للتجمل، منها ما يلبسه الشلكات Chilkat من الأحرمة ومن العمائم المصنوعة من خشب الشربين والمزينة ببقع حمراء، ومن السراويل المصنوعة من جلود الغزال تزينها مناقير نوع من الطيور المائية تخشخش كلما تحرك لابسها. ومنها كذلك ما يلبسه الهايدا والتسمشيان من جلد القاقوم الأبيض الذي يتدلى على شكل ذؤابة طويلة تتصل بغطاء عال للرأس أسطواني الشكل.

وقد عثر في إقليم الشلكات في الشمال على قطع من النحاس الأحمر الصافي، وهذا النحاس المحلي كانوا يشكلونه بالطرق إلى أدوات مختلفة كالسكاكين وأدوات الزينة. على أن معظم هذا المعدن كان يستعمل في صنع ما يسمونه "نحاس الاحتفال" وهو درع رقيقة طولها قدمان أو أكثر في أسفلها ضلع على شكل حرف أن وفي جزئها الأعلى صور محفورة أو منقوشة. وكان هذا "النحاس" متاعاً ذا قيمة عظيمة، وهو أثمن ما يعتز به أثرياء الزعماء.



(شكل ٣٢) هندي من "التسمشيان" متلفح بإزار "الشلكات"

والفن عند أهل السواحل الشمالية الغربية– وهو فن يكاد يكون زخرفياً محضاً– فن ممتاز، وهو من أحسن ما أنتجه هنود أمريكا الشمالية. ويكاد الإنسان يجده في كل شيء؛ فهو يرسم على الوجه، أو يوشم على الجسم، أو يدخل في النسيج، أو يحفر على الأواني المنزلية أو على الأدوات النحاسية، أو يرسم على القوارب والمنازل والأعمدة الطوطمية. وكان الأسلوب الفني يختلف من جهة لأخرى، ولكن الاختلاف كان يسيراً. وكان الفن جميعه وليد البيئة إلى أقصى حد، كما كان رمزياً إلى أقصى حد كذلك. وكانت أشكال الحيوانات التي يزينون بها رءوس الأعمدة الطوطمية، وكذلك الكائنات الأسطورية التي لها صفات الحيوانات، ترسم محرفة الأشكال إلى حد يجعل من العسير على غير المسلم بهذه الفنون أن يميز الحيوان الذي ترمز إليه. ولم يكن في

مقدور الفنانين أن يكونوا واقعيين، إذ كان عليهم أن يلائموا بين جسم الحيوان وبين السطوح المختلفة التي كان يتناولها التبادل التجاري في هذا الإقليم. والواقع أن هنود السواحل الشمالية الغربية كانوا أعظم التجار في أمريكا الشمالية قبل مجيء المستعمرين الأوروبيين. على أن التجارة بين أفراد الجماعة الواحدة كانت قليلة، ولو أن الواحد منهم ربما باع لجاره عبداً أو قارباً؛ لكن التبادل كان كبيراً بين الجماعات المختلفة التي تقطن على طول الساحل، وكذلك بينها وبين سكان المناطق الداخلية. وكان من نتيجة هذه المتاجرة أن نشأت لغة تجارية خاصة تتركب من نحو مائتين أو ثلثمائة من الكلمات من لغة الشنوك، وهي قبيلة كانت تعيش عند مصب نهر كولمبيا، ومن بضع كلمات من لغة السالش والنوتكا. وكانت الأدوات الصدفية تصدر من بلاد السالش إلى الشمال، كما كان النحاس يرسل من إقليم التلنكت إلى الجنوب، ولكن الأدوات الصدفية كانت أيضاً تسير صعداً في الأنهار أو تعبر جبال النوتكا إلى الأقاليم الداخلية. وكان الزيت المأخوذ من "سمك القنديل" يرسل من نهر ناص إلى الهايدا وإلى غيرهم من الشعوب الساحلية، كما كان يرسل إلى الداخل على طول ما يسمى "طريق الدهن" (Grease Trail). وكانت أحرمة الشلكات ترسل من جنوب شرق ألاسكا على طول الساحل حتى جزيرة فانكوفر، بينما كانت أسنان سمك القرش ترسل شمالاً، وكانت الفراء تصدرها القبائل الداخلية إلى الساحل وإلى الجزر القريبة منه. وكان التبادل في الزمن القديم يحدث عن طريق المقايضة، ولكن بمرور الزمن صارت جلود القندس البحري وحدة قيمية، وكذلك

صارت الأحرمة بعد ما بدأ التبادل مع الأوروبيين. وكان بعض أولئك الهنود تجاراً ماهرين، وربما كان أمهرهم جميعاً في ذلك التسمشيان Tsimshian الذين كانوا يفحصون كل سلعة فحصاً دقيقاً، وكانوا يخفضون سعر السلعة إذا كان بها عيب بسيط.

وكانت العائلة بين هنود السواحل في كولمبيا البريطانية محدودة العدد، شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب البدائية التي تعيش على القنص، لأن الأم كانت ترضع وليدها عامين أو أكثر حتى يصبح في مقدوره مضغ اللحوم والأسماك وهي مادة غذائهم الأساسية. وكان الطفل يغسل بمجرد ولادته ويلف في قماط من اللحاء الداخلي لشجر الشربين بعد أن يضرب ليصير ناعماً رقيقاً، وبعد ذلك يوضع في مهد يقضي فيه كل عامه الأول تقريباً، فلا يرفع منه إلا مرة أو مرتين كل يوم للاستحمام. وكان من عادة القبائل الجنوبية بعد أن تنقضي بضعة أيام على ولادة الطفل أن يضيفوا إلى مهده مخدة صغيرة، يضعونها بحيث يعمل ضغطها على فلطحة رأس الطفل بالتدريج، إذ كان الجبين المفلطح عندهم آية من آيات الجمال.

وإذا لزم حمل الطفل حملته أمه في مهده فوق ظهرها أو فوق خربتها، فإذا كان لديها عمل يشغلها علقت المهد في عمود طرفه العلوي الرفيع منحن قليلاً وطرفه الغليظ مثبت في الأرض، وبهذه الطريقة يتحرك المهد حركة خفيفة إلى أعلى وإلى أسفل عند حركة يأتيها الطفل. وتختلف المهاد في شكلها، ولكنها في العادة على شكل تابوت الميت،

وتصنع من خشب الشربين أو تجدل من جذوره، وبعضها له سقيفة متحركة.

ولم يكن الأطفال يلبسون من الملابس إلا النزر اليسير، إلا في الأوقات التي يشتد فيها الزمهرير، وهم يتمتعون بنصيب من الحرية أكثر كثيراً مما يتمتع به الأطفال الأوروبيون، ويقضون معظم وقتهم في الهواء الطلق. وأول حدث هام في حياة الطفل هو ثقب أذنيه ليلبس فيهما الحلي، ويقوم بهذه العملية عادة أحد رجال الطب (Shaman) ويستعمل لهذا الغرض قطعة من العظم رفيعة الطرف؛ ومن عادة بعض الجماعات إقامة وليمة كبيرة لهذه المناسبة إذا كان الطفل من أبناء الطبقة الراقية. وثاني حدث هام في حياة الطفل هو يوم تسميته، وهو حدث يحل في موعد من عمر الطفل يختلف من جماعة لأخرى. ويلعب الصبيان والبنات معاً ويعيشون معاً إلى سن العاشرة أو الحادية عشرة، ولا يتلقون نوعاً خاصاً من التعليم، لكنهم يعرفون في النهاية كثيراً عن طريق تقليد آبائهم. وكلما تقدمت السن بالطفل مر بأنواع مختلفة من الترويض الغرض الأول منها تمرين الجسم على الخشونة وتعويد صاحبه تحمل التعب والحرمان؛ فالصبيان مثلاً يرغمون على الاستحمام بالماء البارد في الصيف والشتاء على السواء، وعند خروجهم من الماء يلهبون بسياط من أغصان شجر الشربين، ولكن لم تتخذ مع البنات مثل هذه الإجراءات الترويضية.

وكان لبلوغ الحدث عند هؤلاء الناس سن الحلم أهمية خاصة، ومع

أنهم لم يكونوا يقيمون لهذه المناسبة الاحتفالات الكبيرة التي عرفت عن غيرهم من الشعوب البدائية، إلا أنهم كانوا يفرضون نوعاً من العزلة في هذه السن، فكانت البنت من بنات الهايدا تعزل وراء ستر في منزلها نحو شهر، بينما كانت فترة العزلة عند بعض الجماعات الأخرى تمتد إلى يوم الزفاف. وكان البلوغ يغير من حياة البنت تغييراً تاماً، فهي لا تستطيع بعده أن تلعب مع الصبيان، ويبدأ أهلها في تلقينها واجبات النساء. أما الولد فإنه كان عند بلوغ الحلم يدخل في مصاف الرجال، ويحصل على الروح أو الأرواح التي تتولى رعايته، ويسمح له بالانضمام إلى بعض الجمعيات الدينية السرية.

وعادة حصول الشاب علىا روح تحميه- وهي العادة المنتشرة بين الهنود- كانت أكثر شيوعاً في جنوب هذا الإقليم منها في شماله، ولكن الصبي عند الكواكيوتل لم يكن له أن يتخير إلى إحدى الأرواح المتوارثة في الجماعة التي ينتمي إليها ومن المحتمل أن تكون الجمعيات السرية قد نشأت في الأصل بين هذه القبيلة، وكان الانضمام إليها مباحاً للرجال والنساء بعدد تأدية طقوس ترويضية شاقة وطويلة تضمن لهم الرضاء والرعاية من لدن قوى خارقة خاصة تتولى حمياتهم. وكان لهذه الجمعيات بين الكواكيوتل من النفوذ ما جعلها تحل محل المنظمات الجماعية أثناء شهور الشتاء حين يعيش الناس معاً في القرى ويكثرون من إقامة الولائم والمهرجانات. وكانت الجمعيات السرية منتشرة في الشمال والجنوب على السواء، ولكن نفوذها كان أقل، فلم يكن زعماء الهايدا مثلاً ليسمحوا لها أن تشاركهن السلطان.

ويبدأ تفكير الشاب في الزواج عند بلوغه سن العشرين، ولكن البنات كن يفعلن ذلك في سن عشرة، ولو أنهم كن يخطبن منذ صغرهن. ولم يكن الزواج على أي حال يقترن بشيء من العواطف لأن الآباء، وهم الذين يفصلون عادة في هذه الموضوعات، كانوا يهتمون بالجاه والنفوذ أو الشجاعة والمهارة أكثر من اهتمامهم بعواطف الشباب الذي يعنيه الأمر. ثم إن هناك– كما هي الحال عند الأستراليين الأصليين– قواعد أخرى تجب مراعاتها، ولو أنها لا تدانيها في التعقيد؛ وكان الزواج عند هنود سواحل الباسفيك عبارة عن مبادلة مصحوبة باحتفال:

"شتري الزوج زوجته ومعها بعض امتيازاتها الخاصة في سلسلة من الاحتفالات، ويقوم أهل الزوجة برد ثمنها في السنوات التالية بطريقة مماثلة، مع إضافة أرباح عن كل طفل يكون ثمرة هذا الزواج. وتستطيع الزوجة نظرياً أن تفسخ العقد بعد أن يرد أهلها جميع ثمنها، لكن الذي يحدث فعلاً هو أن الزوج يجدد العقد بتوزيع الهدايا على أهل زوجته"[٦].

وكان تعدد الزوجات نادراً، لكنه كان مباحاً للرجال من الطبقة الراقية. وبعد الزواج يقوم الرجل بالأعمال الشاقة الخطرة كالقنص والصيد وقطع الأشجار وتشييد المسكن وبناء القوارب وعمل الأدوات المنزلية والأطباق والصحاف والصناديق الخشبية. أما الزوجة فعليها نقل الصيد من مكان صيده وجمع الثمار البرية والأعشاب البحرية وسمك المحار، كما عليها تجهيز الطعام وطبخه أو حفظه ودبغ الجلود ونسج القماش

---

(٦) هنود كندا– تأليف د. جنس ,D. Jenness.

وعمل الملابس والسلال وغير ذلك من الواجبات المنزلية.

على أن الحياة لم تكن كلها عملاً متواصلاً، بل كانت لديهم فرص عديدة للهو والرقص، وكان بعض لهوهم مقصوراً على الرجال وبعضه على النساء وأقله كان يشترك فيه الجنسان. وأشهر أنواع اللهو لدى الرجال المباريات الرياضية كالمصارعة والجري والقفز، ولكنهم كانوا يلعبون كذلك بعض ألعاب الكرة. وأحب الألعاب إلى الرجال والنساء هي ألعاب الحظ، وكانوا يقضون كثيراً من وقتهم في المقامرة، ومن ألعاب الحظ المحببة إليهم لعبة يتخذون فيها من أسنان القندس "زهراً" منقوشاً ومنحوتاً بطرق مختلفة، ويستعملون لتسجيل النتائج قطعاً صغيرة من العصى. وكذلك عندهم ألعاب شتى من ألعاب الحدس يلعبونها بالمراهنة.

على أن أشهر ألعابهم ما كان متعلقاً بالقوى الخارقة التي يعتقدون فيها وكانوا يقضون كثيراً من أوقات الفراغ أثناء الشتاء في حفلات راقصة. ويتغاضى بعض القبائل في أثناء الحفلات عن نظام الطبقات الاجتماعية ويحل محله نظام الطبقات في الجمعيات السرية. وكانت تلك الحفلات والرقص الذي يتخللها مطولة وكثيرة التعقيد، يستعمل المشتركون فيها أنواعاً مختلفة من الأقنعة ووسائل التنكر، ويعتقدون أن الأرواح أيضاً تشترك فيها، ويضبط الإيقاع أثناء الرقص والغناء بالضرب على ألواح الخشب أو بآلات موسيقية، منها أنواع مختلفة مصنوعة من ألغاب كانوا يستعملونها لتقليد الضوضاء التي تحدثها الأرواح، ومنها

شخاشيخ من الخشب ومن الحجر.

وتتكون المحلة التي يقطنونها من عدد من المساكن، كل واحد منها يضم عدداً من العائلات تنتسب إلى جد واحد وتضم معهم أتباعهم، وقد يقطنون واحداً أو أكثر من هذه المساكن الجماعية. وهم عادة من ذوي القربى يشتركون في الانتساب إلى جد واحد وفي علامة النسب الخاصة بهم، ويتمتعون في القرى الأخرى بامتيازاتهم الاجتماعية وغيرها.

وهنود سواحل كولمبيا البريطانية أبعد ما يكونون عن الديمقراطية، إذ يتكون المجتمع عندهم من طبقات ثلاث: النبلاء والعامة والرقيق. والعامة هم الذين يتكون منهم سواد الشعب، ويتكون الرقيق عادة من أسرى الحرب أو من أبنائهم، ولكن بعضهم قد يشتري بالمال. وهم على العموم يلقون معاملة حسنة، لكن ليس لهم حقوق من أي نوع، لأسيادهم الحرية في أن يفعلوا بهم ما يشاءون حتى القتل، كما كان يحدث أحياناً أثناء الاحتفالات. ولا يسمح للرقيق بالتزوج إلا من طبقتهم، وكذلك كان الأمر فيما يختص بالعامة، إذ لم يكن لهم نظرياً حق الزواج إلا من طبقتهم، لكن الحد الفاصل بين العامة والنبلاء لم يكن محدداً، وكان التزاوج يحدث بينهم أحياناً. ولا شك أن كثيرين من العامة هم من نسل الشبان أبناء النبلاء لكن من غير الطريق الشرعي، ثم أصبحوا فيما بعد عالة على أقاربهم الأغنياء إذ لم يرثوا مناطق يحق لهم الصيد والقنص فيها ولم تكن لهم امتيازات اجتماعية.

أما النبلاء أو الزعماء بالوراثة فكان لهم حق امتلاك مناطق للصيد

والقنص كما كان لهم حق احتكار نشيد خاص ورقصة خاصة وإقامة الحفلات والاشتراك فيها، ولبس قناع خاص، وأن تكون لهم شارة خاصة تميزهم يحفرونها على واجهة مسكنهم أو على الأعمدة الطوطمية الخاصة بهم أو على قواربهم وصناديقهم وغير ذلك.

ولكن النبلاء في المسكن لم يكونوا جميعاً في درجة واحدة، ويبدو أن أولئك الأقوام كان لديهم من الألقاب عدد يفوق عدد الرجال الذين يستحقونها، وكانت الطريقة الوحيدة للحصول على لقب أو للارتفاع درجة بين الناس بذل العطايا بسخاء في أثناء الاحتفالات، إذ أن الثروة هي الباب الذي يؤدي إلى الجاه وإلى المراتب العالية وكان الرجل منهم على استعداد لأن يكدح السنوات الطوال في سبيل الحصول على الفراء والجلود والرقيق والقوارب استعداداً لإقامة وليمة عظيمة تساعده على أن يرفع منزلته بضع درجات فوق منزلة منافسية.

ويرث منزلة الزعيم ومركزه عند قبائل الجنوب ابنه، أما عند القبائل الشمالية فكان ابن الأخ هو الوارث الطبيعي، وذلك تبعاً لطريقتهم الخاصة في حساب النسب، لكن لابد للوارث أن يقيم وليمة فاخرة يوزع فيها العطايا كي يضمن حقه في الميراث، فإذا عجزت موارده ضاع عليه اللقب. وعلى العكس من ذلك إذا استطاع أحد العامة أن يجمع ثروة كبيرة– وقد يكون هذا عن طريق تجارة الفراء مع الأوروبيين– فربما أقام وليمة فاخرة وحصل على لقب لم يستطع أهله الحصول عليه لعجزهم عن إقامة مثل هذه الوليمة وتوزيع العطايا. وكان الرجل الذي يحمل أعلى

الألقاب في المسكن يعتبر رئيساً له، فإذا كان مسكنه أهم المساكن في العشيرة أصبح هو زعيم العشيرة. على أن درجات الزعماء لم تكن ثابتة، لأن ضياع ثروة العائلة كان كفيلاً أن يذهب بمكانتها. وكان التنافس بين النبلاء في إقامة الولائم وتوزيع الهدايا لا ينتهي، وذلك لكي يزيدوا من أقدارهم. وكان زعيم العشيرة ذات المكانة الأولى في القرية يعتبر زعيماً للقرية كلها، فإذا كان لقريته المكانة الأولى بين سائر قرى المنطقة في القوة والنفوذ كان هو أهم رجل في المنطقة كلها.

وإذا اتحد بيتان أو أكثر تكونت منها العشيرة، وقد كانت في الأصل تقتصر على إقليم خاص. وكانت تتكون من العشائر بين قبائل الهايدا والتسمشيان والتلنكت في الإقليم الواقع شمال جزيرة فانكوفر مجموعات أكبر أو "أخويات"، وكانت العشيرة و"الأخوية" وحدات اجتماعية، ولم يكن توزيعها يتقيد بالتوزيع الجغرافي أو اللغوي، وكان الزواج بين شخصين من "الأخوية" الواحدة محرماً بصرف النظر عن الجماعة التي ينتميان إليها.

ولم يكن هؤلاء الهنود– على عكس الأستراليين الأصليين– يدعون الانتساب إلى الكائن الطوطمي الذي يتخدون منه شعاراً ينقشونه فوق أعمدتهم الطوطمية، سواءاً أكان ذلك الكائن هو النسر أو الذئب أو الغراب الأسحم. أما بين القبائل الجنوبية فإن الزواج يتوقف على درجة القرابة دون سواها، لا دخل في ذلك لوحدة القرية أو وحدة العشيرة.

وإذا مات رجل من السالش آلت ثروته من جميع الأنواع إلى أبنائه،

وعند النوتكا تؤول الثروة إلى أبنائه وأبناء أخواته، بينما تؤول ثروة المتوفي عند الكواكيوتل إلى زوج ابنته، وهذا يورثها لأبنائه. وهذه الطريقة الأخيرة تعرف باسم الوراثة عن طريق الأم، بينما طريقة السالش تعرف بطريقة الوراثة عن طريق الأب.

والثروة– وهي نقدر بجلود القندس أو بالأحرمة– لها تقدير خاص، ولكن يبدو أنها لا تجمع إلا لكي توزع، ويحدث التوزيع أثناء حفلة عظيمة هي عادةً– ولكن ليس دائماً– وليمة يصحبها رقص تنكري وتوزع فيها الهدايا على الضيوف. ومثل هذه الحفلات الفاخرة تقام في المناسبات السعيدة كمولد طفل أو بلوغ صبي أو وراثة لقب أو إتمام بناء منزل، كما كانت تقام أيضاً في مناسبة دفن قريب. وكانت الحفلات تكثر إقامتها في الشتاء عن أي فصل آخر من فصول السنة.

وعند وصول المدعوين إلى الوليمة يعلن عن قدومهم كل في دوره، ويجلس كل في مكان يراعي فيه مركزه مراعاة دقيقة. ويقوم على خدمة المدعوين أصغر الرجال والنساء من عشيرة صاحب الدعوة، وبعد الطعام يبدأ الرقص والتمثيل الذي تلبس له الأقنعة والملابس الفخمة؛ ثم يأتي في النهاية دور توزيع الهدايا. ويلاحظ أن تكون كل هدية متناسبة مع مركز المهدى إليه، وهي تشمل جلود أنواع مختلفة من الحيوان وأدوات منزلية، وكانت فيما مضى تشمل أحياناً القوارب والعبيد، وتشمل في وقتنا هذا الأحرمة والبنادق، وحتى أوراق النقد تدخل أحياناً ضمن الهدايا. على أن هذه العطايا لم تكن هدايا بالمعنى الصحيح، بل كانت في الواقع

سلفاً يجب ردها هي وفوائدها في حفلات مستقبلة، ومن يتأخر عن ذلك يعرض مركزه الاجتماعي للضياع. والديون التي تستحق بهذه الطريقة يرثها الأبناء بعد أبيهم، ولم يكن رد الديون وأرباحها بهذه الطريقة معروفاً عند الشعوب الشمالية، بل كانوا في الغالب يؤدون بدلها خدمة من الخدمات كالمعاونة في تشييد مسكن مثلاً.

وكان هناك تنافس شديد بين النبلاء- ولا سيما من قبيلة بلا كولا Bella Coola- في إقامة أروع الحفلات والحصول بذلك على أوسع صيت، وكثيراً ما كانوا يتلفون الأقوات والممتلكات- بما في ذلك العبيد أحياناً- لا لغرض سوى الاستزادة من ذيوع صيت صاحب الوليمة. ومما يروى أنه من خمسين سنة مضت "أقام أحد زعماء جزيرة فانكوفر وليمة رائعة دعا إليها نحو ٢٥٠٠ مدعو من مختلف القبائل، وظلوا في ضيافته أكثر من شهر، وقبل انصرافهم وزع عليهم كل ما ادخره في السنوات الخمس السابقة. وكانت نتيجة تلك الوليمة المتصلة أن ذاع صيت هذا الرجل في كل مكان وأصبح يعتبر من أكبر الزعماء"[٧].

ومع أن الغرض الأساسي لأي أسره من النبلاء كان جمع الطعام والممتلكات من أجل إقامة الحفلات، إلا أن هؤلاء الهنود ندر أن كانوا يسطون على القرى المجاورة. على أن النزاع بين النبلاء كان سهلاً نشوبه في أي لحظة، وكثيراً ما نشبت الحروب من أجل إهانة أو ضرر وقع

---

(٧) السكان الوطنيون في أمريكا الشمالية البريطانية تأليف س. هلتوت Hill- Tout, C., the Natives of North America.

بالفعل أو توهموا وقوعه، ولم تكن الحرب تنشب بين الجماعات المختلفة فحسب، بل كثيراً ما نشبت بين أعضاء الجماعة الواحدة، فقد كانت الحروب الداخلية في قبيلة النوتكا مثلاً أكثر من الحروب بينها وبين جيرانها من السالش والكوا كيوتل. وقد كان يحدث أحياناً أن يقلع أسطول كبير ليهاجم قرى على بعد خمسين ميلاً أو مائة ميل، لغرض واحد هو تدمير القرية، أما أعمال السلب والنهب فتأتي في المرتبة الثانية. وكل من يقع أسيراً يصبح عبداً رقيقاً، إلا من تدفع عنه فدية قبل انقضاء مدة معينة.

وأهم أسلحة الحرب عندهم الأقواس والحراب الثقيلة والهراوات، وفي بعض الجهات الخناجر، وهذه الأخيرة كانت شديدة الفتك على الأخص من مسافة قريبة، وكانت أطرافها تصنع من الحجر أو العظام أو النحاس الأحمر المطروق، وكانت تثبت إلى الرسغ بسير من الجلد، ثم أصبحت بعد الاختلاط بالأوروبيين تصنع من الصلب وانتشر استعمالها على طول الساحل. ومن وسائل الدفاع عندهم دروع مكونة من طبقة إلى ثلاث طبقات من جلد الأيل تتدلى أحياناً إلى العقبين وتبلغ من المتانة أن تقاوم السهام وقد تقاوم أطراف الحراب.

وكانت القبائل الشمالية تستعمل صديرية خاصة تتكون من أعواد ضيقة من الخشب توضع رأسية بعضها بجوار بعض وتثبيت بأربطة متشابكة من الجلد الخام، كما كانوا يلبسون دروعاً خشبية حول الرقبة تصل إلى العينين، وخوذات من الخشب أو من الجلد. وكان الرجال في

بعض الجماعات الأخرى، كالتلنكت مثلاً، يلبسون أقنعة بشعة الشكل يحمون بها وجوههم وفي الوقت نفسه يدخلون بها الرعب إلى قلوب الأعداء.

ويودع هؤلاء الهنود جثث موتاهم مقرها الأخير بطرق شتى. فالمعتاد بين التلنكت والتسمشيان هو إحراقها، ولكن التسمشيان كانوا أحياناً يدفنونها وكانوا أحياناً أخرى يمارسونها نوعاً من التحنيط. أما الهايدا فكانوا يودعون جثثهم الكهوف أو يضعونها في توابيت فوق أعمدة محفورة أو في فتحات في جوانبها. وكانت جثث مشاهير الزعماء غالباً تلبس أحسن ملابسهم وتترك في مجالسهم بمنازلهم حولاً كاملاً تنقل بعده إلى مقرها الأخير. وكان الكواكيوتل أحياناً يمارسون إحراق الجثث، ولكنهم كانوا في العادة يضعونها في الأشجار أو في الكهوف أو في قارب إذا كانت جثة زعيم. وكان النوتكا يدفنون الجثث في الكهوف أو يضعونها في صناديق أو يلفونها في أكفان من لحاء شجر الشربين ثم يتركونها فوق الشجر. أما الآن فإن القبائل جميعها تتبع طريقة الدفن في جبانات خاصة. وعند موت زعيم تقام وليمة فخمة ويقام عادةً عمود طوطمي يحمل الشعار الطوطمي الخاص به.

ويعتقد هؤلاء الناس كغيرهم من الهنود، أنهم محاطون من كل جانب بكائنات مما وراء الطبيعة، كما يعتقدون في إمكان الاتصال بتلك الكائنات عن طريق رجال الطب أو الشامان، وهذا ما كان يحدث في أثناء حفلاتهم التي كانوا يقيمونها في الشتاء. وقد يكون الشامل رجلاً أو امرأة، وهم يرثون مهنة الطب عن آبائهم، ولكن بعض مشاهير رجال

الطب لم يرثوا هذه المهنة. وعلى أي حال كان الاعتقاد أنهم قد وهبوا القدرة الطبية من لدن الأرواح استجابة لصلواتهم وصيامهم، كما كانوا يمارسون علاج الأمراض عن طريق الأدعية واستعمال بعض الأعشاب. ويلبس الشامان ملابس خاصة، ويدفن عند موته في مكان بعيد عن المدافن العامة؛ وفي بعض المناطق لا يمشط الشامان شعره ولا يغسله ولا يقصه أبداً، ومن الممتلكات التي يقتنيها الشخاشيخ والعصى ومواسير العظام المجوفة. ولا شك أن له شيئاً من القدرة على العلاج وله قدرة على السحر وعلى الشفاء منه، وكان يدعى القدرة على التحكم في الجو، ولكن شفاء الأمراض كان مهنته الرئيسية، وكانوا ينسبون المرض إلى السحر من جانب الأعداء، أو إلى غيبة مؤقتة من جانب الروح أو حلول خبيثة في الجسم، ويقوم الشامان في الحالة الأولى غالباً بإيهام الناس أنه أخرج الشر من الجسد في صورة حجر أو أي أداة أخرى، وكان السحر يتحكم تحكماً كبيراً في حياة هؤلاء الهنود، وكان في مقدور أي إنسان أن يوقع الأذى بغيره عن طريق السحر، ولكن الشفاء منه بعد ذلك كان بيد الشامان وحده.

وقد تناقص عدد هؤلاء الهنود كثيراً منذ اختلاطهم بالأوروبيين، ويرجع هذا من جهة إلى الأمراض التي جلبها هؤلاء معهم. ومن جهة أخرى إلى ما طرأ على طريقة حياتهم من تغيير بسبب هذا الاختلاط. وقد تغيرت عقائدهم البدائية واختفت الحروب والرق ومعظم فنونهم وصناعاتهم، لكن لا يزال صيد السمك هو المهنة الأصلية التي يعتمد عليها بعضهم في معاشه، وبعضهم يوفر الأيدي العاملة الرخيصة في

صناعة تعبئة علب السلمن، ولكنهم في هذا أقل أهمية من الصينيين أو اليابانيين. ويعيش معظمهم في جزر مخصصة لهم أو في مناطق محددة، ولكنهم يجدون صعوبة في منافسة الصينيين والأوروبيين إذ أنهم لم يتعودوا بعد مزاولة الزراعة، ولم يستطيعوا بعد تغيير النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي كانت حياتهم تقوم عليه قبل أن يزحف سيل المستعمرين إلى قراهم ويغمر سكانها غمراً لا خلاص منه أبداً.

الفصل الثامن

الفويجيون

نظرة إلى خريطة أمريكا الجنوبية تبين لنا أن شاطئها الغربي جنوب خط عرض ٤٢° جنوباً يشبه شاطئ كولمبيا البريطانية شبهاً تاماً، إذ يحفه آلاف من الجزر التي يفصل بعضها عن بعض وعن شاطئ القارة قنوات لا عداد لها كثيرة التعريج كثيرة التشابه. ويتخلل الشاطئ نفسه كثير من الخلجان المستطيلة الضيقة شديدة التعريج ترتفع منها فجأة جبال شاهقة تغطي قممها الثلوج وتغطي سفوحها إلى ارتفاع ألف قدم أو يزيد غابات يكاد يستحيل اختراقها، وسكان هذه الأقاليم على مستوى ثقافي أقل كثيراً من مستوى السالش والهايدا وغيرهم من القبائل التي سبق الكلام عنها في الفصل السابق، رغم ما بين موطنيهما من تشابه. والواقع أن سكان هذه الجهات– كما وصفهم أحد الذين زاروا بلادهم– "من أكثر سكان الأرض انحطاطاً وأكثرهم سرعة انقراض وأندرهم ذكراً".

وتقرب فويجيا في مساحتها من اسكتلندا، وتتكون من أرخبيل شاسع في جنوب مضيق ماجلان أكبر جزره هي ترادلفو يجو "أرض النار" المثلثة الشكل، إذ تبلغ مساحتها تسعة عشر ألف ميل مربع تقريباً؛ وتختلف سائر الجزر في مساحتها من بقع صخرية صغيرة إلى جزر قليلة كبيرة تزيد مساحة الواحدة منها على ألف ميل مربع. وقد وصفها أحد

الكتاب فقال: "حين يمر المسافر بين هذه الجزر لا يستطيع لحظة واحدة أن يقاوم الفكرة التي تتسلط على تفكيره، وهي أن سلسلة جبلية قد هبطت هنا في زمن متناه في القدم، فقد يبحر المرء أميالاً وفراسخ دون أن يجد شاطئاً يتسع لقدم أو يصلح لإرساء قارب صغير؛ ومن اليسير التأكد عن طريق الجس أن ذلك الانحدار الذي نشاهده مستمر كذلك تحت الماء". على أن الأمر لا يخلو من وجود بضع مراسٍ صغيرة في البقع غير المعرضة للعواصف، ولكن الأرض التي تصلح للسكني تكاد تقتصر على صخور الشاطئ.

ويأتي من المحيط القطبي تيار بارد يملأ القنوات والخلجان العديدة بماء في برودة الثلج ويعمل على تكون الضباب الذي يغمر البلاد. ولكت كانت هذه الجزر واقعة في نطاق عروض "الأربعين الصاخبة" كانت بالطبع من أكثر بلاد الدنيا عواصف، فالرياح– التي تأتي غالباً من اتجاه غربي– تهب على هذه الشواطئ الشديدة الانحدار بقوة مخيفة فتحيل السفوح المعرضة لها إلى أرض جرداء خالية من الأشجار. ولا تقع العين في بعض هذه البقع إلا على صخور عارية، وفي بعضها الآخر– إذا وجدت بها أشجار استطاعت أن تقاوم الأنواء– فإنها توجد كلها مائلة نتيجة هبوب الرياح المستمر. وتشتد قوة الرياح فيما جاور رأس هورن إلى درجة أنها تثير أمواجاً هائلة قد يبلغ ارتفاع الواحدة منها من ذروتها إلى حوضها أربعين قدماً. وعند وصول هذه الرياح الباردة المحملة بالرطوبة إلى اليابسة يحدث التكاثف بسرعة وتسقط في كل مكان في غرب الأنديز أمطار غزيرة (٥٠ ً– ١٠٠ ً)، وتهبط بعد ذلك الرياح المسلوبة

الرطوبة إلى الجانب الآخر من المرتفعات في شمال أرض النار وشرقها على هيئة رياح جافة، ولهذا كان هناك فرق عظيم بين الجهات الغربية والجهات الشرقية، فالأولى عبارة عن إقليم جبلي غزير المطر والثانية سهل متموج جاف نسبياً. أما الحرارة– وهي أقل في فويجيا منها في كولمبيا البريطانية– فيندر أن ترتفه فوق ٥٠° ف حتى في أكثر شهور السنة دفئاً. والواقع أن انخفاض حرارة الصيف– وليس اشتداد برودة الشتاء– هو الطابع الواضح في مناخ هذه البلاد؛ وهو الذي يحول دون زراعة القمح وغيره من الحبوب في الناحية الشرقية الأقل مطراً. وقد كتب أحد المبشرين مسجلاً ملاحظاته عن مناخ الجهات الغربية التي تتميز بالجو الملبد وبالضباب، فقال: "٣٠٠ يوم تسود فيها العواصف والأمطار و٦٥ يوماً لا تسر".

وتتغطى الجزر وسفوح المرتفعات إلى ارتفاع ألف أو ألف وخمسمائة قدم– فيما عدا البقع المعرضة للعواصف– بغابات كثيفة يصعب اختراقها تتكون على الأخص من نوعين من شجر الزان دائم الخضرة وبعض أنواع من المانوليا وأنواع أخرى من الشجيرات دائمة الخضرة. ويصل ارتفاع أعلى هذه الأشجار إلى نحو خمسين قدماً وقطرها نحو قدمين، تتدلى من أغصانها الطحالب وتنمو على جذوعها الفطريات والطفيليات، كما تنمو بينها الشجيرات الصغيرة وتتناثر جذوع الأشجار المتكسرة التي صارت في درجات متفاوتة من التحلل، بينما تغطي الأرض في كل مكان الطحالب الرطبة المشبعة بالماء التي تغوص فيها القدم والتي وصفها أحد السائحين بقوله: "لا يستطيع الإنسان أن

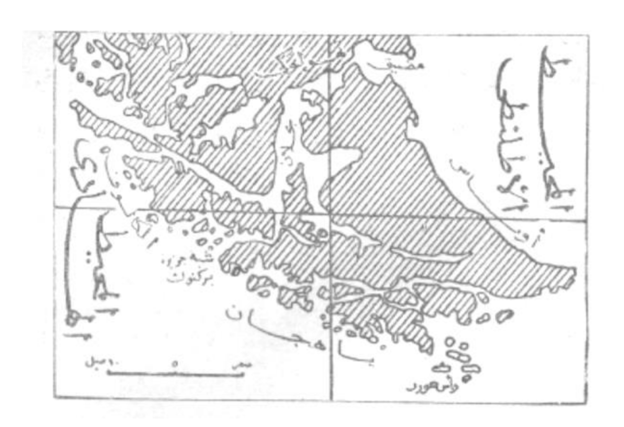
يصل فيها إلى مسافة عشر أقدام من سطح الأرض" ومن الطحالب التي تنمو هناك السرخس والبنفسج الأصفر والأوركديا والكرانبري Cranberry وغيرها من النباتات، وكلها مشبعة بالرطوبة يقطر منها الماء معظم السنة، لكن يغطيها الثلج في زمن الشتاء؛ وتمتلئ الوديان بالمستنقعات بينما توجد الغياض في كل مكان حتى فوق سفوح الجبال. وتخف الغابات فيما زاد على ارتفاع ألف أو ألف وخمسمائة قدم، وتتشابك الشجيرات، حتى ليخيل إلى الرائي أن السير فوق أعاليها هين يسير، مع أن السير خلالها يستحيل إلا بعد أن يشق الإنسان طريقه بينها بقطع ما يعترضه من النباتات. وفوق الارتفاع المذكور تختفي الأشجار والشجيرات وتحل محلها الطحالب يليها الثلج الذي يستقر فوق صخور عارية جرداء. وتصل الثلاجات إلى ساحل البحر في بعض الجهات.

وينمو على سفوح الأنديز وقواعدها الشرقية نطاق من الغابات النفضية تتكون في الغالب مما يعرف باسم زان المنطقة القطبية الجنوبية وفصائله، وتخف هذه الغابات بالتدريج نحو الشرق والشمال تبعاً لقلة المطر الساقط، وتنتهي إلى المنطقة شبه الصحراوية التي تقع في شمال شرق أرض النار حيث لا ينمو سوى خصلات متناثرة من العشب هي كل ما يتغذى عليه الجواناكو البري وما ترعاه قطعان الأغنام التي جلبت إلى هذه البلاد. وبعض أجزاء القسم الجنوبي من الجزيرة يستحيل اختراقها لشدة وعورتها، كثيرة الغياض حتى أنه يستحيل على الهنود أنفسهم الحياة فيها.

وكانت سفوح الأنديز ذات الغابات الكثيفة والأرض المشبعة بالمياه وكذلك قممها التي تتوجها الثلوج، تقوم حاجزاً يفصل فعلاً بين الجماعات التي تعيش في شرقها والجماعات التي تعيش في غربها، وكذلك كانت شبه جزيرة بركنك Brecknock الواقعة في الجهة الغربية تفصل بين جماعات ليس لديهم من وسائل المواصلات البحرية غير خفاف القوارب. وتتفق هذه الأقسام الثلاثة تقريباً مع الأقسام اللغوية الثلاثة التي تنقسم إليها فويجيا: ففي قسمها الشرقي يقطن الأوناس Onas الذين كانوا يعيشون على قنص الجواناكو وهم راجلون، ومن هنا أطلق عليهم "الهنود الراجلون". وعلى الشاطئ الغربي في جنوب شبه جزيرة بركنك Brecknock يقطن الياهجان Yahgan، وفي شمالها الألكالوف Alkaluf، وكانت كلتا الجماعتين تعيش على صيد السمك، وكانت القوارب لذلك من مستلزمات حياتهم، ومن هنا أطلق عليهم اسم "هنود القوارب".

وكل هذه القبائل موغل في البدائية، ولا شك أنهم قد اضطروا تحت ضغط جماعات أكثر منهم قوة إلى الالتجاء إلى تلك الجهات الصغيرة. التي مضى عليهم فيها قرون طويلة بعيدين عن أي مؤثر خارجي، ولم يكن الأوروبيون الذين يمرون خلال مضيق ما جلان بعد كشفه في ١٥٢٠ ينزلون بهذه الشواطئ، ولم تكن السفن الشراعية الدائرة حول رأس هورن ترى إلا النزر اليسير من تلك الشواطئ أو من سكانها، وكان كثير من تلك السفن يرتطم بتلك الشواطئ الصخرية وبذلك يزيد قليلاً في موارد الفويجيين الهزيلة. ولما انتشرت الملاحة التجارية حل طريق

مضيق ماجلان محل الطريق الدائر حول رأس هورن، ولكن حفر قناة بناما حول الملاحة نهائياً عن ذلك الطريق وبذلك عمل على زيادة عزلة الفويجيين مرة أخرى.



(شكل ٣٣) خريطة توضح قبائل منطقة "فويجيا"

والياهجان هم أحط الفويجيين على الإطلاق، ولهم كثير من صفات الهنود الأمريكيين، لكنهم أقصر من معظمهم قامة، إذ يزيد متوسط طول الرجل قليلاً على خمسة أقدام، ويقل متوسط طول المرأة عن ذلك بنحو ثلاث بوصات. وأجسامهم متينة البنية ورقابهم ممتلئة وقصيرة ومناكبهم مستقيمة وأذرعهم طويلة مفتولة العضلات، ولكن أرجلهم مقوسة ورفيعة. وقد يكون هذا راجعاً إلى طول ما يقضون من وقت في قواربهم وطول ما يجلسون متر بعين حول النار. ولهم في مقدم الرأس لمة من الشعر الأسود الطويل الذي يتدلى من الأمام ويقص بمحاذاة العينين بحيث لا يحجب الرؤية.

وكان هؤلاء الناس قبل معرفة الملابس الأوروبية يتدثرون بقليل جداً

من الملابس، بل كانوا أحياناً يسيرون عراة رغم البرد والمطر، على أنهم كانوا يدهنون أجسامهم بمادة دهنية على شكل زيت يستخرجونه من الحيتان والأسماك والطيور البحرية، وهذا الدهن يساعد على انزلاق البرد والمطر والرذاذ عن أجسامهم، أما الملابس فتمتص الرطوبة وتساعد على إصابتهم بالبرد. ومما كان يساعدهم على مقاومة البرد ما يستهلكونه من دهن الحوت ومن الطيور البرية الدسمة، كما كان يساعدهم على ذلك أيضاً ما يتكون تحت جلودهم من طبقات دهنية. على أن الياهجان كانوا يحمون ظهورهم من البرد وكذلك أجزاء الجسم المجاورة للأعضاء الحيوية، بغطاء من جلد الجواناكو أو عجل البحر أو القندس البحري، ولم يكن الأمر أحياناً يعدو مجرد وضع قطعتين صغيرتين من جلد القندس فوق الكتفين وتحريكهما أحياناً حسب الاتجاه الذي تهب منه الريح.

ويغرم هؤلاء الناس، رغم فقرهم، بالتزين غراماً شديداً، ولا يقتصر ذلك على نقش الجسم بالألوان– وهي الأسود الفاحم وأحمر المغرة الداكن والأبيض الناصع– بل يلبسون الريش وعقوداً مصنوعة من صغار الأصداف وأساور من جلد عجل البحر أو من عقد من عصب الجواناكو وغير ذلك.

والياهجان آخذون في الانقراض بسرعة بسبب حوادث الغرق والأمراض ولا سيما الحصبة، فقد كان تعدادهم منذ ستين سنة ألفين وخمسمائة، أما الآن فلا يصل عددهم إلى خمسين.

وكان الياهجان يقطنون الشواطئ الجنوبية لجزيرة أرض النار وما

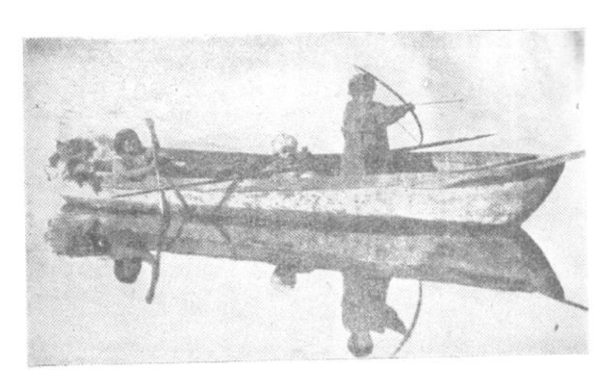
جاورها من الجزر الصغيرة حتى رأس هورن، ولكن البقع التي كانت تصلح للسكني قليلة وموارد الأرض محدودة، ومع ذلك لم يعتمدوا كثيراً على النباتات الصالحة للطعام، فلا الكرفس البري ولا حشيشة الحفر يبدو أنهم كانوا يهتمون بجمعها، على أنهم انتفعوا بنحو عشرة أنواع أو أكثر من الطفيليات التي كانت تنمو على الأشجار الميتة ولو لم ينتفعوا بأي نوع منها مما ينمو على الأرض، وكذلك ندر أن كانوا يقنصون حيواناً بريل من أجل لحمه، وعلى ذلك لم يكن لهم بد من الاعتماد على البحر في الحصول على معظم غذائهم. وكان من السهل عند انحسار الماء وقت الجزر أن يجمعوا بأيديهم سمك المحار مثل القواقع وبلح البحر والكابوريا الصالحة للطعام. وكانوا وهم في قواربهم يصيدون السمك بالحراب، كما كانوا يصيدون طيور البر والبحر ويجمعون بيضها من الأجراف الشاهقة، وكذا كانوا يصيدون عجل البحر والقندس البحري، ويروي عن بعضهم أنهم استطاعوا صيد الحيتان. على أن القواقع وبلح البحر كانت هي مادة غذائهم الرئيسية. ومما لا شك فيه أن الياهجان كانوا عرضة للجوع والقحط، وقد اضطرتهم مواردهم الضئيلة أن يعيشوا في جماعات صغيرة أو حتى في وحدات لا تتعدى العائلة الواحدة، مما قوى فيهم روح الاستقلال، على أنه إذا قذفت الأمواج بحوت إلى الشاطئ اجتمع منهم مائة أو أكثر حول جثته يلتهمونها، لأن القوارب كانت حينذاك تأتي من كل صوب استجابة لإشارات النار التي يوقدونها.

وكانت مساكنهم فيما مضى أرحب وأكثر عدداً كما تدل على ذلك أكوام الأصداف المتروكة بقاياها على السواحل والتي يبلغ ارتفاع بعضها من ثمانية

أقدام إلى عشرة. وكانوا إذا قل الطعام على شاطئ رحلوا إلى غيره، لكنهم كانوا إذا عثروا على شاطئ يكثر به سمك المحار استقروا به هنيهة وعاشوا على خيراته؛ وكانت معظم الموارد ملكاً مشاعاً كما كان كل الطعام يقسم بينهم بالتساوي.

ومنازل الياهجان بدائية إلى حد كبير، يقيمونها على شكل مخروط أو نصف كرة تقوم على بضعة أعمدة تثبت في الأرض وتغطى بلحاء الشجر أو بالعشب أو بالسمار، ولكنها دائماً مفتوحة من الجهة الواقعة تحت الريح، وتغطى أرضها عادة بالطحالب أو بالعشب، ويوجد قرب مدخلها مكان النار التي توقد غالباً من فروع الأشجار يلقون بها إلى النار المشتعلة. وعندما كانوا يزمعون الإقامة بعض الوقت في الخيام كانوا يحفرون الأرض من الداخل ويكومون التراب الناتج على جوانب الخيمة زيادة في وقايتها.

وكانت قواربهم تصنع من فشور خشب الزان، وهي تبلغ من اثني عشر إلى أربعة وعشرين قدماً في الطول وأربعة أقدام في العرض وثلاثة في عمقها عند الوسط. وكانوا إذا أرادوا فصل اللحاء عن الشجرة يحفرون حولها حزوزاً بواسطة الأصداف أو سكاكين من الحجر، ثم ينزعون الألواح بواسطة أداة من الخشب أو من الحجر مستطيلة ومفلطحة ومنحنية قليلاً تشبه إلى حد ما سكاكين فتح المظاريف، وتثبت ألواح اللحاء بعضها إلى بعض بأربطة من العصب ثم تشتد إلى هيكل من عروق وعوارض متقاطعة من الخشب أو من عظام الحوت.



(شكل ٣٤) الفويجيون يصطادون

وعندما يخرج القارب للصيد يأخذ الرجال أماكنهم في مقدمته استعداداً لمهاجمة الفريسة، بينما تجدف النساء في مؤخرته. وكانوا يحتفظون لأغراض الطبخ والتدفئة بنار موقدة على الدوام في موقد من الطين موجود بوسط القارب، مما كان يوفر عليهم مؤونة توليدها من جديد. ولما كان جوهم مشبعاً بالرطوبة لدرجة تجعل من العسير توليد النار عن طريق حك الخشب أو فتله، كانوا يولدونها بقدح قطعتين من الصخر وترك الشرارة المتولدة تسقط على قليل من زغب ريش الطيور الجاف، ثم ينفخون فيه وسرعان ما تشتعل فيه النار.

على أنه منذ بضع سنين أخذت القوارب المحفورة من جذوع أشجار الزان تحل محل القواب المصنوعة من لحاء الشجر، وكانوا بكتلة الخشب فيجوفونها ببلطة بحيث تكون حافتها العليا منحنية نحو الداخل، وبعد ذلك يفرشون القاع بالرمل ويدهنون جميع جوانبها الداخلية بشحم عجل البحر ثم يشعلون بداخلها النار فتعمل حرارتها على إلانة الخشب، وحينئذ يثبتون فيها عوارض لتبقى جوانبها مفتوحة. وكانوا عادة يثبتون في قاع القارب قطعة من الصفيح يوقدون عليها النار

ويحيطونها بالرمل زيادة في الأمان، وقد اقتبس بعض الياهجان والألكالوف من جيرانهم الشماليين "الكونوس Chonos" طريقة بناء القوارب من الألواح.

ولم يعرف الياهجان البلطة المصنوعة من الحجر والتي استعملها معظم الشعوب البدائية، لكنهم استعملوا بدلها بلطة من الأصداف كانوا يقطعون بها الأشجار ويكشطون دهن الحوت ويقصون شعورهم. ولعمل مثل هذه الأداة ياتون بمحارة كبيرة من محار نوع خاص من السمك (Clam) يربطون أحد طرفيها بواسطة عصب الحيوان إلى حجر مستدير، ويحكون الطرف الآخر على حجر ناعم حتى يصير حاداً. كذلك كانوا يستعملون حربة ذات رأس من الحجر، ولكن الرمح كان سلاحهم المفضل وكان يتكون من ساق من الخشب ورأس من العظام تثبت إلى الساق بطريقة تجعله يطفو عريضاً على سطح الماء عند ما يصب الحيوان فيصعب على الحيوان الجريح أن يتخذ سبيله في الماء. وكانت رأس الرمح تتخذ من رأس ضلع من أضلاع الحوت. فإذا أريد استعماله في صيد الحوت والقندس صنع له كُلاب طويل عميق يمنعه من الخروج، ولكن إذا أريد استعمالها في صيد الطيور صنع لها صف طويل من الكلابات على جانب واحد منها. وإذا استعمل هذا الرمح في صيد السمك ربطت اثنتان أو ثلاث من رؤوس الحراب الخاصة بصيد الطير إلى ساقه بحيث تتكون من أطرافها حربة تصلح لصيد السمك. ولم يعرف الياهجان السنانير ولا الفخاخ. وكانوا غالباً يستعملون إزميلاً من الخشب حاداً لينزعوا القواقع الملتصقة بالصخور، كما كانوا يستعملون

سلالاً من السمار يضعون فيها سمك المحار والأدوات الصغيرة. ولم يكن الياهجان يستعملون الأقواس في الصيد إلا نادراً إذ كان من الصعب الحصول على مدد جديد من السهام وهم في عرض البحر، ولكنهم استعاضوا عن الأقواس بالمقلاع حيث كانوا يجدون من حصى الشواطئ مدداً مضموناً من الذخيرة. وقد وصف الأستاذ هنري بلفور مقلاعاً من مقاليع الياهجان حصل عليه سبنسر فقال:

يتكون من قطعة كبيرة مستديرة من جلد القندس تطبق وفراؤها إلى الخارج بحيث يتكون منها جيب أو "مهد" للقذيفة الحجرية، ويخاط إلى كل من الزاويتين العلويتين حبل (مبطط) طوله نحو ثلاثة أقدام ينتهي بعقدة خشنة مبطنة. ويلاحظ أن طول أحد الخيطين يزيد على طول الآخر بقدر ضئيل كما أنه ينتهي بعقدة أكبر من عقديه. ويمسك بهذا الخيط بين الخنصر والبنصر، بينما يقبض على الآخر بالإبهام والسبابة حتى يسهل إطلاقه عند قذف الحجر، ومن عادة الياهجان أن يلفوا المقلاع حول الرأس بعد الانتهاء من استعماله أو يلفوه حول العنق. وقد كان استعماله شائعاً بين "هنود القوارب" (الياهجان والألكالوف) منذ خمسين سنة، ولكنه الآن (١٩٣١) على وشك الانقراض.

وكان الرجال يقومون بالصيد والقنص، وكثيراً ما يضطرون إلى الغوص في ماء بارد كالثلج ليجمعوا سمك المحار، أو إلى تسلق أجراف خطرة ليجمعوا بيض الطير، كما كان عليهم أن يخاطروا هم وعائلاتهم بقواربهم الخفيفة في أجواء عاصفة وسط ممرات مائية شديدة التعرج سعياً وراء الطعام، وكان على

النساء دبغ الجلود وجمع سمك المحار، والقيام بالواجبات المنزلية العديدة.

والزواج عندهم مسألة بيع ومساومة، ويستطيع الرجل عادة أن يشتري زوجة في مقابل قارب جديد. وتعدد الزوجات أمر عادي، وللرجل أن يتخذ من الزوجات مثنى وثلاث ورباع، وعند ما يولد طفل يدقق الوالدان في نوع الطعام الذي يتناولانه لأنهم يعتقدون أن بعض الأطعمة قد تضر الرضيع، ومن عاداتهم التزام الصمت مدة أسبوع أو أسبوعين عقب ولادة الطفل، وبعد ولادته بأيام قلائل يأخذونه إلى البحر حيث يغطسونه في مائه الشديد البرودة، لأن ذلك في اعتقادهم يساعد على سرعة نموه، ومن عادتهم دفن موتاهم في كهوف أو في غابات رطبة، ولا يذكرون اسم الشخص بعد موته أبداً، فإذا كان الميت رجلاً شقوا قاربه نصفين وعمدوا إلى جميع ممتلكاته فدمروها.

ومع أن هؤلاء الناس لا يعرفون من الأعداد ما زاد على ثلاثة إلا أنه كان لهم– على حد رواية توماس بردجس الذي قام بعمل قاموس إنجليزي ياهجاني– كلمات يصل عددها إلى أربعين ألفاً. أما أغانيهم فقد كتب عنها الكولونيل C.W. Furlong (الذي كان أول من سجل بعضها على أسطوانات) يقول: "مع أنها غريبة وتقتصر على المفاتيح الدنيا إلا أنها ليست غير سارة، إذ أنها تنتمي إلى لغة عذبة على السمع غنية بأحرف السكون وأحرف الحركة المعروفة في اللغة الإنجليزية" وهو يقسم أغانيهم إلى ثلاثة أقسام: أغاني اللعب، والأغاني الرمزية، وأغاني الأفراح.

وقد ذكرنا فيما سبق أن فقر موارد البلاد التي يستوطنها الياهجان

قد اضطرهم إلى العيش في جماعات صغيرة، على أنهم قد يجتمع منهم أحياناً مائة أو أكثر، ولكن مع ذلك لم يكن لهم زعيم، على أن كثيرين منهم كانوا يظهرون الطاعة لرجل الطب أو للشيخ المحنك، وهم عادة يقدرون الخبرة والقوة الجسمية. وقد أدى انعدام النظام الاجتماعي إلى انعدام الطقوس والأعياد، ويبدو أنه ليس لهم أساطير ولا قصص شعبي ولا تقاليد ولا شيء مطلقاً يدل على أنهم كانوا يعتقدون في وجود كائن أعظم، لكن من المؤكد أنهم كانوا يعتقدون في وجود الأرواح والشياطين.

وقليل من السائحين من كتب شيئاً عن الألكالوف، ولهذا كانت معلوماتنا عنهم محدودة. وهم يشبهون الياهجان كثيراً في مظهرهم وعاداتهم وأحوالهم ولكنهم أحسن منهم ملبساً وأمتن بنية ويتكلمون لغة مختلفة. وكان الألكالوف يقطنون من الجزر ومن شواطئ القارة ما يلي شبه جزيرة بركنك Brecknock شمالاً وغرباً، بينما كانت شبه جزيرة تايتو Tayto تفصلهم عن الكونوس Chonos في شمالهم. وكان الألكالوف أيضاً يقضون معظم وقتهم في قواربهم يجوبون بها آلاف القنوات البحرية سعياً وراء الطعام، ولكنهم كانوا أيضاً يقيمون لهم محلات على حواف كثير من الجزر، بدليل الأكوام الكثيرة المتخلفة من رماد النار والمحار، وهي تدل على مواقع محلاتهم التي كانوا دائماً يحسنون اختيارها. أما الآن فإنهم قد انقرضوا تقريباً من فويجيا عدا قليلين يعيشون في بلاد الياهجان، ولكن عدداً منهم يعيش في شمال مضيق ماجلان. والألكالوف كالياهجان يتناقص عددهم بسرعة نتيجة للأمراض وللإفراط في تعاطي الروم، إذ أنهم يقايضون جلود الحيوانات بالطباق والملابس

والمشروبات الروحية. ويقدر عددهم اليوم بما لا يزيد على مائة وخمسين، مع أنه كان يقدر منذ ستين سنة بثلاثة آلاف.

والأوناس، الذين ينتمون في رأي بعض الكتاب إلى قبائل التهولكي Tehuelcke التي تقطن جنوب بناجونيا، أطول قامة وأجسامهم أكثر تناسباً من الياهجان والألكالوف؛ فمتوسط الطول بين الرجال خمسة أقدام وثماني بوصات وأجسامهم تامة التناسب ومناكبهم عريضة وصدورهم قوية وأرجلهم مفتولة العضلات ولون بشرتهم مشرب بصفرة خفيفة ولكن لونها الحقيقي يختفي عادة تحت طبقة من القذارة ومن المغرة الحمراء، وعيونهم سوداء وأنوفهم دقيقة ولكنها أحياناً بارزة قليلاً، ووجوههم البيضوية يتوجها شعر أسود فاحم يستعملون في تسريحة أمشاطاً من عظام الحوت لا يعرفها غيرهم من الفويجيين.

وقد كان الأوناس في وقت من الأوقات ينتشرون في جميع الأجزاء الخصبة من أرض النار أي في القسم الشمالي حيث تبلغ أعداد الجواناكو أكثرها إذ توجد منه آلاف يخطئها العد. وفي تلك الأيام كان وجود مائة أو أكثر من الأهالي يعيشون في معسكر واحد أمراً عادياً، ولكنهم لم يكونوا يقيمون في قرى ثابتة، وكانوا حينذاك أقرب إلى نظام العشائر من أي شعب آخر من شعوب فويجيا. ثم جاء بعد ذلك رعاة الأغنام الأوروبيون فأخذوا من الأوناس أخصب أراضيهم، وقابل الأوناس ذلك بسرقة قطعان الأوروبيين فنشبت بين الفريقين حروب وحشية لم يكن القوس فيها نداً للأسلحة النارية فقتل من الأوناس خلق كثير، ولجأ

من نجا منهم إلى الأجزاء الجنوبية أسوأ كثيراً، فأخذ الحصول على الطعام يزداد صعوبة واضطروا إزاء ذلك أن ينقسموا جماعات أقل عدداً، كل جماعة منهم تتكون غالباً من أسرة واحدة تعيش على الصيد في أراضيها. ولم يكن الأوناس يعترفون لأحد بالزعامة، مثلهم في ذلك مثل الياهجان.

وكان الجواناكو أهم حيوانات الصيد عند الأوناس، وهو نوع بري من فصيلة الإبل، ومن أنواعه المستأنسة اللاما والألباكا، وقد استعانوا في صيده بنوع من كلاب الصيد ضخم الجسم قوي البنية، واستعملوا في ذلك أقواساً جيدة الصنع أوتارها من عصب الحيوان. وكانوا يحملون سهامهم ذات الأطراف الزجاجية في كنانات من الجلد. وكذلك صادوا الطير والكيورورو "Curoro" وهو نوع من الفئران، وثعلب الذئب الفويجي. وكانوا أحياناً يذهبون إلى الشاطئ للحصول على سمك المحار ودهن الحوت ولكنهم لم يكونوا يملكون قوارب ولم يخاطروا بالنزول إلى البحر. وقد انتفعوا بكل جزء من أجزاء الجواناكو فأكلوا لحمه ولبسوا جلده وأقاموا منه مساكن مؤقتة، كما اتخذوا منه قرباً يحفظون فيها الماء، وصنعوا من عصبه الخيط ومن عظامه المخارز.

وقد كان من أثر اضطرار الأوناس إلى الصيد في مثل هذه البيئة الفقيرة، أن نمت فيهم قوة الاحتمال، كما نمت حاستا السمع والنظر، والقدرة الخارقة على معرفة المكان الذي به حيوان الصيد، وكذلك كان من أثره أن تعودوا الاستقلال والاعتماد على النفس، وكان الأوناس مضطرين إلى التجول من مكان إلى مكان سعياً وراء الصيد، ولم يستأنسوا من الحيوان

غير الكلب ومع ذلك لم يدربوه على حمل الأثقال، ولذلك كانوا يحملون على ظهورهم كل ما يملكون، ويستخدمون لربط الأحمال إلى ظهورهم طقماً من جلد الجواناكو. ويسير الرجال في المقدمة ملتفين بجلد كامل من جلود الجواناكو ومسلحين بأقواس طويلة، ولكنهم لم يكونوا يحملون من الأحمال إلا قليلاً، إذ كان عليهم أن يكونوا دائماً على أتم استعداد للطوارئ وللصيد. أما النساء فكن يحملن على ظهورهن الخيام مطوية ومعها الأدوات المنزلية البسيطة وكذلك الطفل الصغير في ثنايا العباءة خلف العنق، بينما يسير كبار الأطفال إلى جانب أمهاتهم خلف الرجال.

وكانوا يقيمون أثناء الترحال مساكن بدائية لا تزيد على بضعة أعمدة ينشر فوقها غطاء من جلود الجواناكو يقيهم الريح، فإذا عثروا على قدر كبير من الطعام أقاموا مسكناً خيراً من هذا، فيحفرون حفرة مستديرة غير كبيرة العمق ينصبون حولها بضعة أعمدة يغطونها بالحسك وبجلود الجواناكو، وينام الأطفال ليلاً في وسطها ومن حولهم الكبار وبقربهم الكلاب لتبعث الدفء إلى أجسامهم.

وكان على الرجال أن يقوموا بالصيد وبالحصول على ما يلزم من مواد الطعام ومن الجلود، وكذلك حماية المعسكر وعمل الأقواس والسهام وعلى النساء دبغ الجلود والسهر على شئون الأسرة وصناعة السلال وقِرب الماء.

ولم يكن يفوت الأوناس عند خروجهم للقنص أن يضعوا على رءوسهم قطعة مثلثة الشكل شهباء اللون من جلد رأس الجواناكو، اعتقاداً منهم أن الصائد الذي يزين رأسه بمثل تلك القطعة من الجلد إذا

دلف إلى الجواناكو من خلف شجرة أو ربوة فإن الحيوان لا يهرب منه. وهاك مثلاً آخر من اعتقادهم في الخرافات أو بالحري في السحر: فقبل أن يشترك الأوناس في مسابقات الجري يتجردون من ملابسهم ويربط كل واحد منهم على ذراعه الأيسر حزمة من ريش الطير ليزيد من سرعته في الجري.



(شكل ٣٥) جماعة من الأوناس تحت مأوى من جلد الجواناكو

ولا يعبر الأوناس عن حزنهم بالصراخ وقص الشعر فحسب، بل أيضاً بقطع لحم الصدر والذراعين بقطعة من الزجاج أو العظم.

ويعتقد الأوناس أن أرواح الموتى تتجسد أحياناً في هيئة أشياء أو ظواهر طبيعية كالسماء والسحاب والجبال والصخور. ومن أجل هذا يجتهدون في أثناء رقصاتهم التنكرية التي يرمون من ورائها إلى إطلاع الأولاد على أسرار سن المراهقة، يجتهدون، يقلدوا تلك الظواهر تقليداً متقناً. وهم يتخذون أقنعة التنكر من جلود الجواناكو بعد إزالة الشعر

عنها ليسهل نقشها بالألوان للمحاكاة، فمثلاً القناع الذي يلبسه رجل يمثل السماء يلون بلون أبيض عليه بقع حمراء، وتلبس زوجته جلداً منقوشاً بلون أبيض خالص تحاكي به السحب التي تمثل هي روحها. بينما تعتبر روح الصخور السوداء والهوات المظلمة أشد الأرواح رهبة وتلون باللون الأسود.

وينتهي الأمر بالأرواح في رأيهم إلى أن تتقمص الطير والسمك والجواناكو، ويرون أن الجواناكو كان قبل ذلك امرأة لأنهم يعتقدون أن أرواح النساء تتقمص جسد هذا الحيوان.

وعادات الأوناس على العموم أرقى وأكثر تعقداً من عادات الياهجان والألكالوف، وعددهم- مثل عدد هؤلاء- آخذ في التناقص بسبب الحروب والأمراض وصعوبة الحصول على الطعام. ويقدر عدد الموجودين منهم اليوم على قيد الحياة بما لا يزيد على مائة نسمة. ولن يمضي وقت طويل قبل أن "يكون جميع الفويجيين قد انقرضوا من الوجود. وسيبقى من آثارهم بعض أكوام من المحار وقليل من الأدوات، أما الفويجيون أنفسهم فسيبقون فقط في ذمة التاريخ"[٨].

---

(٨) Albes, Edward, the Fuegian & their Cold land of Fire.

الفصل التاسع

الإسكيمو

كما أن الياهجان الذين يقطنون فويجيا هم أبعد سكان الأرض إلى الجنوب، كذلك الإسكيمو والقطبيون الذين يقطنون شمال غرب جرينلند على مسافة تقل عن ألف ميل من القطب الشمالي هم أبعد سكان الأرض إلى الشمال.

والإسكيمو ينتشرون على طول خمسة آلاف ميل من شواطئ أمريكا الشمالية الواقعة على المحيط المتجمد الشمالي بين بحر بيرنج وشاطئ جرينلند الغربي ولبرادور. ويعيش قليل منهم على شاطئ جرنلند الشرقي وقليل على شواطئ بحر بيرنج الأسيوية. وتقع أشهر مواطنهم في كندا في المناطق القاحلة، وهي شواطئ المحيط المتجمدة وجزيرة بافن وجزيرة فكتوريا. وكانوا فيما مضى يعيشون أيضاً في كثير من الجزر الأخرى الواقعة في شمال كندا، وقد يكونون هجروها بسبب صعوبة الحصول على القوت فيها. ولم يحدث أن عاش الإسكيمو أبدًا في الجزر الواقعة في شمال أوراسيا.

ويوجد في الوقت الحاضر موطنان اثنان للإسكيمو في شرق جرينلند، أحدهما جنوب الدائرة القطبية ويقطنه الأنجماجسالك

Angmagssalik وهم من سلاسة المهاجرين القدماء الذين أتوا من الشواطئ الغربية، وثانيهما منطقة خليج سكورسبي Scoresby ويقطنها مهاجرون حديثو العهد جلبهم الدنمركيون. على أن هناك بقايا مساكن ومقابر تدل على أن الإسكيمو كانوا في وقت من الأوقات ينتشرون في معظم أجزاء الساحل الشرقي، وفي سنة ١٨٢٣ كان كلافرنج Clavering يلتقي بهم في جهات تمتد إلى الشمال حتى خط عرض ٦٤° ش. على أن هؤلاء قد انقرضوا من سنين، وهذا لا ريب راجع إلى الصعوبة المتزايدة في الحصول على الطعام والكساء بسبب انقراض الكاريبو في أواسط القرن الماضي، وكذلك إلى الانخفاض الهائل في عدد عجل البحر وثور المسك.

وعدد الإسكيمو أقل من أربعين ألفاً، منهم ١٥ ألفاً يعيشون في جرينلند، و١٤ ألفاً في كندا، وألف وستمائة في سيبيريا، وألف في لبرادور. وإذا استثنينا القاطنين منهم في أقصى شمال جرينلند، وربما القاطنين على ساحلها الشرقي كذلك، وجدنا أن إسكيمو جرينلند، أو الجرينلنديين كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم، ليسوا من الإسكيمو الخلص لأن دماءهم خالطها دم المستعمرين الأوائل من الجنس النوردي.



(شكل ٣٦) خريطة تبين التوزيع السابق والحالي للاسكيمو

ولا يوجد خلال ذلك الإقليم الشاسع الذي يقطنه الإسكيمو إلا جنس واحد يتكلم لهجات مختلفة من لغة واحدة، على أن الاختلاف بين اللهجات المختلفة يسير.

وقد أطلق عليهم الهنود من قبيلة كري Cree اسم إسكيمو أي "آكلوا اللحم النيئ"، ولكنهم يسمون أنفسهم إنوت Inuit ومعناه "الرجال". والإسكيمو مفتولو العضلات متناسبو الأجسام ولكن أيديهم وأقدامهم صغيرة، وقاماتهم تمثل إلى القصر إذ يتراوح متوسط الطول بين الرجال من خمسة أقدام وبوصتين إلى خمسة أقدام وأربع بوصات، بينما يقل المتوسط بين النساء عن هذا القدر بنحو خمس بوصات. وبشرتهم تميل إلى الأسمر الخفيف المشرب بصفرة، ولكن لون الخدود يميل إلى الحمرة. ورءوسهم طويلة وعالية وشكل الجمجمة يدل على اتساع التجويف المخي، ووجوههم عريضة وبيضوية، وعظام الوجنتين بارزة، وأنوفهم مستقيمة ودقيقة ولكنها طويلة قليلاً، وعيونهم سمراء قاتمة، ومع

أنها ليست منحرفة إلا أنها تتم عن بعض آثار انحراف العين المغولية. وشعرهم أسود خشن ولكن يندر أن يخطه الشيب، ما ينبت على وجوههم من شعر قليل، وهم ينتفونه حتى لا تتجمع عليه الثلوج في جو الشتاء القارس. ويترك الرجال شعر الرأس يطول ويمنعونه من التدلي على عيونهم بخيوط من الخرز، ويعقد بعض النساء شعر الرأس في أعلاها في شكل عقدة ويتنافسن أيهم ترفعه فوق هامتها عالياً. وملامحهم الجسمية تخفي إلى حد ما- ولكنها لا تمحو- وحدة الجنس الذي يجمع بينهم وبين الهنود في جنوبهم، وبينهم وبين المغول القاطنين في شمال آسيا الشرقي.

ويقطن الإسكيمو جميعاً، إذا استثنينا القليلين القاطنين داخل ألاسكا والبعض الذين يقطنون الأراضي الجرداء الواقعة غرب خليج هدسن، يقطنون جميعاً شواطئ المحيط المتجمد الشمالي، وكثيرون منهم شمال الدائرة القطبية الشمالية. ويتميز صيف تلك الجهات بنهار طويل مشمس مما يساعد على وجود فترة نمو سريع ولكنها قصيرة. وفي شمال الدائرة القطبية تصبح شمس نصف الليل ظاهرة تستحق الملاحظة، وحول خط عرض ٧٠° ش تختفي الشمس تحت الأفق شتاء نحو ستة أسابيع، ولكن الأرض لا يسودها الظلام لأن القمر يكون غالباً ساطع النور وتنير الجو غالباً أضواء الشفق القطبي الخافتة المتعددة الألوان التي تعبر الأفق مصحوبة بصفير خافت؛ ورغم ذلك فإن فترة الظلام المستمر مرهقة ولا يستطيع غير من عرفها أن يقدر حق التقدير ما تحمله عودة الضوء والدفء والأمل من مغزى لتلك الشعوب الشمالية.

ومع أن المتوسط السنوي للحرارة تحت درجة التجمد، ومع أن حرارة منتصف الشتاء قد تهبط حتى تصل إلى درجة ٥٠ فهرنهيت تحت الصفر، إلا أن الإحساس بالبرد لا يبلغ الإحساس به داخل سيبيريا أو في بعض الجهات الداخلية في أمريكا الشمالية. ومقدار الثلج الساقط قليل، وتتغطى الأرض على العموم بطبقة غير عميقة من الثلج تستمر إلى أن تنكسر حدة البرد في أبريل حيث تأتي العواصف الثلجية في ركاب الرياح الجنوبية الشرقية العاصفة، وحينئذ تأخذ الحرارة في الارتفاع ويختفي الثلج، ونحو أواخر يونية يظهر النبات وينمو بسرعة إلا فوق الهضاب العالية في داخل جرينلند. وقرب نهاية أغسطس تأخذ الحرارة في الهبوط مرة أخرى، حتى إذا حل منتصف سبتمبر بدأ الجليد يتكون فوق البحيرات. وتعلو ماء البحر في الخلجان المحمية من الرياح طبقة من الجليد يأخذ سمكها في الازدياد حتى يتكون منها بعد مدة سطح مستو أملس من الجليد يحف باليابس ويصبح امتداداً مؤقتاً له. أما في المواقع المعرضة فإن الجليد يتكون ببطء أو لا يتكون إطلاقاً، ثم تسوق الرياح أيضاً طافيات الثلج إلى الشواطئ فترتطم بها وتتكون منها أكوام جليدية غير منتظمة الشكل يستحيل على الزلاقات السير فوقها؛ ومثل هذه الشواطئ يتجنبها الإسكيمو لأن صيد عجول البحر فيها شتاء مستحيل.

ويظهر تأثير البحار القطبية– بما يكثر بها من كتل جليدية هائلة تسوقها الرياح– يظهر أثرها واضحاً في مناخ تلك الجهات، وبالتالي في الحياة النباتية فيما جاور الساحل، ففي فصل النمو القصير تتلقى المنطقة الساحلية قدراً وافراً من الرطوبة على هيئة مطر أو ثلج، أو في

الأغلب الأعم على هيئة شابورة وضباب. ويعوق البرد المقترن بالرطوبة نمو الأشجار فلا تنمو حتى القزمية منها، ولكن تزدهر الحشائش والنباتات العشبية فنجد المراعي القطبية الشاسعة التي تتكون من حشائش وحلفاء قصيرة ولكنها عظيمة القيمة الغذائية.

وعلى مسافة تتراوح بين خمسين ميلاً وخمسة وسبعين ميلاً إلى الداخل ينعدم تأثير البحر وتتغطى مساحات شاسعة من الأرض بأنواع من النباتات الخشنة القصيرة يكثر بينها شاي لبرادور ونبات الدفلي (Rhododendron) والبتولا الأرضية والتوت الأزرق blueberry وعنب الديب (cranberry)؛ وفي الوديان المحمية من الرياح تطول البتولا الأرضية والصفصاف القطبي وتتكون منهما أدغال متفرقة صغيرة المساحة، وتتغطى الأرض في كل مكان تقريباً ببساط سميك من الطحالب والطفيليات، ومن هذه الأخيرة، وكذا من عساليج الصفصاف والشجيرات يتكون الغذاء الأساسي لثور المسك والكاريبو في فصل الشتاء. وتلبس التندرا القطبية أبهى حلتها حوالي منتصف شهر يونية، "فنجد زهر الترمس الأزرق (blue lupines) الذي يضارع بألوانه وجماله الأنواع المنزلية المستنبتة، يغطى مساحات واسعة من الأرض، كما نجد زهر الخشخاش الأصفر وزهر الشمر البحري (saxifrages) وزهر آذان الفار (forget- me- note) وأنواعاً أخرى عديدة من الزهور ساحرة الألوان".



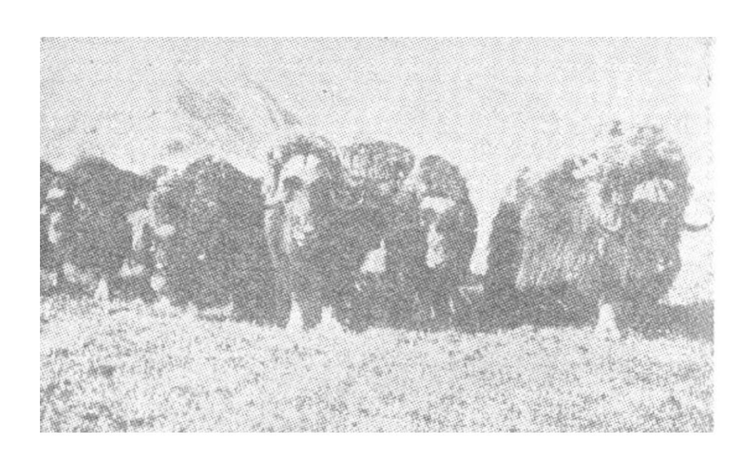
(شكل ٣٧) البراري القطبية في ألاسكا

وكذلك تزدهر الحياة الحيوانية، فالبعوض وباء مريع في يولية وأغسطس، وفي أواخر الصيف تظهر ملايين من الذباب اللاسع الذي ينفذ إلى العينين والأذنين والخياشيم والفم. وأهم ثلاثة حيوانات قطبية هي الدب القطبي والكاريبو وثور المسك. والكاريبو– أو الرنة الوحشية– يشبه الرنة المستأنسة شبهاً كبيراً وطباعه. وكانت التندرات منذ سنوات غير كثيرة تموج بملايين عديدة منه تهاجر في الربيع إلى الشمال وتنتشر على السواحل والجزر القطبية ثم تعود لتقضي الشتاء على حواف الغابات فيما يلي الدائرة القطبية الشمالية. ويكاد الكاريبو يكون من الضروريات التي لا يستغنى عنها الإسكيمو، إذ هي تمده بالملابس الثقيلة الضرورية له في ذلك الجو القاسي، كما تمده بالعصب الذي يصنع منه حباله وخيوطه التي يصيد بها الأسماك وعجول البحر، وبالعظام التي يصنع منها كثيراً من أدواته، وباللحوم. وقد نقص عدد الكاريبو كثيراً ولم يعد يهاجر في الربيع إلى السواحل والجزر، ويبدو أن "سلسلة نقط

الحراسة التي أقيمت على طول السواحل جعلته يولي وجهه نحو الشرق ثم يستدير ثانياً إلى الجنوب قاصداً مراعيه الشتوية".



(شكل ٣٨) الكاريبو يسبح نهر اليوكون في ألاسكا خلال هجرته السنوية



(شكل ٣٩) ثيران المسك

وثور المسك له جسم أصغر قليلاً من جسم البقر المستأنس، ولكن ما ينمو فوق جسمه من شعر كثيف وما له من قرون هائلة يكسبه منظراً هائلاً؛ ومن عادة هذا الحيوان إذا أخيف أن ينتظم في شكل مربع يتقدمه

الذكور لمواجهة العدو، وهذا ما يجعلها فريسة سهلة للصيادين. ومنذ سنوات قليلة نسبياً كان ثور المسك يهيم في كل نواحي التندرا كما كان يهيم في كثير من جزر المحيط المتجمد الشمالي وبعض نواحي جرينلند، وهي لا تهاجر كما يفعل الكاريبو ولكنها تلزم مكاناً واحداً ترعى فيه ولا تتركه إلا إذا نفد ما به من مرعى. على أن الإسكيمو قد أعملوا فيها القتل السريع ولا سيما منذ عرفوا الأسلحة النارية، حتى إنها قد أصبحت اليوم نادرة الوجود ولم يبق منها إلا قليل في بعض بقاع لا يسهل الوصول إليها. وقد حرمت الحكومة الكندية قتل هذه الحيوانات كما حرمت على البيض والوطنيين الاتجار في جلودها، رغبة منها في المحافظة على ما بقي من هذا الحيوان ذي اللحم العظيم القيمة الغذائية. ومنذ سنوات وضعت أكبر هذه القطعان البرية تحت حماية الحكومة في "حرم" خاص في ثلون Thelon.

ويفد على الأقاليم القطبية في فصل الصيف كثير من الطيور، يصيد الإسكيمو منها النور (gulls) والغطاس (divers) والأوز والبط وأنواع القطا، كما يجمعون بيض البط في الربيع، فيأكلون منه ما يحتاجون وما يتبقى منه يدفنونه في الأرض لوقت الحاجة. وجدير بالذكر أن الإسكيمو لا يأنفون من أكل البيض الذي قد نسميه فاسداً، ولا الطعام الذي بدأ الفساد يدب فيه.

وفي الأنهار توجد الأسماك ولا سيما جباد العرق tront، وفي البحار يوجد الحوت والهلبوت والسلمن، كما يوجد نوع من الرنجة في الأجزاء

الجنوبية من خليج هدسن. ويلعب السمك دوراً هاماً في غذاء الناس والكلاب، ولكن أهم مواردهم الغذائية هي الثدييات البحرية المسماة حصان البحر (walrus)، وهو نوع من الفقمة، والحوت الأبيض وهو نوع من الخنازير البحرية يصاد عادة بالشباك عند مصاب الأنهار الخليجية، وكركدن البحر، وهو نوع آخر من خنازير البحر للذكور منه أنياب يبلغ طولها ثمانية أقدام، وعجل البحر. وهذا الأخير يمد الأهالي بالجلود التي يتخذون منها ملابس الصيف وأغطية القوارب وأغطية الخيام الصيفية، وباللحم الذي يأكلون وبالشحم الذي يتخذون منه وقوداً لمصابيحهم التي يستعملونها في التدفئة وفي الطبخ على السواء، ولولا عجل البحر لأصبحت حياة الإسكيمو من الصعوبة بمكان.

ولا يجد الإسكيمو من الخشب إلا ما يقذفه البحر أو ينحدر مه مياه الأنهار، وحتى هذا نادراً في بعض المناطق، فلا غرابة إذن أن كان شحم عجل البحر عندهم من الأهمية بمكان. وليس لديهم من الأغذية النباتية التي يمكن جمعها إلا قليل جداً، ولا تستطاع زراعة شيء منها بسبب الأحوال المناخية التي تسود بلادهم، ولذلك لم يكن لهم بد من أن يعيشوا على الصيد وأن يعتمدوا أكبر الاعتماد على صيد البر والبحر لا في غذائهم فحسب بل في ملبسهم ووقودهم وصنع أسلحتهم أيضاً، وفي بعض الجهات في إنشاء مساكنهم كلها أو أجزاء منها، على أنهم يبدون عبقرية فائقة في كل هذا.

ومن الإسكيمو قبيلة واحدة لا تعتمد في حياتها على البحر إطلاقاً

وتجهل الحياة على السواحل جهلاً تاماً، ويعيش أفراد تلك القبيلة في الداخل إلى الغرب من خليج هدسن حول بحيرة ياتكيد Yathkyed، وهم يعتمدون اعتماداً كبيراً على الكاريبو في طعامهم وملبسهم، ولذا أطلق عليهم اسم "إسكيمو الكاريبو"، وهم يصيدون السمك أيضاً من البحيرات والأنهار بواسطة الفخاخ والحراب، ويستعملون شحم الكاريبو في الوقود، ولكن ما يولده من حرارة يقل كثيرا عما يولده منها دهن عجل البحر، ولذلك لا تبلغ منازلهم من الدفء في الشتاء ما تبلغه منازل غيرهم، وهم في الواقع يحيون حياة أكثر تأخراً من حياة أي شعب إسكيمي آخر، ويعتقد بعض الثقات أنهم بقايا الإسكيمو الأولين الذين بقوا في هذه البقاع المنعزلة بينما هاجر سائر إخوانهم إلى السواحل.

لماذا هاجر أولئك من التندرا؟ وهل وصلوا إلى السواحل في أثر الكاريبو؟ وهل أكتشفوا عند وصولهم إلى السواحل أن دهن الحيوانات البحرية يمدهم بحرارة أكثر مما يمدهم به شحم الكاريبو؟ أو هل اضطروا إلى الهجرة صوب السواحل أيام ضغط قبائل معادية لهم من الهنود؟ كل هذه أسئلة لم يعرف الجواب الصحيح عنها بعد. ولكن المتفق عليه عموماً أن كثيرين منهم رحلوا إلى السواحل المتجمدة وهناك تطورت طرق حياتهم بحيث تتفق مع البيئة الجديدة من بحار وجليد، وبعد ذلك انتشروا بالتدريج غرباً إلى ألاسكا، ولا يدري أحد إذا كانوا قد انتشروا في نفس الوقت نحو الشرق.

ثم نشأ فيما بعد نوع آخر من الثقافة حول شواطئ بحر بيرنج،

حيث تقدمت وسائل الصيد البحري ولا سيما صيد الحوت والفقمة من قوارب مكشوفة مصنوعة من الجلد تسمى (يومياك) Umiaks. وقد انتقلت هذه الثقافة شرقاً على طول ساحل المحيط المتجمد الشمالي على أيدي الإسكيمو الذين استوطن بعضهم جزر الأرخبيل القطبي وكذلك جرينلند.

وكان صيادو الثدييات البحرية هؤلاء ينشئون لأنفسهم مساكن نصفها تحت الأرض وحوائطها من الحجر والعشب وجماجم الحيتان وسقوفها تعتمد على عظام أضلاع الحوت وفكيه، وكان يدخل إليها من ممر حجري ضيق وعميق، وقد أطلق راسموسن Rasmussen على طريقة الحياة هذه اسم "ثقافة ثول" نسبة إلى مكان في شمال غرب جرينلند عثر فيه لأول مرة على بقايا هذا النوع من الثقافة وأطلق عليه اسم ثول. ولا تزال طريقة الحياة هذه توجد اليوم- مع تطور طفيف- في الأقاليم النائية في إقليم بارو Point Barrow في آلاسكا ورأس يورك في جرينلند.

ويوجد شبه كبير بين ثقافة الإسكيمو القطبي القاطن قرب رأس يورك وبين ثقافة ثول، فالرجال يلبسون سراويل من جلد الدب وتلبس النساء أحذية عالية بينما مساكنهم الحجرية المستديرة هي سليلة المساكن التي كانت تصنع من عظام الحوت. وهؤلاء هم أشد قبائل الإسكيمو عزلة، وعند مازار بلادهم سيرجون روص في ١٨١٨ وجدهم يعتقدون أنه ليس على ظهر الأرض سواهم. وأخيراً- وفي زمن حديث نسبياً- حدثت موجة

من الهجرة من الأقاليم الداخلية؛ والذين قاموا بهذه الحركة هم الذين يقطنون الآن بعض سواحل المحيط القطبي، وهم الذين قضوا على ثقافة ثول في الإقليم الواقع حول خليج هدسن.

ويمكن النظر إلى إسكيمو الأقاليم الوسطى على أنه يمثل الإسكيمو خير تمثيل، لأنه يم يتعرض لتأثير الأوروبيين إلى نفس الدرجة التي تعرض لها إسكيمو جرينلند ولبرادور والأقاليم الغربية من المنطقة القطبية. وهؤلاء الإسكيمو يقيمون مساكنهم الشنوية على الساحل وقد يقيمونها على الجليد نفسه؛ وقد يبقون هناك حتى شهر مارس أو إبريل. وأهم ما يقومون به في تلك الفترة صيد نوع واحد من الحيوان هو عجل البحر، فيقوم الصياد مع الفجر ويسير فوق الجليد يسحب معه كلبه الذي تقتصر مهمته على معرفة الثقب الذي يكمن فيه عجل البحر. فإذا عثروا على ذلك الثقب قام الصياد بفحصه فحصاً دقيقاً فأدلى عوداً طويلاً رفيعاً من قرن الكاريبو- وفي الأزمنة الحديثة يدلون سلكاً ثقيلاً من الحديد- للتعرف على المركز الحقيقي للثقب، لأنه يتغطى عادة بثلج كثافته نحو قدم أو قدمين. ومن المهم جداً ألا يضطرب نظام الثلج لأن نفاذ أي قدر غير عادي من الضوء إليه يمنع الحيوان من للمجيء إليه للتنفس، ويحتفظ كل عجل من عجول البحر بعدد من هذه الثقوب مفتوحاً، ويبدو أنه يمر عليها بالتناوب. ويترك الصائد عادة في كل ثقب "غمازاً" من العاج أو العظام يتحرك بمجرد أن يطل العجل ببوزه، ثم يقيم حاجزاً من الثلج لصد الريح. ويقف الصائد على أهبة الاستعداد ورمحه في يده، ويبقى في الانتظار في ذلك البرد القارس الذي يتميز به النهار

القطبي القصير، حتى يتحرك الغماز. وقد يحدث هذا بعد دقائق أو بعد ساعات، وعند ذلك يرفع الصائد رمحه ويقذف به في بوز العجل فتعوض رأس الرمح– وهي قابلة للانفصال– في لحمه، وينفك الخيط كلما حاول الحيوان الهرب، ويقوم الصائد بإجهاد الفريسة، وأخيراً يجرها إلى سطح الماء.

وتستعمل في بعض أجزاء جرينلند طريقة خير من هذه، فيستعمل ثقب أو ثقبان متقاربان قد يكون أحدهما أو كلاهما من عمل الصياد نفسه، ويجلس أحد الرجال قرب أحدهما يراقب الحيوان ويحاول إغراءه بتقديم الطعم له، بينما يقف الصياد على الثقب الآخر، وعندما تعطى إشارة متفق عليها يقذف بالرمح إلى الفريسة. ويستحيل صيد عجل البحر أثناء العواصف الثلجية أو الضباب الكثيف، فإذا سادت مثل هذه الأحوال عدة أيام فقد يهلك الإسكيمو جوعاً، لكن ربما ينقذه من مثل ذلك المصير ما يكون قد ادخره مما صاد في فصل الصيف.

وحوالي شهر مارس، عند ما يزداد الدفء بازدياد طول النهار، تتكون بين الجليد ممرات من الماء، وعندئذ تبدأ العائلات في التفرق ليقوموا بصيد عجول البحر في الماء أو بمفاجأتها وهي تتشمس على حافة طافية ثلجية أو على الصخور أو بجانب ثقوبها التي تتنفس منها، وفي هذا الوقت من السنة تتجمع عجول البحر في قطعان كبيرة وتولد صغارها، ولذلك كانت أيام الربيع الأولى هي الموسم الهام لصيد الحيوان عن طريق المفجأة، فيترك الصائد زلاقته على مسافة من المكان الذي

ينتظر أن يجد فيه طلبته، ويتقدم هو وكلبه حتى يلمح عدداً من العجول، وحينئذ يزحف فوق الثلج ورأسه متخفية في جلد عجل من عجول البحر إلى أن يصير على مسافة قصيرة تسمح له بأن يقفز فجأة ويغرس حربته في أحدد العجول. وقد يستطيع الصائد أن يحصل بهذه الطريقة على عدد كبير من العجول، ولكن بعد فترة قصيرة تتكسر كتل الثلج وتتسع المرات المائية ويصبح من العسير الصيد بهذه الطريقة.

على أن طريقة الصيد تختلف أيضاً في جهات أخرى كجزيرة بافن وسواحل خليج هدسن الشمالية، إذ يترك الصياد زلاقته ويلجأ إلى قارب من الجلد يسمى كاياك Kayak ويأخذ معه حربته ويتعقب عجول البحر وغيرها من الحيوانات البحرية كالحوت والقيطس.

وكان الإسكيمو فيما مضى يصيدون ثور المسك في مثل هذا الوقت من السنة، ولكن هذا الحيوان قد انقرض تقريباً. ويصاد الدب القطبي الذي يعيش فوق الجليد المندمج Pack-ice عندما يأتي إلى السواحل في الربيع بحثاً عن صغار عجول البحر، وهم يتعقبونه في زلاقاتهم إلى أن تضيق عليه كلابهم الخناق وتقضي عليه.

وعند اقتراب الصيف يترك الإسكيمو البحر ويتجهون إلى الداخل بحثاً وراء الكاريبو وغيره من حيوان الصيد، ومن طرق صيد الكاريبو المفضلة والناجحة أن يساق قطيع إلى نهر أو بحيرة حيث تعمل فيه حراب الصيادين الذين يتربصون له في قواربهم. وهناك طريقة أخرى هي سوق القطيع إلى واد ضيق نحو صف من الصيادين مختبئين في فجوات

أو خلف شجيرات ومسلحين بالأقواس والسهام. وتصاد الذئاب والأرانب بواسطة الفخاخ والحبائل، بينما تصاد الطيور التي تهاجر شمالاً في الصيف بواسطة حراب خفيفة تقذفها أداة قذف خاصة، وكذلك بواسطة الشباك.

وصيد السمك من أهم أعمالهم التي يقومون بها في الصيف، وأهم ما يصيدون هو السلمن Salmon trout. ففي الصيف تهاجر كبار الأسماك صعداً في الأنهار صوب البحيرات، بينما تهبط إلى البحر أسراب الصير التي لا تتعدى العام الثاني من عمرها. ويصاد السمك بحراب عبقرية الصنع ذات ثلاث أسنان، أو بالشباك- وهي طريقة منقولة عن الغرب، أو يقيمون على مصاب الأنهار سدوداً يحجر السمك خلفها وقت الجزر. ويتخيرون لذلك بقعة ضحلة من مجرى أحد الأنهار يقيمون بها حائطاً قليل الارتفاع موازياً للشاطئ، ثم يبنون قرب طرفها المتجه نحو أعالي النهر حائطاً دائري الشكل يتركون فيه فتحة صغيرة تسمح بدخول السمك إلى البحيرة التي استحدثوها، وينشئون في الطرف الأدنى من الحائط فتحات ضيقة وطويلة لكي يهرب إليها السمك عندما يزعجه الصيادون في ماء البحرية، فإذا دخل إليها يجد منها مخرجاً إذ ليس بها من الاتساع ما يكفيه للاستدارة والرجوع، وحينئذ يصبح من السهل إمساكه باليد.

ويصاد السمك كذلك بسنانير من العظم أو العاج ذات "أذقان"، وهي لشدة الشبه بينها وبين السمك الصغير تستعمل بدون "طعم". وتقوم

النساء في فصل الصيف بجمع أنواع عديدة من التوت (berries) والجذور الصالحة للطعام، على أن القدر الذي يجمعونه منها قليل، ولذلك تعتبر في نظرهم من مواد الترف. ومن عاداتهم خزن مقادير كبيرة من الطعام في مخابئ تحت الأرض يغطونها بالحجارة لتذود عنها الثعالب وغيرها، وكثيراً ما ينصبون الفخاخ للإيقاع بهذه الحيوانات المتلصصة.

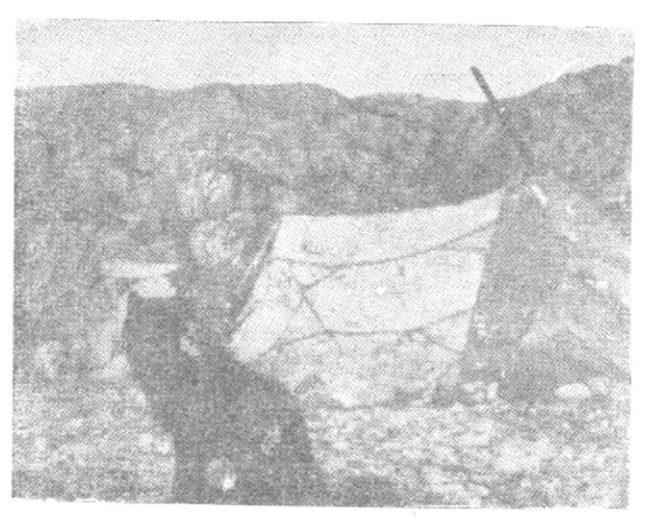
للإسكيمو، إذن، نظام فصلي محدد، فهم في الشتاء يعيشون في جماعات صغيرة العدد تتكون من بضع عائلات تسكن بيوتاً مقامة على الجليد أو على أطراف الشواطئ، وعندما يحل الصيف تتفرق الجماعات إلى عائلات وتتجه نحو الداخل وتسكن الخيام. وقد وصف ديامندجنس Diamond Jenness هجرات الإسكيمو القاطنين في إقليم خليج كورونيشن Coronation Gulf فقال:

"في الشتاء عندما تتغطى الأرض الجرداء الساكنة بالثلوج، وعندما يكون الكاريبو قد هاجر إلى الجنوب، وعندما تصير ساعات الشفق قصيرة والليالي طويلة، يكون الأهالي قد تجمعوا سوياً في قبائل، وتكون كل قبيلة قد انضمت إلى قبيلة أخرى ليتعاون الجميع في الكفاح من أجل الحصول من البحر على قليل مما يقيم الأود. وقد صار الطعام قسمة بين الجميع، وتلاصقت المنازل المقامة من الجليد حتى لكأن العائلات قد اندمجت كلها في جماعة واحدة. وعند عودة الشمس وزيادة طول النهار استعادت الطبيعة نشاطها، فظهرت عجول البحر فوق سطح الجليد، وعادت قطعان الكاريبو إلى الشمال، وتفرقت قبائل

الإسكيمو إلى جماعات قليلة العدد وكانوا قد تلكأوا فوق الجليد برهة من الزمن ليصيدوا مزيداً من عجول البحر، ثم ولوا وجوههم بعد ذلك شطر الداخل ليطاردوا الكاريبو فوق التلال التي تكسوها الثلوج وفوق السهول. ثم أخذ الثلج يختفي وتفرقت قطعان الكاريبو، ولم يبق للناس مورد ثابت يعتمدون عليه إلى منتصف الصيف سوى الأسماك، وبذلك أخذت الجماعة التي أصحبها– كما أخذت سائر الجماعات في طول البلاد وعرضها– تتفرق إلى العائلات التي تتكون منها، وبدأت كل واحدة منها تسعى وراء قوتها، ولم يعد للقبيلة وجود بل تحلل المجتمع إلى عناصره الأولى وهي الأسرة".

وتختلف طريقة الحياة اختلافاً يسيراً نحو الغرب في ألاسكا ونحو الشرق في جرينلند ولبرادور بسبب الاختلاف في المناخ، ولا سيما في طريقة تكون الجليد والفترة التي يتكون فيها. ففي آلاسكا وغرب جرينلند ولبرادور يقصر الشتاء قليلاً ويخلو البحر من الجليد في فترات أطول، بينما تصبح طفايات الجليد أقل مساحة؛ وفي مثل هذه الأحوال يخرج الصيادون وحدهم في زلاقاتهم فوق الجليد في رحلات قصيرة يعودون بعدها إلى عائلاتهم المقيمة على الشاطئ في أكواخ أمتن بنياناً من الإجلو (Igloo المنازل الجليدية). فإذا اتجهنا نحو الجنوب، إلى جنوب ألاسكا وجنوب غرب جرينلند وجنوب لبرادور، وجدنا الشتاء أقل قسوة والجليد فوق البحار أقل امتداداً، ويعيش الأهالي على السواحل ويصيدون نفس الحيوان، ولكنهم يتبعون في ذلك طرقاً مختلفة، فيحل القارب المصنوع من الجلد والمسمى كاياك Kayak محل الزلاقات

وفرق الكلاب، ويخرج الصائد إلى البحر في قاربه الجلدي سعياً وراء عجول البحر والقياطس، فإذا أريد صيد الحوت أو نقل عدد كبير من الناس استعملوا نوعاً كبيراً من القوارب الجلدية يسمى يومياك umiak. ورغم هذا الاختلاف لا يزال الناس هنا يهاجرون في الصيف إلى الداخل، إلا في جرينلند حيث تقوم الغطاءات الجليدية الداخلية حائلاً دون الهجرة وتقصر السكني على المناطق الساحلية، بينما في جنوب لبرادور وألاسكا تغري أرباح صيد الحوت والفقمة في الصيف كثيراً من الصيادين بالبقاء على السواحل.

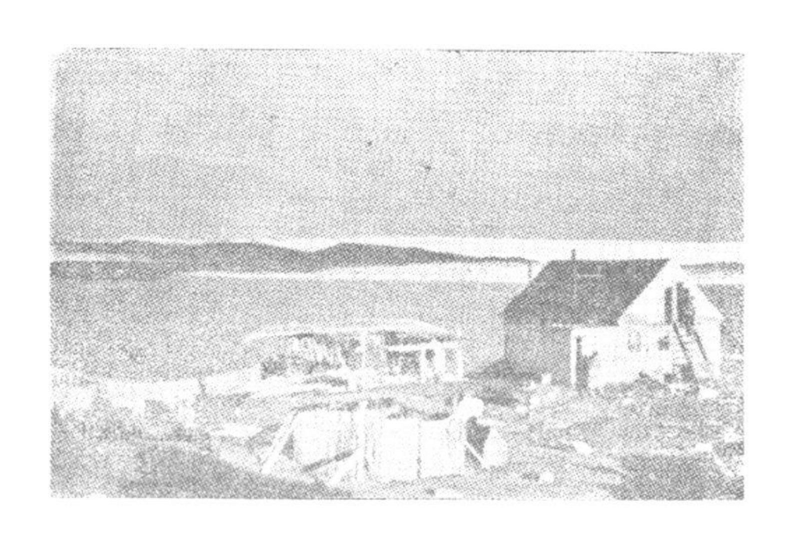


(شكل ٤٠) إحدى خيام الإسكيمو المصنوعة من جلود عجل البحر

ومساكن الصيف في كل مكان خيام من جلود عجل البحر أو جلود الكاريبو، ولكن شكلها يختلف اختلافاً يسيراً من منطقة إلى أخرى، فهي في الشرق على هيئة جمالون جزؤها الخلفي شبه مخروط، وفي الغرب مخروطية الشكل، بينما في حوض نهر مكنزي وبعض جهات ألاسكا

يدعمون هيكل الخيمة المخروطي بطوق يرتفع عن الأرض نحو ستة أقدام، وكثير من سكان ألاسكا ينصبون خياماً مستديرة أو مقببة، وهي منقولة عن جيرانهم من قبائل الكتشين (Kutchin).

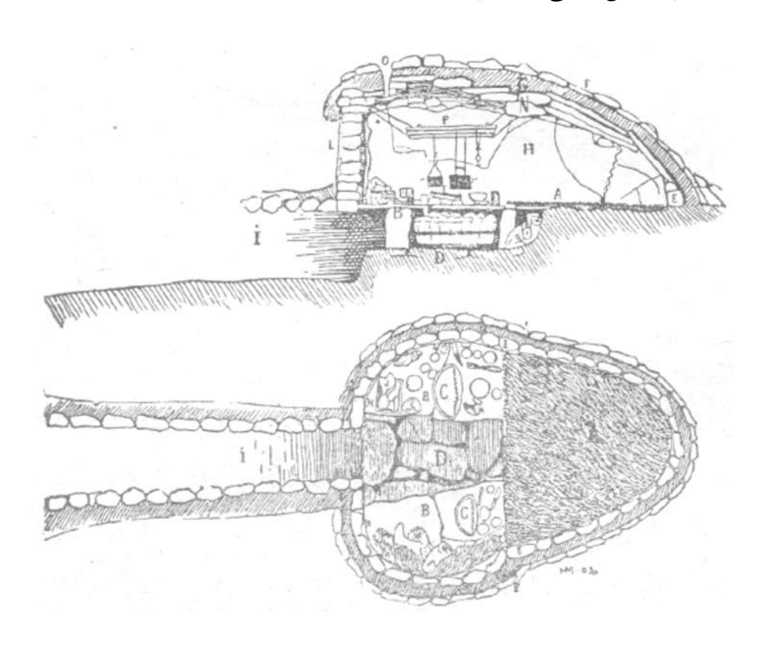
وتتابين مساكن الشتاء من جهة لأخرى، ومن أسباب ذلك اختلاف الظروف في كل منها، فأينما تكثر الأخشاب التي تحملها المياه– كما هي الحال في المناطق الساحلية من ألاسكا وفي دلتا نهر مكنزي– يبنى الإسكيمو منازلهم على شكل مستطيل يبلغ طوله من ثمانية أقدام إلى عشرة ولها مداخل طويلة ضيقة، وهذه المداخل محفورة في الأرض، وكذلك الجناح الأوسط من المنزل، ولكن أرض هذا تعلو عن أرض المدخل نحو قدم وبذلك تحول دون وصول التيارات الهوائية. وتنبسط مستلزمات النوم من فراش وأغطية من الجلد في الجزء الخلفي من المنزل إذ يحتفظون بالأجزاء الجانبية منه للخزين وللموقدين اللذين يخص كل منهما إحدى الأسرتين اللتين تسكنان الكوخ عادة. وفوق كل من الموقدين تعلق قدر الطهي، وفي أعلى هذه تثبت صينية كبيرة أو رف توضع فوقه الملابس لتجف. أما حيطان المنزل فمن كتل الخشب وطين الأرض أو الحجر وارتفاعها نحو خمسة أقدام أو ستة، تستقر عليها عروق مائلة من الخشب الذي قذفت به المياه أو من عظام الحوت، تغطى بطين الأرض أو بطبقتين من جلود عجل البحر بينهما طبقة من الطحالب. وفوق النهاية الداخلية للمر تثبت قطعة من جلد أمعاء الحيوان تقوم مقام النافذة.



(شكل ٤١) صورة أحد منازل غرب جرينلند وفيها تظهر حظيرة الكلاب والمكان المعد للزلاقات والكاياك

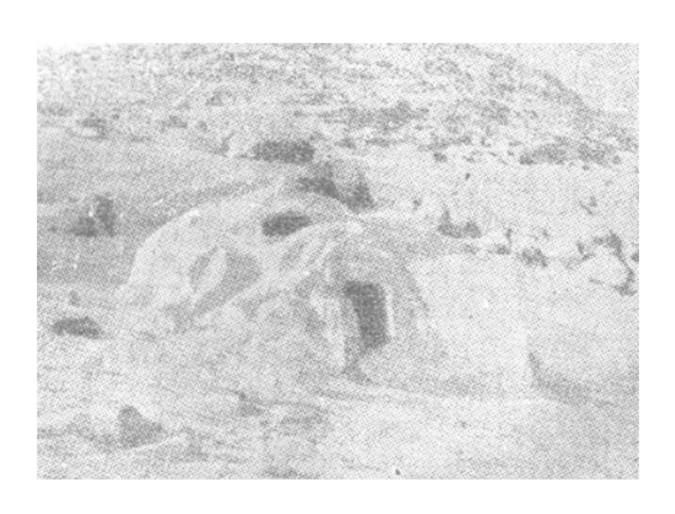
ويبنى الجرينلنديون منازل من كتل الخشب ذات نظام يختلف عن نظام المنازل في ألاسكا، وهذا لا شك راجع إلى تأثير الجنس النوردي، ولكن الإسكيمو القطبي لا يستعمل العظام ولا الخشب ولا كتل الجليد في بناء مسكنه، فمنازلهم بيضية الشكل متسعة من الأمام وتضيق نحو الخلف، ويندر أن تزيد على اثنى عشر قدماً في عشرة أقدام، ولا يزيد ارتفاعها على القدر الذي يكفي لرجل متوسط الطول أن يقوم فيها واقفاً. وتبنى الحيطان من الحجر وتستقر فوقها دعامات من الحجر فوقها طبقة من الأردواز، وفوق كل هذا توضع طبقة أخرى من التربة وطبقة أخرى من الحجر. ويبلغ طول نفق الدخول نحو عشرة أقدام ويغطى بالحجارة والتربة، ويحمي مدخله حائط من الجليد. ويؤدي النفق إلى الفرقة الوحيدة عن طريق باب صغير يقل ارتفاعه عن قدمين. وتكاد أرض

المسكن تصل في ارتفاعها إلى مستوى سقف المدخل، وترصف بالحجارة تغطيها طبقة من العشب والجلود، وعلى جانبيها في أقصى الداخل تقوم مصطبتان مرتفعتان، كما يوجد في واجهة المنزل وأعلى بابه نافذة صغيرة تطل على البحر.



(شكل ٤٢)

قطاعان لمنزل الإسكيمو القطبي: A– مصطبة للنوم. B– مصطبة جانبية C– مواقد من حجر الخفاف. D– أرضية من الحجر. EF– أحجار الحائط. G– أعشاب. H– غرفة فوق المصطبة. I– صندوق اللحم. K– سكين ربة المنزل. L– ضلفة من جلد الأمعاء. M– أواني الطهي. N– أحجار السقف. O– ثقب الهواء. P– إطار التجفيف. R– غرفة تحت المصطبة.



(شكل ٤٣) "إجلو" به نافذة من جلد الأمعاء

وتتركب النافذة من جلد تركب به قطعة من جلد الأمعاء فيها ثقب صغير للتطلع، ولكي يصير الجلد ثابتاً ويمنع دخول الهواء تثبت أطرافه تحت الحجارة والتربة في الحائط وفي السقف. وتبطن الحيطان والسقف بالجلود، بينما تتدلى الأدوات والممتلكات المنوعة من مشاجب من العظام. وتفرش المصطبة الخلفية بالطحالب اليابسة وجلود الدب، وتستعمل لجلوس سكان المنزل ونومهم، أما المصاطب الجانبية فتستعمل- كما هي الحال في المساكن التي سبق الكلام عليها- للخزين ولوضع المواقد. والمساكن على العموم حسنة التهوية وهوائها دائم التجدد، فتتسرب الأدخنة والروائح عن طريق ثقب في السقف أو ثقب التطلع، ويدخل الهواء من النفق ويدفأ بمجرد وصوله إلى مستوى الموقدين وترتفع درجة الحرارة إلى حد يجعل السكان يخلعون بعض ما يلبسون.

والمنزل المقام من الجليد على شكل نصف كرة- المعروف باسم إجلو Igloo- والذي يبدو أن إسكيمو آلاسكا لم يعرفوه وأن إسكيمو دلتا نهر مكنزي وجرينلند كانوا يستعملونه فقط كمأوى مؤقت عندما يسافرون في الشتاء، كان هو النوع الوحيد الذي عرفه الإسكيمو الكنديون. ولإقامة هذا النوع من المسكن يقطعون كتل الجليد على شكل أسافين، أي سميكة من أحد طرفيها ورقيقة من الطرف الآخر، يقطعونها من ثلج شديد التماسك بسكين من العظام أو من العاج، وترص هذه القطع على شكل قبة، وتوضع قطعة الجليد النهائية فوق فتحة المدخل بحيث تتدلى إلى الخارج، وما يبقى في النهاية من شقوق يسدونه بواسطة الثلج. ويزداد تماسك الجليد بعد فترة من استعماله، لأن ما يذوب من سطح الحوائط من الداخل سرعان ما يتماسك ثانياً ويتحول إلى جليد. في بعض المناطق يبطنون الكوخ بطبقة من جلود عجل البحر يشدونها بحبال مصنوعة من عصب الحيوان تمر من ثقوب في الحيطان وتنتهي في الخارج بعروة يمر فيها وتد ليمسك بها ويمنعها من الانفلات، ويتركون بين الجلود وبين الحيطان مسافة كبيرة ليحول الهواء البارد فيها دون ذوبان الحيطان بسبب الهواء الدافئ في داخل الكوخ. ويتركون نافذة يغطونها بالجليد أو بقطعة من جلد أمعاء الحيوان، فوق مستوى النفق الذي يؤدي إلى مدخل الكوخ، والذي يجعلون في نهايته الخارجية حنية حادة تحول دون تسرب التيارات الهوائية الشديدة، ويغلق باب النفق ليلاً، أو في أي وقت شاءوا بقطعة من الجلد أو كتلة من الجليد. ويشبه نظام الكوخ من الداخل نظام الأنواع الأخرى التي سبق ذكرها،

ففي الجوانب توجد رفوف للخزين وللمواقد، ويف الخلف توجد مصطبة النوم تغطيها الجلود والطحالب لتحول دون ذوبان الجليد الذي تتكون منه. وهذا الكوخ الجليدي الذي يؤوى في العادة أسرتين يبلغ قطره من اثنى عشر قدماً إلى خمسة عشر، كما يبلغ ارتفاعه نحو تسعة أقدام أو عشرة، ويستغرق بناؤه بعض الوقت، لكن المساكن المؤقتة التي يبلغ قطر أحدها ستة أقدام يمكن بناؤها في ساعة واحدة. ويغلب أن يبني عدد من هذه المساكن متجاورة ومتصلة بمرقص، وهو مكان يستعمل للغناء وللعرض الذي يقوم به الشامان، كما يستعمل للرقص.

ومهما كانت طبيعة المساكن الشتوية فإنها جميعاً تدفأ بطريقة واحدة هي طريقة المواقد، والموقد هو "صينية" ضحلة مجوفة من حجر الخفاف أو من الصلصال كما هي الحال في إقليم بحر بيرنج، عليها صف من الفتائل مصنوعة من الطحلب أو من عشب القطن، تتغذى بالزيت من شحم عجول البحر وغيرها من الثدييات البحرية أو من دهن الكاريبو. ويطهى الوطنيون الساحليون طعامهم فوق هذه المواقد في قدور مصنوعة من الحجر المذكور، أو من الفخار كما هي الحال في ألاسكا. وفي فصل الصيف فقط، من مايو إلى سبتمبر، يستطيعون الاستغناء عن المواقد، ويطهون طعامهم خارج الكوخ فوق نار موقدة من الخشب الذي تقذفه المياه ومن العشب والصفصاف القصيع وغيرها. وتولد النار بقدح قطعتين من حجر البيريت أو حك قطعتين من الخشب.



(شكل ٤٤) فتاة من الإسكيمو، من سكان سواحل خليج كورونيشن

ومن الضروري في الأحوال الجوية السائدة أن تكون ملابسهم مما يبعث الدفء، وهي تتخذ عادة من جلود الكاريبو لأنها أكثر دفئاً وأخف حملاً وأكثر طراوة من جلود عجول البحر. على أن لها عيباً واحداً هو أن رطوبة الجو تذهب بما عيلها من فراء، ولذلك يحتفظ معظم الرجال بأردية من جلود عجول البحر يستعملونها في الجو الرطب. وحيث لا يسهل الحصول على جلود الكاريبو- كما هي الحال في شمال غرب جرينلند- يلبس الإسكيمو في أوقات البرد القارس أردية من فراء الدب القطبي. وتصنع الأحذية والمراكيب من جلود عجول البحر، وتصنع

أولاهما في الغالب من طبقتين من الجلد يحشى ما بينهما بالطحالب لتساعد على حفظ القدمين دافئتين. ولا تختلف ملابس الذكور في شكلها عن ملابس الإناث، وكذلك لا تختلف الملابس من مكان إلى آخر إلا قليلاً في أرجاء تلك المساحات الشاسعة التي يقطنها الإسكيمو. وليست ملابسهم مجرد دثارات يلتفون بها، بل تفصل تفصيلاً وتخاط بعناية تامة كي تناسب شكل الجسم وتسمح بحرية الحركة لأعضائه عند الرجال والنساء على السواء. وتخاط أجزاء الجلد بعضها إلى بعض بعناية بخيوط من العصب، وتزين بشرائط رفيعة من الجلد أو من الفراء ملونة بألوان مختلفة. ومما هو جدير بالذكر هنا أن الإسكيمو هم الوحيدون من بين سكان أمريكا الشمالية الذين استعملوا الكشتبان. ولستراتهم التي تقفل من الأمام برانس يمكن رفعها فوق الرأس والأذنين ويستغنون بها عن لباس الرأس، والواقع أنهم لا يلبسون شيئاً على رءوسهم إلا أثناء الرقص. وتقص السترة قصيرة من الأمام، ولكنهم يتركون لها من الخلف ذيلاً طويلاً ينتفع به الصائدون والقناصون الذين يضطرهم عملهم إلى الجلوس أحياناً ساعات طويلة فوق الجليد ليراقبوا ثقوب عجول البحر. وتشبه سترة المرأة سترة الرجل شبهاً كبيراً، ولا فرق بينهما إلا في ازدياد العرض عند الكتفين وكبر حجم البرنس.

وتحمل الأمهات صغارهن في جيوب فقي ظهر السترة، وليست في البرنس كما يقال أحياناً، لأن ثقل الطفل قد يعرض الأم في هذه الحالة للاختناق. ويتخذون من الفراء كفوفاً يصنعونها بطريقة تجعل من السهل وصلها بأكمام ستراتهم، ويلبس الرجال والنساء على السواء سراويل،

ولكن سروال المرأة يقل في الطول قليلاً عن سروال الرجل؛ ويلبس الرجال جوارب (من الجلد) تصل إلى أطراف السروال وتغطى منه جزءاً صغيراً، وفي الصيف يلبسون أحذية في مثل طول الجوارب، ولكنهم في الشتاء يستبدلون بها المراكيب (الأحذية الواطئة التي لا تصل إلا إلى العقبين)، وتلبس النساء في الشتاء مراكيب ماثلة، ولكن جواربهن تشبه الأحذية الواسعة وتصل إلى الردفين، وتشد إلى أحزمتهن بسيور من الجلد.

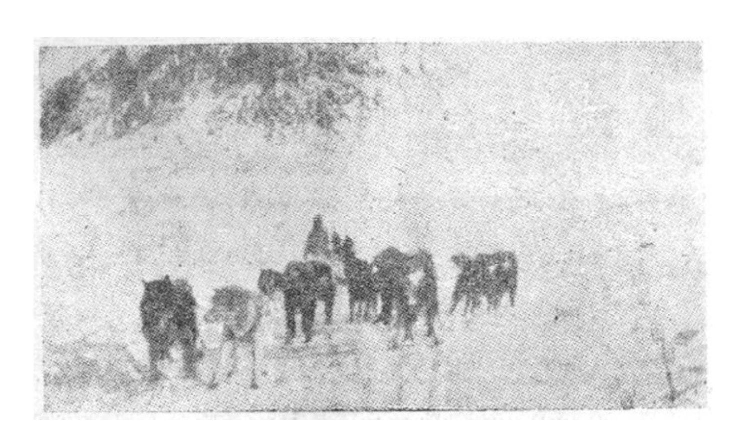
وللنساء في إقليم خليج هدسن جيب واسع في الجانب الخارجي من كل من الجوربين، ويلبسن في الصيف أحذية تشبه جواربهم في شكلها. وفي بعض المناطق يلبسن في الشتاء رداء فوق آخر بحيث يكون فرو الرداء الداخلي ملاصقاً للجسم، وكثيراً ما يلبسن فوق كل ذلك رداء مانعاً للماء شبه شفاف مصنوعاً من أمعاء القيطس، ولا يزيد وزن جميع ما يلبسن حتى في الشتاء، على خمسة أرطال، وهي ملابس تعطى مكن الدفء ومن الراحة ما تعطيه ملابس من الصوف تعادل وزنها صعفين. ويضع الإسكيمو على عيونهم في الربيع وقاء من العاج به فتحة صغيرة مستطيلة لحمايتها من شدة الضياء المنعكس من الثلج والجليد.

ويتزين النساء بالوشم، وطريقته هي إحداث غرز في الجلد بخيط من عصب الحيوان مسود بهباب الموقد؛ إذا كان الوشم على الخدين والذقن دل ذلك في الغالب على أن المرأة متزوجة. وفي الأقاليم الغربية من ساحل المحيط المتجمد يتزين الشيوخ بقطع من الحجارة على شكل

الأزرار تلبس في ثقوب يثقبونها في شفاههم أسفل جانبي الفم.

ويستعمل الإسكيمو الزلاقات في السفر شتاء على الجليد والثلج، وكذلك على التندرا المغطاة بالطحالب؛ وتصنع الزلاقة من عظام الحوت أو عجل البحر أو من الخشب إذا تيسر الحصول عليه؛ وتشد بعض أجزائها إلى بعض بسيور من الجلد تمر خلال ثقوب يثقبونها بمخارز؛ وتصنع زحافتان الجانبيتان– البالغ طولهما من خمسة أقدام إلى خمسة عشر قدماً– من عظام الحوت أو عجل البحر أو من الخشب الذي قذفت به المياه، وترتكزان على "نعلين" من أنياب الفقمة أو أنياب كركدن البحر أو من العاج أو عظام الحوت، ويضيفون إلى ذلك أحياناً "نعلين" من الجليد، وذلك بدلكهما بالثلج. ولكن الجليد لا يلتصق دائماً بالعظام، ولذلك "ينعلون" الزحافتين بطبقة متجمدة من الطين أو الطحالب، أو حتى من دم عجل البحر المتجمد، وهي مواد يلتصق بها الجليد التصاقاً تاماً. ويبرز في مؤخر الزلاقة عمودان بينهما وصلة مشدودة بسيور من الجلد، وقد يستعاض عن هذه بأعواد من القرون. وتصنع المجرات والسرع من الجلود، ويجر كل كلب مجراً منفرداً يتصل بسرع يمر تحت أضلاعه الأمامية وحول صدره، وينتشر فريق الكلاب أمام الزلاقة على شكل مروحة ويسير كل منها في طريقه الخاص، ويربط أسرع الكلاب وأكثرها نشاطاً إلى السرع الأطول، وبذلك يتقدم سائر الكلاب ويكون لها بمثابة القائد. ويسير فريق الكلاب– ويبلغ في عدده خمسة أو ستة– يدفعه إلى الأمام سوط السائق وصوته. ولا بد للكلاب أن تعرف قائدها، فإذا لم تكن قد تعود بعضها بعضاً أصبح من الصعب

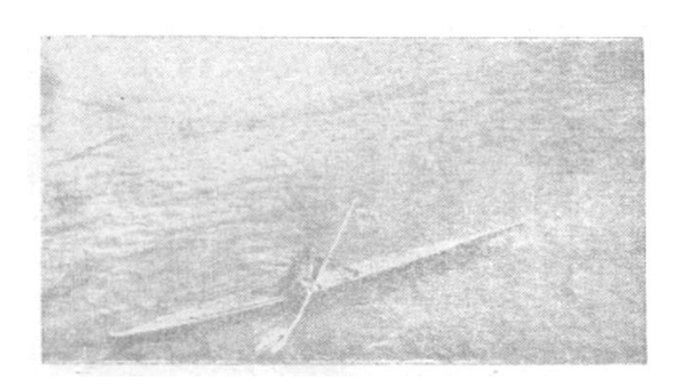
قيادها. وتمتاز كلاب الإسكيمو بالإخلاص الشديد لصاحبها وبصبرها العجيب، ولكنها تبدي العداوة نحو فرق الكلاب الأخرى. ومن المشاكل التي لا يجب أن تغيب عن بال الإسكيمو مشكلة إطعام الكلاب. ويستعمل الإسكيمو كذلك نعالاً خاصة بالجليد عندما يسافرون فوق الثلوج.



(شكل ٤٥) الإسكيمو في رحلتهم

ولا يستغني الإسكيمو عن قاربه الجلدي- المسمى كاياك- في الصيد في الأنهار والبحيرات الساحلية. ويصنع هيكل الكاياك من الخشب أو عظام الحوت، ويغطى بجلود عجول البحر بعد إزالة شعرها وخياطة بعضها بعض بعناية. وفي الإقليم الواقع غرب خليج هدسن تغطى القوارب بجلود الكاريبو، وتستعمل في الأنهار أكثر مما تستعمل في البحار. ولا يستعمل الإسكيمو القاكنون بين خليج كورونيشن Coronation Gulf والقطب المغناطيسي الكاياك في صيد عجول البحر، بينما لا يستطيع الإسكيمو القطبيون حول خليج سمث Smith

sound استعماله أكثر من شهرين اثنين كل سنة ويبلغ طول الكاياك نحو خمسة وعشرين قدماً، ويأخذ في الضيق في كلا اتجاهيه حتى ينتهي بنقطتين دقيقتين، وله سطح من الجلد يغطيه تغطية تامة، إلا من ثقب في الوسط لا يزيد اتساعه على ما يسمح بوضع قدمي الإسكيمو الذي يحركه بمجداف طويل ذي حدين. وعلى سطح القارب....



(شكل ٤٦) كاياك الإسكيمو

..... سيور من الجلد مثبتة ليضع صاحبها أسلحته وليربط إليها ما يصيده من عجول البحر. والقارب خفيف سهل الحمل، ولكنه في يد الملاح الماهر يستطيع أن يمخر عباب البحر في أمان تام. ولا ينفذ الماء إلى الثقب أبداً ما دام ملاحه يلبس سترته المانعة للماء والتي يلفها حول رقبته لفاً محكماً ويحبكها حول الثقب بعناية، وحتى إذا حدث أن انقلب الكاياك ففي وسع راكبه أن يعيده إلى مكانه بحركة واحدة من مجدافه، ويستطيع بعض الجرينلنديين أن يوجهوا القارب باستعمال الذراعين فقط وبغير حاجة إلى المجداف.

واليومياك (Umiak) أو قارب النساء- وسمي كذلك لأن النساء تسيره- مغطى كذلك بالجلود، وهو متسع ومكشوف ويسير بمجدافين بدل المجداف ذي الحدين، ولكنه له بدل السكان مجدافاً صغيراً يوجهه ويستعمل بعض الجرينلنديين شراعاً طويلاً مصنوعاً من شرائط من الجلد محيطة بعضها ببعض، ولكن هذا قد يكون مأخوذاً عن النرويجين. ويستعمل اليومياك في صيد الثدييات البحرية الكبيرة، ويستعمل في ألاسكا وجرينلند للنقل، وهو معروف كذلك في خليج هدين، ولكنه غير معروف فيما يلي ذلك الخليج غرباً حتى خليج كورونيشن.



(شكل ٤٧) يومياك الإسكيمو، أو قارب النساء الجلدي

وللإسكيمو مهارة فنية وميكانيكية عظيمة، فقبل معرفتهم الحديد كانوا يصنعون أطراف الحراب والسهام وحد السكين والمنشار والمثقب والمكشط من الحجارة كالصوان والكوارتز يشطفونها لا بالطرق بل بالضغط بأداة مصنوعة من القرن. وكانت سكاكين القنص ذات الحد الواحد أو الحدين تصنع من الإردواز. وقد استعمل الإسكيمو في إقليم

خليج كورونيشن النحاس المستخرج محلياً في صنع جميع الأدوات القاطعة، واستعمل بعض الجرينلنديين الحديد، ولكن المعدن في كلتا الحالين كان يشكل بالطرق لا بالصهر. ومن أشهر أدواتهم التي كانوا وما زالوا يصنعونها المثقب ذو القوس (أداة للثقب تدار بواسطة قوس تتحرك بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف) ويصنع قوس المثقب عادة من العظام أو من ناب الفقمة، ويصنع وتره من العصب. وتمسك ساق المثقب في وضع رأسي لا بالأيدي بل بالأسنان، التي توضع بينها قطعة خاصة من الخشب– يمكن أن نسميها خشبة الفم– وفي الناحية السفلى من خشبة الفم ثقب صغير يوضع فيه طرف المثقب المزود بسن من الحجر، أو من خشب الصفصاف اليابس إذا كان المراد توليد النار. وتدار القوس بيد واحدة إلى الأمام وإلى الخلف فتتحرك الساق ويؤدي المثقب عمله. وكثيراً ما تحفر على هذه المثاقب ذات الأقواس وعلى غيرها من الأدوات المنزلية مناظرة تمثل حياة القارب وغيرها من المناظر، وكذلك ترسم مثل تلك المناظر على المجاديف وغيرها من الأدوات الخشبية. ويبدي الإسكيمو كذلك مهارة كبيرة في نحت الأدوات والنماذج من العاج أو من القرون، ومن ذلك بعض أجزاء الحراب والسهام وأزاميل الجليد "ونعال" الزلاقات وسنانير الصيد وأيدي مختلف الأدوات و"نظارات" الضوء واللعب.

ورمح الإسكيمو من المبتكرات التي تدل على العبقرية، وهو يختلف في التركيب اختلافاً يسيراً حسب الغرض المقصود منه، ولكنه يتكون دائماً من خمسة أجزاء، فهناك ساق خشبية متينة طولها من أربعة

أقدام إلى خمسة، لها رأس من العاج تربط إليها بإحكام، وتثبت فوق الساق قطعة من أنياب الفقمة– تسمى الساق الأمامية– طولها نحو ثلاثة أقدام تربط إلى الساق الأصلية بسيور من الجلد بحيث لا تكون ثابتة بل تدور في زاوية صغيرة. أما رأس الرمح– وهي من العظام ولكن سلاحها من الحديد– فتوضع بحيث توافق الساق الأمامية. ووجه العبقرية في هذا الرمح أن سلاحه يستدير في لحم الفريسة عندما يصيبها فلا تستطيع الفرار، لأن هناك حبلاً طويلاً يمر خلال ثقوب في جانب السلاج ويلف بإحكام حول ساق الرمح متجهاً إلى أسفل حتى يصل إلى كعبرة من العاج في وسطه فيربط بها ربطاً محكماً، بينما تتدلى بقية الحبل وتتكون بجانب الصائد. وعندما يستقر سلاح الرمح في جسم الحيوان تطفو الساق فوق الماء، وبذلك لا تضيع على الصائد قطعة الخشب القيمة؛ أما الحيوان الجريح فلا يزال الصائد يداعبه ويرخي له العنان إذا دعت الحال. وكثيراً ما تعلق بالحبل كرات جلدية منفوخة وطوق مكسو بالجلد لتجعل حركة الحيوان في الماء أكثر صعوبة وبذا تعجل بإجهاده.

وكذلك يهتمون بصنع الحراب الخاصة بصيد السمك والطيور، ولديهم أداة خاصة يقذفون بها الرمح لتزيد قوة انطلاقه، تسمى عصا القذف أو قاذفة الرمح، وهي نفس الطريقة التي يستعملها سكان أستراليا الأصليون. وتستعمل الأقواس والسهام في صيد الكاريبو وثور المسك، وتصنع القوس من ثلاث قطع من الخشب أو قرون الكاريبو تسمر وتربط بعضها إلى بعض بطرق شتى، وتقوى بسيور من العصب تشد هيكلها الخارجي. وتمسك القوس في وضع أفقي؛ وهي لا تستعمل إلا في الصيد

من مسافة قصيرة وتراش السهام وتصنع إبرها من العظم أو القرن أو الحديد

ويستعمل بعض الإسكيمو في صيد الطيور اختراعاً عبقري الابتكار يشبه "البولا" التي يستعملها أهل بتاجونيا، يتركب من سبعة أو ثمانية حبال من عصب الحيوان طول كل منها نحو ثلاثة أقدام تربط بعضها إلى بعض من طرف واحد، بينما تثبت في أطرافها الأخرى قطع ثقيلة من الحجارة أو من العاج. وقبل أن تصوب هذه الأداة إلى الطير تدار بسرعة فوق الأرض، حتى إذا انطلقت من اليد بقيت محتفظة بحركتها الرحوية وبقيت الأثقال بعيدة بعضها عن بعض وأصبح قطر الإصابة نحو خمسة أقدام أو ستة. ويسقط الطير إذا أصابه أحد الأثقال أو "يتكعبل" في الحبال.

ولا يعرف الإسكيمو إلا القليل جداً من صناعة السلال والفخار، إلا في بعض أنحاء ألاسكا، وفيما عدا ذلك تحل حقائب من الجلد محل السلال والقدور.

ويبدي الإسكيمو عبقرية كبيرة في صنع كثير من الأدوات مع ما لديهم من موارد محدودة، ولهم مهارة عظيمة في الحفر والنحت، ولكن حياتهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية لا تصل في مستواها إلى مثل نظائرها لدى كثير من هنود أمريكا الشمالية. وقد ذكرنا فيما سبق أن الظروف التي تحيط بهم تضطرهم أن يقضوا معظم شهور السنة جماعات متفرقة قليلة العدد. والعائلة هنا هي الوحدة الاجتماعية الأساسية، وهي

تشمل الأب وزوجته أو زوجاته وأولادهم ومن يعولونهم. وتجتمع في الشتاء كثير من العائلات وتعيش في مجتمع واحد، ولكنهم لا يعترفون بزعيم عليهم، على أن الرجل القدير أو ذا الشخصية القوية- لا سيما إذا كان من رجال الطب (شامان)- له شيء من النفوذ، ولكن يندر أن يصدر لأحد أمراً بعمل شيء، ولو أنه يرشدهم إلى أنسب وقت للارتحال أو الصيد.

وقد يكون "الشامان" رجلاً أو امرأة، يدعى القدرة- عن طريق اتصاله بالأرواح- على تعليل الكوارث والعلم بما يجري في الجهات البعيدة والتوسط بين الناس وبين عالم ما وراء الطبيعة، وهم يقومون أحياناً بأعمال سحرية. وتختلف طرقهم في علاج الأمراض باختلاف أسباب العلة في رأيهم. وترجع العلة في اعتقادهم البدائي إلى أعمال السحر أو إلى ارتكاب أمر تحرمه العقائد الدينية، أو عداوة شخص ما، أو إلى غضب الأرواح أو انفصال الروح عن الجسد. والواقع أن "الشامان" عند الإسكيمو هو الطبيب وهو رجل الدين.

والإسكيمو قوم محبون للنظام مسالمون فيهم بساطة وصراحة وأمانة ومرح، ولكن يغلب على طبعهم التبذير وقلة الاكتراث، وليس للغني عندهم امتياز على الفقير، وهم دائماً على استعداد لأن يشركوا في طعامهم أي إنسان ولو كان عدواً.

وتعدد الزوجات- وكذلك تعدد الأزواج- أمر غير منكم بينهم، فالرجل يحل له أن يتخذ أكثر من زوجة، وكذلك يحل للمرأة أن تتخذ

أكثر من زوج في وقت واحد. ويحدث في أغلب الأحوال أن تعقد خطبة الأطفال وهم في سن مبكرة، ويتم الزواج دون أي احتفال، ويقضي الزوجان عادة عامها الأول بين أهل الزوجة. وللنساء بينهم منزلة محترمة، وقد يرجع ذلك إلى أن المرأة هي التي تحيك الملابس، وهي ضرورة حيوية في ذلك المناخ القارس. وواجب الرجال القيام بالصيد، وهم يقضون وقتهم في فصل الشتاء الطويل في صنع أدوات جديدة أو في تزيين أدواتهم القديمة أو في الحفر على العاج. وعلى النساء القيام بشئون المنزل ودبغ الجلود وعمل الملابس والأغطية الجلدية للقوارب. ويبدي الآباء حباً شديداً لأبنائهم إذا بقوا على قيد الحياة، وكان بعض الإسكيمو فيما مضى يقتلون كل بنت عند ولادتها، وكانوا يقتلون بعض البنين أيضاً، لأن الأم لا تستطيع أن تقوم على تربية كثير من الأطفال، إذ عليها أن تقوم بإرضاع الطفل حولين أو يزيد. ومن بلغ منهم أرذل العمر وأحس أنه عالة على غيره كان يشنق نفسه، ولم يكن ذلك العمل المجاني للإنسانية ناتجاً عن قسوة في طبعهم، ولكنه أمر دعت إليه مشقة الحصول على الطعام، وحيث يندر القوت يشتد الإغراء بالإبقاء على أقل عدد ممكن من البطون التي تتطلب الإشباع.

ويصعب على الإسكيمو في أغلب الأوقات أن يدفنوا موتاهم، لأن تربة الأرض متجمدة دائماً إلى عمق بضع بوصات، ولذلك كان من عادتهم تغطية جثة الميت بقطع من الحجارة، ولا يزيد إسكيمو الأقاليم الوسطى على تغطية الجثة بقطعة من الجلد. وتترك بجوار جثة الرجل أدوات صيده، وبجوار جثة المرأة أدوات حياكتها، وذلك لكي ينتفع بها

كل منهما في حياته المقبلة، فإنهم يؤمنون بالآخرة. ويمتنع كل من كانت له صلة بالميت، وكذلك الزوج والزوجة، عن بعض أشياء يحرمونها على أنفسهم، ولا يبالغون في إظهار الحزن ولا يشوهون أجسامهم كعادة بعض الشعوب التي يتناولها هذا الكتاب.

ويغرم الإسكيمو بالرقص غراماً شديداً، وفي بعض المناطق يلبسون أثناء حفلات الرقص أقنعة خاصة، وكثيراً ما يقضون ليالي الشتاء الطويلة في الولائم والرقص، وهم لا يعرفون من الآلات الموسيقية غير آلة تشبه الدف.

ويعتقد الإسكيمو- كغيرهم من الشعوب البدائية- أنهم محاطون بعالم من الأرواح بعضها شريرة، وبعضهم يرهب إلهة البحر وينسب إليها التحكم في الأحوال الجوية وتنظيم رزقهم من عجول البحر.

وقد كان سكان جرينلند أول شعب من الإسكيمو اتصل بالأوروبيين، فمنذ القرن العائر إلى الخامس عشر كان بالجزيرة عدد كبير من النورديين، وتؤكد الأبحاث الأخيرة أن النورديين كانوا في وقت من الأوقات يملكون مائة وتسعين مزرعة وكثيراً من الكنائس والأديرة؛ ولكن لم يحل القرن السادس عشر إلا وكانت جميع المستعمرات النوردية قد اختفت، على أنه قد حدث بين العنصرين بعض التزاوج ولذلك نجد القليل فقط من الجراينلنديين من دم إسكيمي خالص، وكذلك حدث في ثقافتهم بعض التغير.

أما إسكيمو لبرادور وشرق كندا فقد اتصلوا بالأوروبيين منذ مائتي سنة، وكان ذلك غالباً عن طريق القانصين وصائدي الحوت والمبشرين. واتصل إسكيمو نهر مكنزي بالأوروبيين منذ مائة عام، بينما لم يحدث الاتصال بين إسكيمو الأقاليم الوسطى والأوروبيين إلا في القرن العشرين. وقد نتج عن هذا الاتصال بالأوروبيين أن قليلين جداً من الإسكيمو لا يزالون يحتفظون بثقافتهم الخاصة. وإن السرعة التي حدثت بها التغيرات لأمر يثير العجب حقاً، فلم تمض على تأسيس العلاقات التجارية خمس سنوات حتى كان إسكيمو "النحاس الأحمر" قد تخلوا عن القوس والسهم واستعملوا البندقية، وتخلوا عن الأدوات المنزلية المصنوعة من الحجر واستعملوا قدوراً مصنوعة من الحديد، واستبدلوا بالجلود الخيش (Canvas) في عمل الخيام.

وقد نتجت عن اختلاط الإسكيمو بالأوروبيين تغيرات كثيرة، فقد حلت البندقية محل الرمح، والأدوات المنزلية المصنوعة من الصلب محل الأدوات المصنوعة من العظام، وقدور الحديد والألومنيوم محل قدور الفخار والحجر، وأحذية "ولنجتن" محل الأحذية الجلدية، والمنازل المصنوعة من الخشب محل المنازل المصنوعة من الجليد والطين والحجر، وحل الخيش (Canvas) محل الجلود في عمل الخيام، والملابس الصوفية محل الفراء، والقوارب الكبيرة والصنادل البخارية محل الكاياك واليومياك، وأصبحت في متناول أيديهم مواد الترف كالشاي والسكر والطباق. والواقع أنه لولا البندقية والذخيرة لتعرض الإسكيمو للموت جوعاً. ولولا الطباق والشاي لأصبحوا من

البائسين. وقد اعتنق كثير منهم ديانة البيض المسيحية أو اعترفوا اسمياً باعتناقها. وكثير منهم يستطيع القراءة. وقد تعلم إسكيمو لبرادور قراءة الحروف اللاتينية وأدخلوا إلى لغتهم– على أيدي المبشرين– عداد من الكلمات الإنجليزية والألمانية. ومن جهة أخرى تعلم إسكيمو الأقاليم الوسطى قراءة الحروف المقطعية. وهي طريقة عبقرية لقراءة الرموز ابتكرها أحد المبشرين في أوائل القرن التاسع عشر.

ويشتغل الإسكيمو بالقنص كي يحصلوا على الجلود، ولا سيما جلود الثعلب الإسكيمو بالقنص كي يحصلوا على الجلود، ولا سيما جلود الثعلب الأبيض كي يبيعونها لتجار الجلود من البيض ويحصلوا في مقابلها على بضائع الرجل الأبيض. ولا يقوم بالصيد في الشتاء على مقياس كبير إلا قليل من الإسكيمو. ففي جنوب جرينلند مثلاً أخذ صيد السمك ولا سيما الهلبوت (Hailibut) يحل شيئاً فشيئاً محل صيد عجل البحر.

وقد كتب و. هـ. ب. هور عن إسكيمو نهر ماكنزي فقال:

"الإسكيمو قوم ماهرون في التجارة ولهم قدرة على عقد الصفقات الرابحة، وكان من أثر ذلك أن أصبحوا أثرياء، ولم يعودوا أولئك المتوحشين الذين يقطنون في الشتاء أكواخاً من الثلج، ويضطرون إلى استخلاص القليل الذي يقيم الأود بالصراع العنيف ضد قوى الطبيعة، فقد اختفت الأكواخ الثلجية وحلت محلها منازل شتوية تتوفر فيها أسباب الراحة وتبنى من كتل الخشب، وفي كثير من الحالات تغطى

حيطانها بالألواح.

ويدخل في غذائهم الآن الدقيق الفاخر والسكر والزبد والمربى والفواكه المحفوظة وغيرها من مواد الترف، وصاروا يقضون لياليهم في سمر وسرور ينصتون إلى الموسيقى الجميلة تنبعث من الجراموفون الفاخر وجهاز الراديو. وحلت سرر النحاس والحديد محل الفراش العائلي المتخذ من أكوام الجلود، وساعدت آلات الخياطة الحديثة على تسهيل الأعباء الملقاة على عاتق النساء.

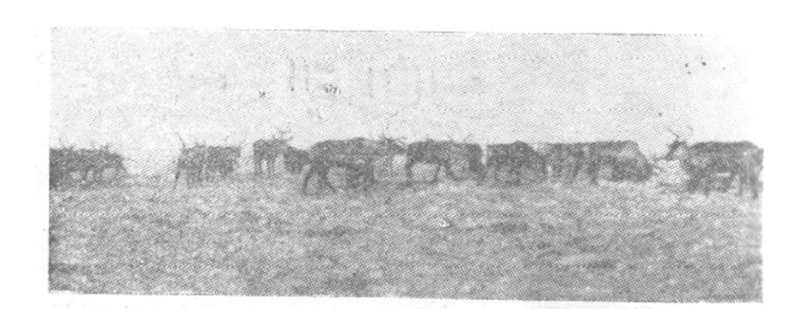
ويسكن بعضهم في الصيف مراكب بخارية سريعة تمخر عباب دلتا الماكنزي، أو تسير بحذاء ساحل البحر للبحث عن الحيوانات البحرية أو لزيارة مراكز التجارة. وشاع استعمال آلات التصوير والساعات والزجاجات الحافظة للحرارة وأمواس الأمان والبنادق البعيدة المدى وكثير غير هذه من مستحدثات الحضارة الحديثة. ويستطيع جميع هؤلاء الإسكيمو تقريباً قراءة لغتهم، ويعرف معظمهم قدراً كافياً من الإنجليزية".

ولكن هذه التغيرات لم تكن كلها خيراً محضاً، فإن دخول الأسلحة النارية قد زاد من سرعة القضاء على الحيوان ولا سيما عجل البحر والكاريبو وثور المسك، ونتج عن ذلك ازدياد صعوبة الحصول على الطعام وعلى الجلود الصالحة للملبس. صحيح أن كثيرين منهم يحصلون من التجار على الملابس الصوفية، ولكن هذه الملابس لا تداني فراء الحيوان لا في دفئها ولا في جمال شكلها. والواقع أنه قد قيل إن الإسكيمو يحصلون في الوقت الحاضر على قدر من الدفء ومن

التغذية يقل عما كانوا يحصلون عليه أيام عزلتهم، ومن المشكوك فيه كثيراً ما إذا كان من الخير أن يعيش الإسكيمو في منازل خشبية، فإن ذلك منِ أنه تشجيعهم على التخلي عن حياة الصيد.

وقد جلب الأوروبيون في أعقابهم عدداً من الأمراض من أهمها الجدري والإنفلونزا والحصبة والتيفوس والسل الرئوي، وقد قضت هذه الأمراض على عدد كبير من الإسكيمو، ففي عامي ١٧٣٤ و١٧٣٥ مات بالجدري ألفان من أهل جرينلند، وفي ١٩٠٢ قضى التيفوس على أهل جزيرة سوثمبتن جميعاً ما عجا طفلين اثنين؛ وحتى في الوقت الحاضر يموت ٥٠% من أهل جاكوبزهافن Jacobshaven في جرينلند بالسل الرئوي ومن حسن الحظ أن الدول الأربع التي تحكم الأقاليم التي تسكنها تلك الشعوب، وهي دانمارك وكندا والولايات المتحدة ونيوفوندلند، كلها تحرم بيع المشروبات الروحية للإسكيمو. ثم إن هذه الدول جميعاً تبذل كل ما في وسعها لخير الإسكيمو من حيث توفير الخدمات الطبية والمحافظة على حيوان الصيد وإدخال الرنة المستأنسة. فمنذ بضع سنين أدخلت الرنة إلى لبرادور وألاسكا، وبعد ذلك أدخلت إلى كندا منذ سنوات قليلة (ذ٩٣٥). وقد استغرق القطيع الذي اشترى في ألاسكا أكثر من خمس سنين في قطع مسافة ١٦٠٠ ميل حول شمال ألاسكا الغربي إلى محلة تقع على الشاطئ الغربي لنهر ماكنزي مساحتها ٦٦٠٠ ميل مربع. وسوف تؤدي تربية الرنة المستأنسة إلى يتحول الإسكيمو من حياة الصيد إلى حياة الرعي. وكذلك تقوم شركة خليج هدسن بنشر صناعات جديدة بين الإسكيمو بالقرب من

المحطات التجارية. وفي جرينلند أخذ عدد السكان في الازدياد بفضل رعاية الحكومة الدنمركية.



(شكل ٤٨) قطيع من الرنة

ومما لا شك فيه أن الإسكيمو لا يسيرون إلى زوال، وأن لغتهم وتقاليدهم ستظل باقية، ولكن كثيراً من ثقافتهم سوف يصبح بعد زمن وجيز أثراً من الآثار، ولم يبقى لها وجود إلا في أطلال المنازل والمقابر أو في المتاحف.

القسم الثالث

المشتغلون بالزراعة

الفصل العاشر

الزراع البدائيون في أمازونيا

من المتبع بيم جماعات القناصين أن تقوم النساء بجمع الفواكه والجذور الصالحة للغذاء، وهو عمل في العادة شاق ويستلزم التجول في مساحات واسعة، فإذا كان ما يصلح منه للجمع محدود القدر كان جمعه منهكاً غاية الإنهاك. ومن الواضح أنه لو أنشئت حول كل مسكن حديثة صغيرة لأمكن توفير كثير من ذلك الجهد، ولم يحدث هذا إلا لأن امرأة قد استطاعت بقوة الملاحظة أن تكشف الطريقة التي تتكاثر بها النباتات. ولا ريب أن طريقة نمو بعض النباتات قد ساعدت على الوصول إلى ذلك؛ ففي البطاطا مثلاً تنمو جذور جديدة عند كل عقدة من العقد العديدة التي في سيقانها بمجرد ملامستها للتربة، وبذلك يتكون في النبات الواحد نحو أربعين أو خمسين عيناً جديدة تصلح للغرس. على أن عملية جمع الجذور في ذاتها خطوة في سبيل معرفة طريقة الغرس، فإن عملية الغرس لا تكاد تختلف عن عملية الاقتلاع، وكذلك الأداة الواحدة– وهي عصا تعرضت للنار لتزداد صلابتها– يمكن استعمالها في حالتي الزرع والاقتلاع على السواء.

ولما كان العثور على الصيد في أمازونيا غير مضمون ونتاجه قليلاً، وجمع الفواكه البرية غي ميسور، كان من حسن الحظ وجود نبات

المانيوق البري ذي الأنواع العديدة التي تصل إلى الأربعين. والمانيوق شجيرة تنتمي إلى فصيلة اليوفوربيا التي تبلغ درناتها غاية نموها بعد السنة الأولى من عمرها، وهذه الدرنات ذات شكل بيضي غير منتظم وتحتوي على مادة نشوية بها عصير سام إلى حد ما.

ويتكاثر النبات بالانقسام، بينما زراعته ميسورة ومحصوله وفير يعوض ما يبذل في زراعته من جهد. وعند ما وصل الأوروبيون الأوائل إلى القارة الأمريكية كان هنود البرازيل وجيانا والهند الغربية والأجزاء الحارة من المكسيك يزرعون المانيوق ويتخذون من جذوره– حتى السامة منها– غذاء. وكانت الأنواع التي يزرعونها كثيرة، مما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم قد عرفوا زراعتها قبل ذلك بزمن طويل.

ولا يزال جميع هنود الأمزون يزرعون المانيوق، ويقوم الرجال منهم بما تتطلبه زراعته من عمل شاق كقطع أشجار الغابة وتجهيز أرضها البكر للزراعة، وتقع كل قطعة تجهز للزراعة– خلا القطعة الواسعة الخاصة بالزعيم– على بعد من المسكن، وهم يقطعون صغار الأشجار ببلطة من الحجر، ويقضون على كبارها بالحريق.



(شكل ٤٩) غابة أزال الهنود أشجارها بحرقها تمهيداً لزرعها

والبلطة عند القبائل القاطنة على مقربة من الجابورا قطعة من الحجر على شكل إسفين، طرفها مستدير فيه قرب رأسه أخدود تثبت فيه يد غليظة من أغصان الشجر بالألياف والقطران.

أما بقايا جذوع الأشجار التي قطعت على ارتفاع نحو أربعة أقدام من سطح الأرض فسرعان ما تتحلل أو تقضي عليها جيوش النمل، بينما تشعل النار في الأغصان عندما تجف إلى درجة تسمح باحتراقها. وبعد أن يقوم الرجال بتجهيز التربة بواسطة عصى الحفر وما شابهها، يقوم النساء بما يلي ذلك من الأعمال.

وليس هناك شبه بين القراح[٩] وبين ما نسميه نحن حديقة، فإن القراح غير مستوي السطح تتناثر فيه هنا وهناك جذوع الأشجار المحترقة كما تملؤه المواد المتفحمة المتخلفة عن الحريق. وعلى النبات الجديد

---

(٩) القراح هو الأرض التي قطعت منها الأشجار والأعشاب تمهيداً لإعدادها للزراعة.

أن يفسح لنفسه مكاناً بين كل هذا، وأن يشق خلاله طريقه إلى الهواء، كما أن عليه ان يتغلب على النباتات البرية التي تعود بسرعة إلى النمو، بينما تغير على القراح من جميع الجوانب النباتات الزاحفة وغيرها.

ولا تزيد الأدوات التي تستعملها المرأة الزراعة على قطعة من الخشب على شكل إسفين، تستعمل في الحفر وفي التسوية والعزق. وتتوجه المرأة كل صباح إلى القراح، حيث تقضي النهار كله في غرس نبات جديد أو رعاية نبات نام أو اقتلاع الأعشاب أو في الحصد، إذا كان بعض المحصول قد آن حصاده، ثم تعود إلى مسكنها في آخر النهار وهي تحمل على ظهرها سلة ملأتها بالحصيد، وشدتها برباط طويل يمر من خلف ظهرها إلى ما فوق جبينها. ويقع موسم الغرس عادة في الفصل المطير، ولكن ليس هناك موسم حصاد محدد فإن الحاصلات تنضج في جميع فصول السنة.

وأهم محصول هندهم هو المانيوق الذي يصنعون من جذوره طعام الكاسافا (Cassava). وجذور أنواعه المستأنسة أكبر كثيراً من جذور الأنواع البرية، وهو يزرع في يولية وأغسطس، فبعد أن تخطط الأرض توضع عقد المانيوق في حفر صغيرة في قلب الخط، وبعد نحو ثمانية أشهر تصبح الجذور صالحة للحصاد. أما الدرنات التي تغذي الجذور فإنها تستمر في النمو عدو مواسم زراعية. ويتراوح وزن الواحدة منها من نصف رطل إلى عدة أرطال. وهم يزرعون أيضاً أنواعاً أخرى من النباتات الدرنية كالصرغم والبطاطا، ولكن ما يزرع منها يقل كثيراً عما يزرع من

المانيوق، كما أن الفلفل والبقول والأناناس وبعض أشجار الفاكهة والبطيخ نصف البري لا تخلو منها حديقة. وتزرع قبائل الوتوتو Witoto قليلاً من قصب السكر، ويزرعون الهنود القاطنون بين نهري جابورا Japura وإسا Issa قليلاً من الأذرة أيضاً، مع أن غيرهم من هنود الأمزون يزرعون منها الكثير.

وهناك مخدران يزرعهما هنود الأمزون بكثرة، هما الكوكا بالأمر السهل، فإنها تحتاج إلى كثير من الرعاية في أطوار نموها الأولى، وتزرع حبوبها عندما تبدأ الأمطار الغزيرة في السقوط، فإذا بذلت للنباتات الصغيرة الرعاية الكافية أصبحت بعد فترة شجيرات غليظة يتراوح ارتفاعها بين خمسة أقدام وستة، وبعد ثمانية عشر شهراً من غرسها تبدأ في إخراج ثمارها المخدرة، وتظل تثمر نحو ثلاثين سنة أو أربعين. والرجال هم الذين يقومون بزراعة الكوكا، وهم الذين يقومون على رعايتها، لأن النساء يحرم عليهن لمس المخدر. ولكن النساء يقمن من جهة أخرى بزراعة الطباق وإعداده، مع أن استعماله محرم عليهن.

وقد عرفت الكوكا منذ زمن بعيد بين الهنود الذين يقطنون الأنديز، ومنهم انتشر استعمالها شرقاً إلى القبائل التي تقطن غرب الأمزون. وهم يستخلصون المادة المخدرة المعروفة باسم الكوكايين من أوراق الساجا الخضراء، بتجفيفها على النار ثم طحنها في هاون من جذوع بعض الأشجار بعد خلطها بالطين المحروق وأوراق الكاسافا وقليل من الجير يحصلون عليه من سعف النخيل المحترق، وبعد أن تتحول كلها إلى

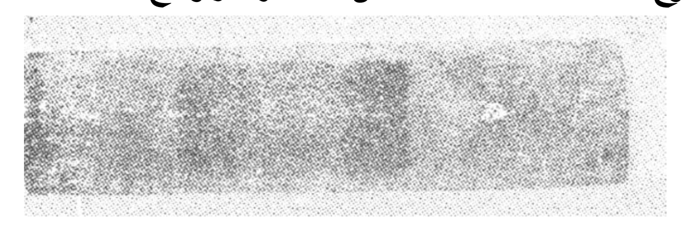
مسحوق ناعم يحملونه في كيس حول العنق. ويأخذ أحدهم بعض هذا المسحوق ويضعه في ورقة مثناة ثم يقذف به إلى فمه، وعندما يختلط باللعاب يتحول إلى كرة صلبة تظل بالفم. ويتسرب منها الكوكايين بالتدريج إلى اللعاب. ويستطيع الهندي إذا احتفظ بكرة من هذا المسحوق في شدقه أن يظل عدة أيام بغير نوم ولا طعام ولا شراب.

أما عادة تدخين التبغ فإنها غير معروفة لدى الهنود الذين يقطنون حول جابورا، ولكنهم بدل أن يدخنوه يصنعون منه عجينة يلحسونها، وتنقع أوراق الطباق ثم تدق في هاون ثم يضاف إليها قليل من نشاء الكاسافا، فيتحول المخلوط إلى سائل أسود يابس، ويحفظ هذا المعجون الأسود في إناء يصنع عادة من قشر البندق بعد أن يخرقوا في أعلاه فتحة يدخلون فيها عصل يلحسون ما يعلق بها من قطرات.

وهم يتناولون الطباق فرادى أو في جماعات، ففي أثناء الاجتماعات التي تعقدها القبيلة لتناقش فيها أموراً تتعلق بالمصلحة العامة أو لتعقد صلحاً بين المتخاصمين، تمر آنية الطباق على المجتمعين قبل كل قرار يتخذونه، ومن كان موافقاً على رأس المتكلم غمس في الإناء عوداً ثم لحسه، أما الذين لا يوافقون فإنهم يدعون الإناء يمر دون أن يذوقوه، وعلى هؤلاء أن يدلوا بالأسباب التي حملتهم على المخالفة، ويستمر هذا حتى ينتهي جميع المخالفين من شرح وجهة نظرهم، وينتهي الأمر بالموافقة على الرأي الذي حاز رضاء الأغلبية، فإذا تساوت الأصوات رجحت الكفة التي يؤديها الزعيم. ومن عاداتهم أن

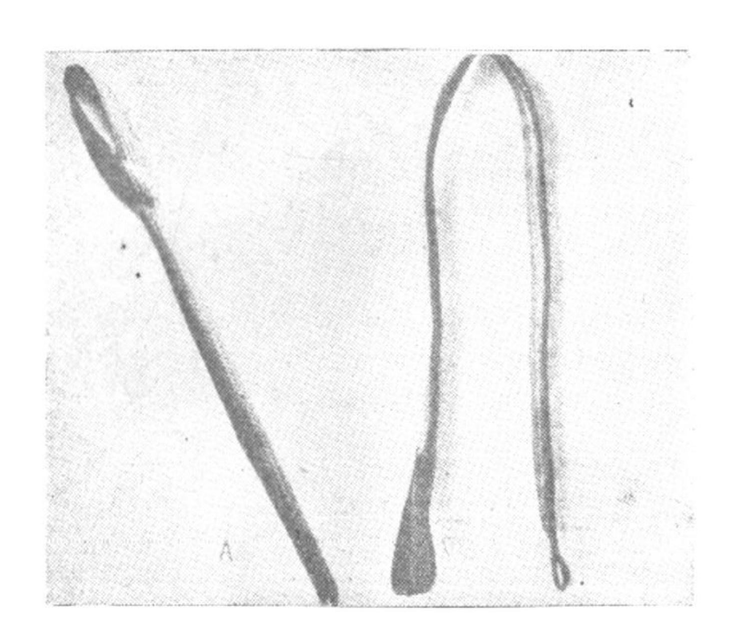
يغمس المتنازعون أعوداهم بعضهم في أواني البعض توكيداً للاتفاق بين الأفراد والتزامهم به.

ولا يستعمل المانيوق السكري إلا قليلاً مع أنه ينمو بحالة برية، وأشهر ما يزرعونه من أنواعه نوع يسمى Manihot utilissima، ولكن جذور هذا النوع تحوي حامض سيانور الحديد الذي يجب التخلص منه كي يصير صالحاً للطعام. وطريقة تحضير الجذور للطعام أن تقشر بسكين خشبية أو مكشطة حادة بعد أن تقوم النساء بغسلها في طريق عودتهن إلى المنزل، على أنهن أحياناً يستعملن أسنانهن في تقشير الثمرات، ولكنهن حينئذ يأخذن أشد الحذر كي لا يصل إلى جوفهن شيء من العصارة السامة، ثم تغسل الجذور مرة أخرى بعد تقشيرها فتصبح بيضاء اللون، ثم تقطع إلى شرائح وتنقع في إناء مدة أربع وعشرين ساعة، حتى إذا لانت ليناً كافياً أضيفت إليها قطعة من المانيوق المتعفن تزيد من سرعة تخمرها، وبعد ذلك تؤخذ الجذور وتكشط بواسطة مبشرة أحد طرفيها في حوض وطرفها الآخر يرتكز على ركبتي امرأة. والمبشرة في هذا الإقليم الخالي من الحجارة لوح بيضي الشكل مملوء بأشواك النخيل تثبت فيه وتبرز منه أطرافها، أما في شرق أمازونيا فإن اللوح تثبت فيه شطف حادة من الحجارة، وتوضع .....



(شكل ٥٠) مبشرة المانيوق

المادة المهروسة في أسطوانات من لحاء النخيل المثني، فإذا حدث ما يدعو إلى زيادة طول الأسطوانة ازدادت ضيقاً وضغطت على المادة التي بداخلها فتتسرب منها العصارة جميعاً. وطريقة إطالة الأسطوانة كي تضيق وتعصر العجينة التي بداخلها، هي أن يعلق أحد طرفيها على وتد وتجلس إحدى النساء على عصا غليظة تمر في حلقة الطرف الآخر، وتضغط المرأة بكل قوتها فتعصر المادة السامة كلها وتتسرب إلى الخارج. ولقبائل الوتوتو Witoto طريقة أخرى للتخلص من المادة السامة، فهم يأتون بالعجينة المهروسة ويلفون حولها بطريقة حلزونية نسيجاً شبكياً من ألياف النخيل، ثم يبرمون هذا النسيج باستعمال عصا مربوطة بأحد طرفيه فيحدث الضغط الذي يخلص العجينة من العصا السامة. وبعد ذلك تؤخذ العجينة تجفيفاً تاماً، ثم تضغط باليد وتمرر خلال غربال ويلقي بعيداً بما يتخلف عنها من مادة خشنة، ثم يؤخذ المسحوق ويحمي عليه فوق لوح من الفخار، مع تقليبه مراراً للتخلص ما قد يكون عالقاً به من مواد سامة سريعة التبخر. ويعجن الدقيق الناتج من ذلك بالماء ويوضع في إناء من الفخار فوق نار مكشوفة، فيتحول إلى كعكة جلدية القوام من خبز الكاسافا الذي بم يختمر والذي لا يسمح للونه أبداً بالاحمرار. ومن الممكن أيضاً تناول أوراق شجيرة المانيوق، فهي تغلي حتى تصير لينة ثم تطحن جيداً وتطبخ مع ما يتيسر الحصول عليه من أسماك أو ديدان أو ضفادع أو توابل لتكتسب نكهة، ويؤكل هذا المخلوط مع خبز الكاسافا واللحم.



(شكل ٥١) أداة عصر الكاسافا

والكاسافا هو غذاء الهنود الأساسي، ومن مستلزماته قدور البهار أو القدور الساخنة التي يوضع فيها جميع السمك واللحوم، وهم يحتفظون بالقدور دائماً جياشة فوق النار لا ينفد منها الطعام أبداً، بل يضيفون إليها كلما دعت الحال شيئاص مما يحصلون عليه من الصيد، ويقوم الرجال على العموم بالحصول على الغذاء الحيواني، وتقوم النساء بالحصول على النبات.

والمنطقة المحصورة بين نهر جابورا ونهر إسا Issa تقع بين خط الاستواء وخط العرض ٢° جنوباً وبين خطي ٧٠° و٧٥° غرباً، وفي هذه المنطقة نرى السهول التي تغمرها مياه الأمزون أثناء فيضانه ترتفع ارتفاعاً تدريجياً غير محسوس نحو سفوح الأنديز المرتفعة، وتعترض أنهارها

المساقط أحياناً، ولكن الأرض ما زالت أعلى من مستوى البحر بما لا يزيد على بضع مئات من الأقدام، ومدى الحرارة بها قليل ولكنها دائماً عالية، ويندر أن تزيد على ٩٠° ف أو تقل عن ٧٠° ف، بينما يتراوح معدلها الذي لا يختلف إلا قليلاً من شهر إلى شهر بين ٨٠° ف و٨٥° ف، على أن التيارات الباردة والعواصف المتوالية والتبخر الشديد تلطف من درجة حرارتها نوعاً.

وتسقط الأمطار غزيرة في هذا الإقليم، ولا يمضي يوم دون أن ينهمر المطر مدراراً في الصباح وفي وقت العصر، ولا يتساءل الناس هنا إلى متى يظل المطر في السقوط، ولكن السؤال الذي يدور على ألسنتهم دائماً هو متى تنتهي فترة المطر وتحل فترة الصحو، فإن الجفاف هنا جفاف بالاسم فقط، وهو إنما يعتبر كذلك إذا قورن بالفصل الأكثر أمطاراً الذي يمتد من نوفمبر إلى مايو. ويسقط الندى أثناء الليل كالمطر، بينما تخيم الشابورة فوق الأنهار في الصباح الباكر وفي المساء على االسواء؛ أي أن الجفاف لا وجود له على الإطلاق.

وقد كانت الحرارة الشديدة المقترنة بالرطوبة وبالتربة السوداء الخصبة الغرينية التي تتكون من الطمي النهري ومن النباتات المتحللة، والتي يبلغ سمكها بضعة أقدام لا تتخللها صخور مطلقاً، من الأسباب التي جعلت الأرض تتغطى بالنباتات الاستوائية الكثيفة ذات النمو القوي التي يوجد منها ما يربو على عشرين ألفاً من مختلف الأنواع، فهناك الأشجار الضخمة المغطاة جذوعها بالطحالب والطفيليات ترفع هاماتها

فوق طبقة كثيفة من شجيرات ومن نخيل بعضها ذو أشواك يبلغ طول الواحدة منها ست بوصات، بينما النباتات المتسلقة التي يتراوح حجم سيقانها من حبال غليظة إلى خيوط رفيعة، تبدو كأنها تصل الجميع وتجعل منها كتلة يكاد اختراقها يكون مستحيلاً، وأوراق هذه النباتات من الكثافة بحيث تحول بين ضوء الشمس وبين التربة المشبعة بالرطوبة؛ على أنه من الممكن أحياناً رؤية السماء من خلال الأغصان المتشابكة، ولا يمكن الوصول إلى الضوء والهواء إلا في أعالي الأشجار، وهنا تلبس الحياة حلة زاهية ويتجلى جمال الطيور والحشرات والأزهار. ولا تعرى الأشجار هنا أبداً، "فإن الحجاب الدائم من الأوراق يغطى على الدوام ما تحته من فضاء شاسع غامض، ولا يزال دائم البلى دائم التجدد".

والنفوذ إلى داخل الغابة أسهل ما يكون عن طريق الأنهار، وهناك عدد كبير من المجاري تبدأ من الأنديز وتتجه نحو الأمزون العظيم، ومن هذه الأنهار نهر جابورا ونهر إسا Issa، وهذا الأخير يزيد عرضه على ميل عند القائه بالأمزون، على أن الهنود لا يفيدون من النهر فائدة تذكر إلا في زيارة يقومون بها لجماعة قريبة بحثاً عن زوجة أو دفعاً لإهانة لحقت بهم فعلاً أو تخيلوا لحاقها، ولكنهم لا يستعملون النهر أبداً في سفر بعيد لغرض المتاجرة.

والسفر خلال الغابة شاق للغاية، ومن أيسر الأمور أن يضل المسافر فيها طريقه، وعلى أي حال يجب عليه أن يشق بنفسه كل خطوة يخطوها، وهو معرض في كل خطوة لأن تطحن عظامه تحت ثقل شجرة

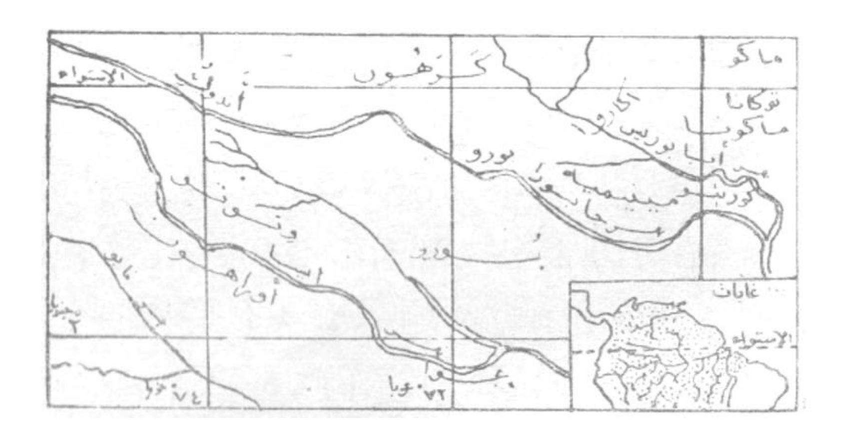
قد تسقط بدون سابق إنذار، أو تخترق قدمه أو ذراعه واحدة أو أكثر من الأشواك الكثيرة، أو تلسعه بعوضة أو ذبابة من أنواع الذباب العديدة، وقد تخترق جلده حشرة وتزحف على قدميه النمال، أو قد نهاجمه جيوش الزنانير والنحل والنمل إذا اهتزت من حوله شجرة. وهناك فوق ذلك الثعابين التي تزحف على الأرض، ولو أنها يندر أن تهاجم الإنسان إلا إذا آذاها، كما أن هناك التماسيح التي تزخر بها الأنهار. ولكن الحيوان الثديي الوحيد الذي يخشى خطره هو الببر، يضاف إلى كل هذه الصعوبات أن المسافر قد يقع فريسة للشعور القاتل بالوحشة والملل من المناظر المتشابهة والأصوات غير المتغيرة والخوف الدائم من أن يضل الطريق، ومن المحتمل دائماً أن يقضي المسافر أياماً دون أن يقابل أحداً من السكان.

ولكن الإقليم الذي يتناوله هذا الكلام ليس إلا جزءاً يسيراً من غابات الأمزون الشاسعة التي تبلغ مساحتها نحو مليونين من الأميال المربعة، "وكل شيء فيها، سواء الغابات اللانهائية أو الأنهار العظيمة، هائل لدرجة أن الإنسان يختلط عليه الأمر فيما يتعلق بالتفاصيل ولا يقر في ذهنه غير صورة اللانهائية التي لا تغير فيها".

ثم إن الأنهار العظيمة ونهيراتها التي لا عداد لها، والمناطق التي يغمرها فياضنها تقسم الأرض إلى بقع منفصلة مما يجعل العلاقة بين القبائل وبعض من الصعوبة بمكان، ومن أجل هذا يقطن هذا الإقليم عدة مئات من القبائل المتباينة، ولكنها جميعاً– فيما عدا القليل– قد أمكن

تقسيمها إلى مجموعات لغوية، على أن أحداً من هذه الأقسام لا يقطن إقليماً منعزلاً، فهي جميعاً مختلطة اختلاطاً شديداً مما يدعو إلى الاعتقاد بحدوث هجرات كثيرة.

والهنود القاطنون ما بين نهري إسا وجابورا لا يختلفون في شيء عن سائر الهنود من حيث مميزاتهم العامة، ولمن التفاصيل الدقيقة تختلف اختلافاً كبيراً من مجموعة إلى أخرى. فلون بشرتهم يميل إلى الصفرة السمراء، وقد يميل أحياناً إلى الحمرة ولكنه في الأغلب الأعم برونزي، وشعورهم مستقيمة سوداء خشنة غزيرة إلا فوق أجسادهم، وما يوجد على أجسادهم من شعر قليل، يزيلونه نتفاً بعصارة شجر المطاط التي تلتصق بأجسادهم حتى إذا جفت وجذبت اجتذبت الشعر معها. وتقص النساء شعرهن أو يحرقن أطرافه بالنار، أو يصففنه على شكل ذيل الخنزير. ويقص أغلب الرجال شعرهم أقصر من شعر النساء، ويفرقونه في الوسط ....



(شكل ٥٢) خريطة يبدو فيها توزيع قبائل معينة في أمازونيا

.... ويقصونه فوق الجبين في خط مستقيم، على أن قبائل البورو يفضلون الشعر الطويل. ورءوسهم متوسطة النسبة، ووجوههم ليست حادة التقاطيع، وأنوفهم عريضة، وشفاههم غير غليظة، وعيونهم قاتمة أو سوداء، وصغيرة ومنحرفة، وأجسامهم متوسطة الطول، إذ يبلغ متوسط الطول بين الرجال خمسة أقدام وأربع بوصات، وبين النساء أربعة أقدام وثماني بوصات، وأقدامهم كبيرة ومفلطحة، وفي مقدورهم أن يلتقطوا أي شيء من فوق الأرض بأصابع أقدامهم. أما من حيث الطباع فإن الهندي قوي الشخصية (impressive) صبور مخادع هادئ وذو قدرة كبيرة على الاحتمال.

وليست الملابس ضرورة في مثل مناخ أمزونيا الحار غير المتطرف، زد على ذلك أن الملابس الفضفاضة قد تحول دون سهولة السير في الغابة، وقد تتمزق على أفرع الأشجار وأشواكها. والأهالي على العموم لا يلبسون شيئاً على رءوسهم ولا أيديهم ولا أقدامهم، ولا ترتدي النساء شيئاً. أما الرجال فلا يلبسون غير قطعة من لحاء الشجر المطروق يضعونها بين الفخذين ويشدونها بحزام من نفس المادة يربط حول الوسط. وحتى الزعماء لا يختلف ملبسهم عن ذلك، ولكن من السهل تمييزهم عن غيرهم لأنهم يلبسون عادة حول العنق عقداً من أسنان الببر، بينما المحارب القدير بعقد من الأسنان البشرية يلبسه حول عنقه. ويقوم كل فرد بصنع ملابسه بنفسه، فهو يذهب إلى الغابة وينتقي شجرة مناسبة فينتزع من لحائها شريطاً يبلغ طوله نحو ستة أقدام ثم يأخذ الطبقة الداخلية من ذلك الشريط فيقطعها نصفين وينقعها في ماء النهر ثم يدقها

بمدقة خشبية ويلبس الهنود القاطنون إلى الغرب وإلى الجنوب من نهر إسا Issa فوق مآزرهم قميصاً طويلاً من ألياف لحاء الشجر عليها زخارف حمراء، وبعض الذين يقطنون في شمال نهر جابورا يلفون حول أجسامهم جدائل من ألياف لحاء الشجر، يلفونها لفاً محبوكاً حتى تصبح متماسكة القوام، وهناك قوم آخرون يلبسون إزاراً من ألياف اللحاء يتدلى إلى العقبين، ولكنهم يرشقونه بين الفخذين أثناء السير، ومن تقاليدهم أن حد لا يجوز له أن يخلع ملابسه في حضور شخص آخر سواء من الرجال أو من النساء.

ومع أن ما يلبسه الهنود من الملابس قليل جداً، إلا أنهم يتزينون بكثير من الحلى، سواء في ذلك الرجال والنساء، ولا سيما أثناء حفلاتهم. فيرتدي كل من الرجال والنساء أساور مزخرفة من الألياف مشدودة حول الساعدين، ويلبس الرجال عصابة من هذا النوع على كلا الذراعين، ويلبس النساء واحدة منها أسفل الركبتين مباشرة وأخرى أعلى العقبين، حتى يصبح لحم بطن الساق فيما بينهما منتفخاً بدرجة غير عادية. وتتزين النساء في الحفلات والرقص فيرسمن على أفخاذهن وأجسامهن أشكالاً هندسية باللون الأحمر والأسود والأبيض، ويتحلى كلا الجنسين بأدوات من الريش، فيلبس الرجال فوق رءوسهم أدوات من الريش جميلة الصنع، وتلصق النساء زغب الريش الأبيض على لحم بطن الساق فيما بين العصابتين اللتين تلبسهما، ويلبس الرجال والنساء على السواء حول العنق عقوداً من الأصداف والأسنان وأقراص من العظام والحبوب الملونة. وبعض القبائل يلبس أفرادها أمشاطاً مصنوعة من

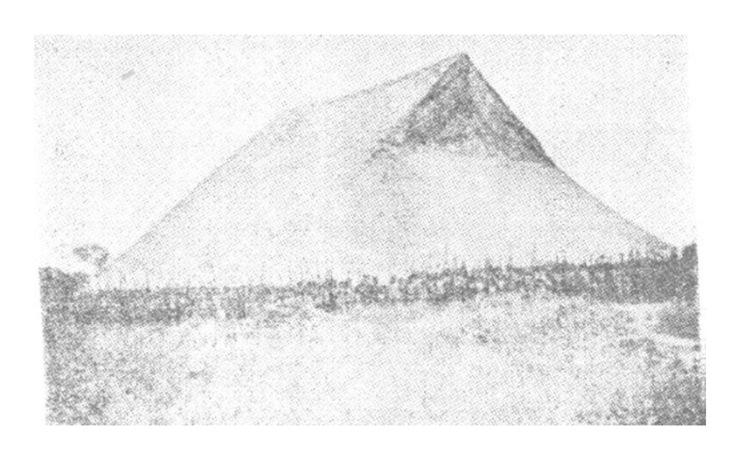
خشب النخيل يتخذون أسنانها من أشواك بعض أنواع النخيل يلصقونها إليها بواسطة القار ثم يزينونها بالريش؛ وكثيراً ما يلبس الهنود في أرجلهم شخاشيخ وحلياً من الريش كما تلبس الأساور المصنوعة من ذنب نوع من أنواع السحالي لأن لها في اعتقادهم خواص سحرية. وكلا الجنسين يحرق شحمة الأذن ويضعون في الخرق عوداً من الخشب، غالباً ما يضيفون إليه على سبيل الزينة خصلة من الريش، وكذلك يخرقون بنفس الطريقة أنوفهم ليرشقوا فيها دبابيس أو أعواداً أو ريشاً. ويخرق البورا وغيرهم من الهنود شفاههم ليلبسوا فيها أدوات الزينة.

ويقيم الهنود الحمر مساكنهم عادة على مسافة من النهر ليكونوا في مأمن من الفيضانات والحشرات، وكذا ليضمنوا أن لا تقع عليهم عين عدو قد يمر بطريق، ويوجد دائماً طريق يصل بين النهر وبين مكان إقامتهم، وقد يكون هذا الطريق مستقيماً في جزء من أجزائه ولكن يراعي دائماً أن يكون معظمه ملتوياً ومختفياً عن الأنظار بكل وسيلة ممكنة. وبدل أن يقيم هؤلاء الناس في مجموعة من الأكواخ نراهم ينشئون مسكناً جماعياً كبيراً يسمونه "مالوكا" يتسع لعدد كبير قد يصل من ستين إلى مائة شخص. ثم يقطعون الأشجار والعشب أمام المالوكا ويدكون الأرض بأقدامهم لتكون ميداناً يرقصون فيه، بينما تقع خلف المالوكا حديقة الزعيم، أما بقية السكان فلكل منهم حديقته التي تقع على مسافة تتراوح بين نصف ميل وبين مسيرة يومين من المالوكا، وفي هذه الحالة الأخيرة قد يقيم الهندي مسكناً مؤقتاً أو "منزلاً ريفياً" بجوار أرضه.

وتختلف المساكن في بعض التفاصيل، ولكنها عادة مربعة الشكل أو مستطيلة، على أنها في الحوض الأدنى لنهر أبوبورس Apoporis مستديرة الشكل، ويغلب أن يبلغ المالوكا نحو ٧٠ قدماً في الطول و٦٠ قدماً في العرض وثلاثين قدماً في الارتفاع، وهو يقوم على أربعة أعمدة كبيرة تغرس في الأرض، ويستقر على هذه وعلى عمود آخر جمالون وعلى عروق وعوارض تربط إلى بعضها ربطاً محكماً بالحبال وجذور الأشجار، سقف من القش ينحدر من الجمالون إلى علو نحو ياردة واحدة من الأرض. ويتكون السقف والجوانب من طبقات من أوراق النخيل، الأطراف العليا لكل طبقة تستقر فوق الأطراف السفلى للتي تليها إلى أعلى، وجميع الطبقات مثبتة بواسطة الغاب المفلوق، ويبلغ سمك هذه الطبقات من ١٢ إلى ١٨ بوصة، وهي بهذا السمك تحول تماماً دون نفوذ ماء المطر. على أن الحيطان تصنع أحياناً من صف من الأوتاد المتقاربة يربط إليها طبقات من القش. أما المدخل أو المداخل– لأنه كثيراً ما يكون للمسكن مدخل في كل جانب من جوانبه– فإنها لا تزيد على فتحات في القش ارتفاع كل منها ثلاثة أقدام وعرضها قدمان، وهي تبقى دائماً مغلقة وقد يكون ذلك بواسطة جزء متحرك من القش أو بستارة من القش أيضاً. ولا يوجد للمسكن نوافذ، وما يدخل إليها من ضوء وهواء إنما ينفذ إليها عن طريق ما يوجد بالقش من الشقوق، ويتسرب الدخان بنفس الطريقة إلى الخارج، ولا تختلف الظلمة في داخله نهاراً عنها ليلاً، علاوة على كونها دائماً حارة ومملوءة بالدخان، ولكن هذا يقيم من الحشرات، ولو أن العناكب والعقارب وحتى

الوطاويط تتخذ مأواها في القش.

ويترك الجزء الأوسط داخل المسكن خالياً منه الأطفال ملعباً والكبار مكاناً للاجتماع أو الرقص، وفي الركن القصي منه يتخذ الزعيم وأسرته مقامهم، وفي بعض منازل التوتر يفصل هذا الجزء عن سائر المسكن بستار من الحصير، وتقتسم سائر العائلات ما يتبقى من الفراغ الذي يلي الحيطان، ويكون لكل عائلة موقدها الخاص. ولا يوجد في العادة فاصل ...



(شكل ٥٣) "مالوكا" الوتوتو

.... بين العائلات المختلفة، فيما خلا قبائل الأبوبورس Apoporis حيث تقام حواجز من الحصير المجدول من لحاء الشجر المضروب تفصل بين كل عائلة وأخرى. ولكل عائلة في العادة ثلاث أرجوحات hammocks تعلق في الحائط وفي أعمدة المنزل أو في أعمدة تقام خصيصاً لها وترتفع فوق الأرض نحو قدمين ونصف قدم، وتوضع هذه

الأراجيح في شكل مثلث بحيث تكون قريبة جداً من الموقد، وتخصص واحدة منها لنوم رب العائلة وأخرى لزوجته والثالثة لمن لا ينام من الأطفال على الأرض العارية. وتتكون النار من ثلاثة أفرع تتجه رءوسها نحو الوسط، وتدفع الكتل إلى داخل الموقد كلما أكلت النار طرفها، ولا يسمح للنار أن تخبوا أبداً، لأن القبائل التي تقطن جنوب نهر جابورا لا يعرفون كيف يوقدون النار. وفي شمال النهر يولد الأهالي النار عن طريق إدارة قصبة في عصا مخرمة بمساعدة الصوفان، وهي عملية شاقة في هذا الجو المشبع بالرطوبة. وعندما يزمعون الرحيل يحملون معهم جذوة خامدة في لحاء شجرة من الأشجار ذات العصير التي يمكن اشتغالها بالنفخ فيها عند اللزوم. ويحتفظ الهنود بين عروق الخشب أو على الأرض بما يملكون من متاع قليل، كالآلات والأدوات والسمك المجفف واللحم المدخن.

وهذه المساكن التي تستلزم إقامتها بعض الوقت والجهد لا يستعملونها إلا لمدة سنتين أو ثلاث، وسرعان ما يهجرونها بمجرد ما يبدأ المطر ينفذ من شقوق السقف، لا سيما أن المزرعة أيضاً تكون قد فقدت خصوبتها ويكون مقامهم قد صار معروفاً لأعدائهم، فيقومون بإعداد مكان جديد على مسافة أميال قليلة يقيمون فيه مسكناً جديداً ويزرعون أرضاً جديدة. وهم لا ينقطعون على التردد على مزارعهم القديمة لجمع الثمار منها، ولكنهم لا يزرعون نفس البقعة ثانياً أبداً. ولما كانت الأرض التي زرعت مرة تفقد خصوبتها، فإن الزارع البدائي لا بد أن يحيا دائماً وإلى حد ما حياة التنقل التي يحياها القانص.

ويخرج الوطنيون مع الفجر إلى النهر ليسحملوا فيه، وتعود النساء يحملن فوق رءوسهن جراراً كبيرة ملأى بالماء، وعند العودة إلى المسكن يتناولون وجبة خفيفة من خبز "الكاسافا" البارد أو المغموس في قدر الفلفل، تصحبها جرعة من شراب مصنوع من خليط من الأعشاب. وبعد الانتهاء من تناول هذه الوجبة تتوجه النساء إلى المزرعة أو إلى الأدغال بحثاً عن الحاصلات البرية. ويخرج الرجال للقنص أو صيد السمك. وتعود النساء قبيل المساء بعضهن يحملن أطفالهن فوق خصورهم. وبعضهن يحملن سلالاً كبيرة مملوءة بحاصلات المزرعة، بينما اللائي كن قصدن إلى الأدغال يعدن وقد أصبن شيئاً من الكائنات الصغيرة كالسحالي والثعابين والضفادع. ولا تعود المرأة أبداً صفر اليدين، بينما الرجل قد يخطئه الحظ أحياناً فلا يصيب شيئاً من الطعام.

وفي الفترة التي يكونون فيها خارج المسكن لا يذوقون من الطعام سوى ما يجمعون من الثمار البرية، فإذا عادوا إلى مساكنهم في المساء واستحموا في النهر مرة أخرى قاموا بإعداد وجبة الطعام الأساسية، وسرعان ما يمتلئ الجو بالروائح الشهية المنبعثة من خبز الكاسافا الساخن ومن قدور الطعام التي تغلي. وتقوم أوراق النبات العريضة مقام الصحون والمفارش، كما تقوم الأصابع مقام أدوات المائدة. ويتناول الرجال طعامهم أولاً كل منهم بجوار موقده، أما الشبان غير المتزوجين الذين يحملون إلى الزعيم ما أصابوا من صيد فإنهم يتناولون طعامهم من قدر الزعيم ومن خبز الكاسافا الساخن الذي هيأنه زوجة الزعيم وأتباعه. فإذا انتهى الجميع من الطعام استرخى الرجال فوق أراجيحهم وقرفصت

النساء بجوار المواقد.

وتختلف واجبات النساء لدى الهنود الحمر عن واجبات الرجال، شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب البدائية، فعلى الرجال القيام بالأعمال الشاقة والخطرة كقطع الأشجار وإعداد الأرض للزراعة وبناء المساكن وحفر الفلائق وعمل الأسلحة، وعليهم أيضاً الصيد والقتال والتجديف. أما النساء فهن ربات البيوت وأمهات الأطفال وطاهيات الطعام، وهن اللائي يقمن بالزراعة ويصنعن القدور والأراجيح ومعظم السلال، "فحياة المرأة سلسلة متصلة من أعمال شاقة لا يسري عنهن إلا فرحة الاستعداد للرقص أو الاشتراك فيه" وتلقى النساء على العموم معاملة حسنة، ولكن محظور عليهن الاشتراك في بعض الاحتفالات ومشاهدة الأشياء المقدسة وتناول أطعمة خاصة واستعمال الكوكا والطباق.

والهنود فيما بين نهري إسا وجابورا لا يعرفون المعادن ولا الأحجار، وما لديهم من بلط حجرية ذات أيد خشبية يتوارثونه عن آبائهم، ولديهم مخارز ومكاشط من أسنان الحيوان، ولكن معظم أدواتهم من الخشب كالبشر المصنوعة من خشب المانيوق والسكين المصنوعة من خشب الحديد والهاون والمدقة والأمشاط والقصع والجرون troughs والطبول.

وتقوم نساء جميع القبائل بصنع قصع وأوان بسيطة من الفخار، ولكن ما تصنعه نساء قبيلة منيميهي Menimehe من هذه الأدوات يفوق ما يصنع لدى سائر القبائل من هذه البقاع. وهم يقايضون على بعض ما

يصنعون من هذه الأدوات مع بعض من يجاورهم من القبائل أو يقدمونها إليهم على سبيل الهدية. وتصنع القدور وتشكل بالأيدي، فيؤخذ الطين من النهر ويخلط برماد نار الخشب وتصنع منه أسطوانات مستطيلة تلف بعد ذلك لفات متعاقبة ثم تعجن وتحول إلى الشكل المطلوب. وتجفف الآنية في الشمس وتحرق، وطريقة إحراقها أن تغطي برماد النار الساخن ومواد بطيئة الاحتراق. وطريقة صنع الأواني الكبيرة التي تقدم فيها المشروبات المخدرة أثناء الاحتفالات هي أن تخاط قطع من لحاء الشجر بعضها إلى بعض بالأشواك أو بأخذ جزء من جذع شجرة وتجويفه حتى يصبح على شكل حوض.

وينام كل هنود حوض الجابورا في أراجيح، وهذه يقوم النساء بصنعها على إطار يتكون من عمودين وحبل طويل من خيوط الكورانا (curana) أو ألياف النخيل، يلف حول العمودين على مسافات تبلغ كل منها نحو بوصة أو بوصتين. وتربط إلى هذه الألياف أعواد من القصب متعامدة عليها. وعندئذ يشد النشيج الشبكي الناتج بواسطة عضوين ويعلق بالحبال في عمودين يرتفعان عن الأرض نحو قدمين وست بوصات.

وأحسن الأراجيح ما تصنعها قبيلة الوتوتو (Witoto) إذ فيها أشرطة للأرجل والأيدي مزخرفة زخرفة جميلة معقودة بالأصابع وليس لها إطار. وهم يصنعون الحصير، ولكنهم لا يعرفون النسيج، ويقوم الرجال والنساء على السواء بصنع السلال البسيطة الأشكال، وذلك باستعمال شرائح

من لحاء الشجر والقصب وأوراق النخيل، وتزخرف معظم السلال برسوم جميلة، وفي هذه الناحية يفوق الكاراهوني والبورو ما عداهم من الشعوب.

وتصنع الفلائق من تجويف جذوع أشجار الشربين أو الغار أو سواهما من الأشجار التي تصلح لهذا الغرض، وقد يبلغ طول الفليقة عشرين قدماً ولكن عرضها لا يزيد في العادة على ثماني عشرة بوصة. ويقوم الهنود بخرق ثقوب في كتلة الخشب ليحصلوا بذلك على الاتساع المناسب ثم يشطفون بعض أجزائها ببلط خشبية ويوقدون في الشطف النار، ويتركونها موقدة تأكل كل جوانب الجذع وقاعه إلى أن يصل التجويف إلى القدر المطلوب، وبعد أن يزيلوا الجمر المحترق، وبينما لا يزال الخشب ساخناً يضغطون جوانبه إلى الخارج بعوارض خشبية تباعد بين الجانبين وتزيد في اتساع الفليقة إلى أن يصل إلى الحد المناسب. وهذه العملية تتطلب مهارة وعناية وبدونهما يتعرض الخشب للتشقق. ومن فوائد الحرارة أيضاً أنها تساعد أطراف القارب على الإنثناء إلى أعلى وبذلك تصبح مقدمة القارب ومؤخرته أعلى من وسطه. وتعد الفلائق ملكاً للجماعة، وهم يخبئونها في الأدغال على مقربة من النهر، ولكن المجاديف يحتفظ بها في المسكن. وهناك فلائق صغيرة غير متقنة الصنع يمكن صنعها في ساعة واحدة وذلك بتجويف جذوع النخيل الغليظة، فيزال لبها اللين من داخل الغلاف الصلب بالسكين أو يسحق بالأصابع، وبعد ذلك تقوى الجدران بالطين. وكلا النوعين من القوارب يسير بمجاديف طول كل منها أربعة أقدام أو خمسة، يقطعونها من كتل

صلبة من الخشب ولها حد طويل غير مستدير. ويجدف الرجال وهم متجهون بوجوههم نحو الجهة التي يقصدونها، وتتحرك مجاديفهم في وقت واحد حركة منتظمة متناسقة. ومع أن الأنهار هي أسهل سبل الاتصال وسط تلك الغابات الكثيفة، إلا أن هنود الأمزون الأعلى لا يحبون ركوب الماء.

ولا يتعفف الهنود القاطنون قرب نهر جابوا عن أكل أي شيء بما في ذلك قمل الرأس، وتقوم النساء– علاوة على زراعة المانيوق وغيرها من الحاصلات– بجمع ما يستطعن جمعه من الحيوانات الصغيرة كالفئران والجرذان والضفادع والسحالي والثعابين. ويتسلق الرجال الأشجار بحثاً عن الثمار وأنواع البندق وبراعم نخيل الكرنب (cabbage-palm) الغضة، ويصيدون السلاحف إذا عثروا عليها فوق الشواطئ الرملية وذلك بأن يقلبوها على ظهورها، وهم يأكلون بيضها ولكنهم لا يأكلون بيض الطيور، وكل هذه الأشياء يلتهمونها بلذة، وكذلك يأكلون الصلصال ولا سيما ما يكشطونه من تحت المواقد، وقد يكون ذلك راجعاً إلى قلة ملح الطعام في غذائهم. ويجمع العسل من الأشجار المجوفة وغيرها من الأماكن في داخل الغابة بعد أن يسلطوا الدخان على النحل ليطردوه. أما المنيميهي Menimehe فلا يجمعون العسل بهذه الطريقة بل يقيمون في القش جذع شجرة مجوفاً كي تتخذ النحل فيه بيوتها. والعسل عنصر أساسي في المشروبات التي يتناولها الهنود في احتفالاتهم.

ولا يربى الهنود من الحيوانات المستأنسة سوى عدد قليل جداً من الكلاب وعدد أقل من الحيوانات المنزلية، ولذلك يعتمدون اعتماداً كبيراً على قنص الحيوان أو إيقاعه في الفخاخ للحصول على ما يلزم لغذائهم من اللحوم. وليس حيوان الصيد نادراً فعلاً في الغابة ولكن العثور عليه غير هين، وعلاوة على ذلك تحول كثافة النبات دون سهولة صيده. على أن الهنود ذوو قدرة كبيرة على تعقب آثاره، ولهم معرفة تامة بعادات كل نوع وبالأماكن التي يقيم فيها، وفي مقدورهم أن يقنصوا بالحراب الخفيفة حيوانات كبيرة كالسناد (tapir) وأن يسقطوا ببنادق النفخ كثيراً من الحيوانات الصغيرة كخنزير الغابة (bush-pig) والكسلان (sloth) والدب آكل النمل والقرد، وكذلك الطيور كالببغاء والماكو (macaw نوع من الببغاء يعيش في أميركا الجنوبية) والتوكان (toucan) ومالك الحزين (egret).

ويصنع الهنود حرابهم من خشب صلب يأخذونه من نوع من النخيل، ولكي تصير ناعمة ملساء يحكونها بفك سميكة البيراي Piral الذي يشبه المبرد ثم يصقلونها ببعض أوراق الشجر ذات السطح الخشن. وللحربة رأس قصير ذو نصل مسموم يصنع على حدة من قصب البامبو ثم يثبت إلى الساق. ويحمل القانص عادة نحو سبع من هذه الحراب في يده وسبع أخر في كنانة من قصب البامبو، وفي مقدوره أن يصيب بها إلى مسافة ثلاثين ياردة.

وبندقية النفخ هي أهم أسلحتهم، وهم لا يحملونها إلا للصيد إذ

أنها لا تستعمل في القتال، وهي قريبة الشبه بتلك التي يستعملها الوطنيون في جنوب آسيا الشرقي (انظر الفصل الثالث)، ويختلف طولها من ثمانية أقدام إلى أربعة عشر قدماً، وتتركب من قسمين هما عادة قطعتان من نخيل الشنتا chonta palm تهذبان بعناية ثم تحزان بالرمل وبأداه مصنوعة من أسنان الباكا(١٠) إلى أن تتطابقا، وبعد ذلك تثبت إحداهما إلى الأخرى بمهارة فائقة، ويلف حولها جميعاً أشرطة من لحاء أو خيوط من الألياف ثم تكسى بطبقة من العصارة اللزجة. ويبلغ قطر فتحة هذه الأداة نحو ربع بوصة، وهي تصقل من الداخل بواسطة خيوط قد غمست أولاً في الصمغ ثم في الرمال. وبعد ذلك يثبت إلى أحد طرفيها مبسم من العاج يبلغ قطره الخارجي نحو بوصة ونصف، وتثبت على بعد قدم من المبسم قطعة من العظم تكون بمثابة "ذبابة التصويب".

أما القذائف الصغيرة التي لا يزيد طولها على تسع بوصات ولا يزيد قطرها على قطر عود الثقاب فإنها تحمل في كنانة من قصب البامبو مبطنة بالعشب أو السمار يلفعونها وراء ظهورهم، يضاف إليها قرعة صغيرة تحوي زغباً ناعماً مأخوذاً من لوزات شجرة قطن الحرير silk-cotton ليلصقوا قليلاً منه على مؤخرة القذيفة قبل وضعها في البندقية، كما يضاف إليها أيضاً عظمة فك سمكة الببراي Pirai التي يبردون بها أطراف القذائف. والسم الذي يستعمل هو مادة الكيوراري Curare المشهورة التي يحصلون عليها بغلي عصارة شجرة من الأشجار التي تفرز الاستركنين السام strychnos toxifera مخلوطة بعناصر أخرى حسب

---

(١٠) نوع من القوارض يعيش في البرازيل يشبه الحيوان الصغير المعروف باسم خنزير غانة.

وصفة معروفة يتوارثها الأبناء عن الآباء. ويحمل السم في وعاء صغير يعلق في طوق حول العنق حتى يكون دائماً في متناول اليد إذا أرادوا أن يدهنوا نصل سهم أو قذيفة. وأمهر الناس في صنع هذا السم هن الأندوكي Andoke؛ ويستطيع الصائد الماهر أن ينفخ القذيفة من بندقية النفخ فتحدث صوتاً خفيفاً وتنطلق إلى الهدف فتصيب على مسافة مائة قدم، أما أصغر الطيور فيمكن إصابتها على بعد عشرين ياردة ويكون موتها حينئذ محققاً ولو أنه قد لا يحدث في الحال.

ولهؤلاء الهنود أيضاً مهارة في استعمال الفخاخ، فهم أحياناً يوقعون الحيوانات الكبيرة في شباك ضخمة يمدونها بين الأشجار ويستعملون مصائد بسيطة لصيد الطير، ويضعون الحبالات المصنوعة من جذور الأشجار للإيقاع بالقردة، وهم يثبتونها في جذوع الأشجار في الأماكن التي تتردد عليها هذه الحيوانات، وينصبون الفخاخ الساقطة dead falls[11] التي تصيد أي شيء، من الفأر الصغير إلى الببر. ويحفرون في طريق حيوان الغابة حفراً يغرسون في قاعها خوازيق يخفونها بالعشب ثم يغطون الحفرة بأغصان الشجر.

ولا يهتم البورو بصيد السمك إلا قليلاً، لكن سائر الشعوب المجاورة لهم يصيدونه بطرق مختلفة منها الشباك الضيقة المصنوعة من ألياف النخيل ينصبونها عمودية في مجرى الماء، ومنها الفخاخ الضيقة

---

(11) الفخاخ الساقطة (dead0falls) نوع من الفخاخ لها ثقل يسقط على الحيوان بمجرد لمس الفخ فيقضي عليه أو يمسك به.

المصنوعة على هيئة سلال، ومنها الحراب ذات الخطاف، ومنها الفخاخ الضيقة المصنوعة على هيئة سلال، ومنها الحراب ذات الخطاف، ومنها السنانير المصنوعة من الألياف يثبت في أطرافها خطاطيف من الخشب أو من الأشواك مطعومة بالديدان. على أن أهم طريقة لصيده هي استعمال السم المأخوذ من جذور البابسكا Babasca. وعندما يزعمون استعمال السم يقيمون بعرض النهر خوازيق من فروع الشجر. ويحتفظ النابو Napo بالسم المجهز في سلة يغمسونها في النهر، لكن معظم القبائل يكتفون بإلقاء الجذور في الماء فينتشر فيه السم وسرعان ما يطفو السمك على سطحه وحينئذ يقومون بجمعه، ومن حسن الحظ أن هذه الطريقة لا تنال من صلاحية السمك للطعام.

ويحتفظ الهنود في كل بيت بزوج من طبول الإشارة يشبه البراميل شبهاً كبيراً، يعلقونها مائلين في عروق السقف بواسطة حبال من صنعهم، وتصنع هذه الطبول من كتل من الخشب الصلب يبلغ طولها نحو ستة أقدام وقرها نحو قدمين، وهم يفتحون في كل كتلة فتحة طويلة ضيقة تتسع عند كلا الطرفين ثم يجوفونها بحجارة محماة ومثاقيب من أسنان الحيوان وبلط من الحجر وكلها تعمل من خلال الفتحة الضيقة. وهم يراعون عند التجويف أن تختلف قشرة الطبلة في سمكها من نصف بوصة عند أحد الطرفين إلى أربع بوصات عند الطرف الآخر كيما تعطي نغمات مختلفة عند كل من الطرفين، والطرفان هما عبارة عن خشب الشجرة الذي لم تتم إزالته ويختلف أحد الطبلين في حجمه عن الآخر، فالأكبر منهما (أو الأنثى كما يسمونه) يحدث أصواتاً أقل ارتفاعاً مما

يحدث الأصغر (أو الذكر)، أي أنهما يعطيان معاً أربع نغمات. ويقف الضارب بين الطبلين ويضرب عليهما ضرباً سريعاً في نغمات قصيرة أو طويلة بعصا ذات رأس من المطاط فتنبعث منهما أصوات جوفاء مكتومة قد تسمع على بعد عشرين ميلاً. وتستعمل هذه الطبول للتحذير، وقد تستعمل كذلك في إرسال إشارات وتعليمات مطولة، والواقع أنها هي الوسيلة التلغرافية والتليفونية في حوض الأمزون، وهي شبيهة بما هو متبع في إفريقية وجنوب آسيا الشرقي وميلانيزيا.

وهذان الطبلان– علاوة على استعمالها في الإشارة– يستعملان كذلك لضبط الإيقاع ولزيادة الضوضاء العامة أثناء الرقص. على أن الطبول الصغيرة المصنوعة من جذوع النخيل بعد تجويفها أو من قصب البامبو شدت إليه جلود القردة هي الأدوات التي يغلب استعمالها لمصاحبة الساجات والشخاشيخ والمزامير المصنوعة من قصب البامبو، ومن عظام سواعد من ذبح من الأسرى، والأراغيل التي تتركب من ثلاثة أو خمسة أو ستة أو سبعة أو أكثر من أعواد القصب مختلفة الطول ومربوطة بعضها إلى بعض بألياف النخيل. ويبدو أن هؤلاء الهنود لا يقصدون من استعمال الآلات أثناء الرقص إلى ضبط الإيقاع بقدر ما يقصدون إلى زيادة الضوضاء.

والجماعات التي نطلق عليها اسم القبائل كالوتوتو والبورو وما إليها هي في الواقع وحدات لغوية أكثر مما هي وحدات سياسية، والوحدة الأساسية هي العشيرة أو الجماعة التي تقطن مكسناً واحداً، وهي تضم

عدداً من الأنفس يتراوح بين ستين ومائة وقد يزيد، يشتركون جميعاً في مسكن واحد وفي منطقة للقنص ومنطقة لصيد السمك يعترف بحقهم فيها، ويخضعون جميعاً لزعيم واحد. ولكل مجموعة من مجموعات العشيرة اسم مشترك يطلق على جميع أفرادها ويتوارثه الأبناء عن الآباء. وقد يقام في بعض البقاع أكثر من مسكن واحد (مالوكا) يجاور بعضها بعضاً لكل منها في العادة زعيمه المستقل، ولكن ليس هناك زعيم واحد يعترف به الجميع، وليس هناك أي تنظيم يربط جميع العشائر ويجعل منها وحدة كبرى. على أنه يوجد شعور بالألفة يرب بين مختلف العشائر التي تنتمي إلى مجموعة لغوية واحدة، وقد تتحد تحت قيادة رجل ذي مواهب فذة إذ دهمها خطر مشترك، ولكن هذا حدث نادر الوقوع. وللزعيم حق القيادة في القتال والصيد ورياسة الاحتفالات، ولكن ليس من حقه أن يصدر إلى أحد من العشيرة أمراً أو أن ينزل بأحد عقوبة؛ والواقع أن سلطانه يتوقف على نفوذه الشخصي وعلى مقدار ما يتمتع به منفسه رجل الطب من نفوذ. ويرأس الزعيم المجلس الذي يضم جميع رجال العشيرة، وهذا المجلس يسير في مناقشاته حسب تقاليد خاصة تلعب فيها "قارورة الطباق" دوراً رئيسياً. والعادات الموروثة هي القانون الوحيد السائد بين هذه القبائل، يقضي العرف أن يرث الزعيم أكبر أبنائه، ولكن المجلس قد ينحيه ويولي بدله أحد شيوخ العشيرة.

ومن عاداتهم أن لا يتزوج الشاب من عشيرته، بل يختار زوجته من عشيرة أخرى، والنسب بينهم يرجع إلى الأب. وعندما تتزوج المرأة تنتقل إلى حيث يقيم زوجها.

والشامان– رجل الطب– في أمزونيا هو الطبيب وهو الساحر، ولكنه ليس من رجال الدين، وهو منوم مغناطيسي وساحر وصانع سم وغالباً ما يكون ذا دراية بخواص العقاقير. وهو يدعي القدرة على كشف أسباب المصائب وقراءة الغيب والتنبؤ بالكوارث وشيكة الوقوع، كما يدعي القدرة على إنزال الضرر بالناس عن طريق السحر الأسود. ويعتقد من حوله أنه يستطيع الاتصال بالأرواح والتشكل في صورة ببر، ولكن عمله الرئيسي ينحصر في قدرته على شفاء الأمراض. وهم يؤمنون بهذه القدرة إيماناً عميقاً، والواقع أن ما ينالونه من الشفاء يرجع إلى هذا الإيمان أكثر مما يرجع إلى علاج الطبيب.

ويعتقد الهنود أن كل ما يحل بهم من ألم ومرض وموت مرجعه إلى فعل أرواح شريرة سلطها عليهم أعداؤهم، وتنحصر مهمة الشامان في محاربة هذه الأرواح إذ أن "السحر لا يبطله إلا السحر"، فإذا نجح الشامان في مهمته أجزل له العطاء، أما إذا فشل فإنه ينتحل الأعذار ويتوجه إلى الغابة ليأتي أعمالاً سحرية ضد منافسه الذي تغلب عليه على حد قوله.

ويخلف الشامان ابنه، فإذا أعقب أكثر من ولد خلفه أغزرهم شعراً. ويتبع الولد أباه في جولاته ليأخذ عنه أسرار المهنة، وعليه أن يجتاز في النهاية اختباراً في هذه الناحية. ولكل شاكان مسكن خاص وهو يشترك في النشاط العام للعشيرة، وقد يزيد نفوذه على نفوذ الزعيم. وهناك أشياء لا يقر بها الزعيم، فمثلاً لا يحل له تناول أنواع خاصة من الأطعمة أثناء

ارتداء ملابسه، على أنه يحمل معه دائماً حقيبة من نسيج من لحاء الشجر أو من جلد الحيوان تحتوي على شخشيخته وأدوات أخرى منوعة مثل مخلب صقر ضخم وخيطاً من رؤوس الكوارتز وكوباً مصنوعاً من صدف نوع خاص من الأسماك النهرية. ويسود الاعتقاد بأن الشامان إذا مات تحول إلى ببر يجوب أنحاء الغابة.

وتكاد الحروب بين القبائل لا تنتهي، ويشترك البورو ومن جاورهم من الأوكاينا Okaina والرزيجيرو Resigero في كراهيتهم للوتوتو، وحتى بين الجماعات التي تنتمي إلى مجموعة لغوية واحدة تقع الحروب أحياناً، وهي لا تنشب بدافع الطمع ولكن بسبب خوف بعضهم من بعض، ويرون أن القضاء على أعدائهم هو الضمان الوحيد لسلامتهم. ومن معتقداتهم أيضاً أن كل ما يلحق بالإنسان من ضرر إنما يرجع إلى فعل عدو ويجب الانتقام منه.

ولا يقيم الهنود حول مساكنهم أي نوع من التحصينات، لكنهم يحفرون أحياناً على طول المسالك المؤدية إلى المحلة حفراً يثبتون في قاعها خوازيق حادة. وعندما يزمعون الغزو يجتهدون دائماً أن يفاجئوا العدو، ويفضلون أن يكون ذلك في أعقاب احتفال حين يكون الأعداء نياماً أو سكارى. ويتسلح المهاجمون بحراب مسمومة أكبر من حراب الصيد، وبسيوف خشبية ذات حدين طولها نحو ياردة، وبأقواس يطلقون منها سهاماً ذات أطراف مسمومة يصنعونها من النخيل الصلب. ويفاجأ العدو بضربة في على الفخذين فيهوى على الأرض وحينئذ يقضون عليه بضربة هراوة ثقيلة على أم رأسه.

والذين لا يفرون من المعركة يقتلون جميعاً أو يؤسرون، فالأطفال دون السابعة الذين لا يستطيعون لصغر سنهم أن يرتكبوا خيانة في حق المنتصرين يصبحون ملكاً للزعيم، ويمضي الزمن تتزوج البنات ويمنح الأولاد حريتهم عندما يبلغون الحلم، أما سائر الأسرى فيبقون يوماً أو نحو ذلك ريثما يتم الاستعداد لحفلة ابتهاج بالنصر قد تدوم عدة أيام يتخللها كثير من الولائم والشراب، وفي هذه الحفلة تقطع رقاب الأسرى بالسيوف الخشبية وتقسم لحومهم، ثم تقام وليمة تلتهم فيها هذه اللحوم عدا الأجزاء التي يعتقدون أنها غير صالحة للأكل كالجذع والأمعاء والمخ فيقذف بها في النهر أو يلقى بها للكلاب. أما عظام الساعدين فإنهم يصنعون منها صفافير، بينما عظام الذراع يقلب بها الوعاء الي يحوي مشروبات الاحتفال، ويصنعون من العظام عقوداً، أما عظام الجماجم بعد أن يأتي النمل على محتوياتها فإنها تعلق في المسكن تخليداً للنصر. على أن البورو لا يحتفظون بالجماجم على هذه الصورة. والسبب في أكل لحوم الأسرى أن المنتصرين يطمعون من ناحية في اكتساب بعض صفاتهم، ومن ناحية أخرى– وهي الأهم– أنهم متعطشون للثأر راغبون في أن يلحقوا بأعدائهم أعظم قدر مستطاع من المهانة.

والزواج من امرأة واحدة هو القاعدة المتبعة في غرب أمزونيا، وعلى الشاب أن يختار عرسه من عشيرة أخرى غير عشيرته ولكن صديقة لها، وبعد أن يبرهن على أن في مقدوره أن يعول زوجاً– وذلك بإعداد أرض الغابة وإقامة المسكن– عليه، ينال موافقة والدي العروس، لكنه لا يدفع لها ثمناً ولا يأخذ منها مهراً. وبعد قليل تأخذ العروس طريقها إلى حيث

يقيم أهل العريس. هذا ويحدث أحياناً أن تعقد خطبة الولد والبنت وهما لا يزالان في سن الطفولة.

وعندما تحمل المرأة تمتنع عن تناول أنواع خاصة من الأطعمة، ولكنها بعد الولادة بقليل تباشر واجباتها المعتادة، بينما يلزم الأب أرجوحته ويمتنع عن تناول أنواع خاصة من الأطعمة، كما يمتنع أسبوعاً كاملاً عن صنع الأسلحة وعن استعمالها، وهذا التقليد الغريب الواسع الانتشار الذي يقضي على الأب بلزوم فراشه عندما يولد له طفل يسمى كوفادي (couvade). وترضع الأم وليدها حولين أو ثلاثة مما يجعل العائلات قليلة العدد؛ ومن عاداتهم أن الطفل المشوه وكذلك التوأم الأصغر يؤخذ إلى الغابة حيث يترك ليلقي حتفه.

ويغرم الآباء بأبنائهم ولا يوقعون بهم عقاباً، ويختار للطفل اسم بعد ولادته بثمانية أيام، ويصنع الرجال لأبنائهم اللعب على هيئة حراب وسيوف خشبية وبنادق نفخ، ولكن الأولاد يندر أن يلعبوا بها. ولا يتلقى الأولاد أي نوع خاص من التعليم ولكنهم يتعلمون كل شيء عن طريق التقليد، ولا يسمح للأولاد والبنات بتناول اللحوم إلا بعد البلوغ، وحينئذ يدرب الشبان على صيد ويحضرون مجلس العشيرة، بينما تلجأ البنات إلى منازل سرية في الغابة حيث يبقين إلى أن تتم معدات زواجهن.

ويدفن الميت في نفس يوم وفاته، فيحفرون في أرض المسكن تحت الموقد لحداً غير عميق يبطنونه بأوراق الشجر، ثم يضعون فيه الجثة فوق أرجوحتها في وضع الجالس ومعها كل ما كان يملك صاحبها

من الحلي والأسلحة والأواني، ثم توقد فوق اللحد نار يبقونها مشتعلة بضعة أيام، وبعد ذلك يقصد كل من اشترك في تشييع الجنازة إلى النهر ليتطهر بالاستحمام. أما في حالة وفاة الزعيم فإن منزله يحرق ويقام بدلاً منه منزل جديد بالقرب منه على أرض العشيرة.

ويعتقد هؤلاء الهنود أن الإنسان روحاً تترك الجسد مؤقتاً أثناء النوم ونهائياً عند الموت، وأنها تظل باقية طالما بقي الميت مذكوراً، لكن فكرة خلود الروح بالمعنى الدقيق غير معروفة لديهم. وكذلك يعتقدون أن هناك حياة بعد الموت تشبه الحياة الدنيا شبهاً كبيراً، ولكنها أوفر منها حيوان صيدٍ، وأن جميع الكائنات من حيوان وجماد لها أرواح منها الخير وغير الخير، ويتقون شر النوع الأخير باستعمال التعاويذ، ويعتقدون كذلك في التفاؤل والتشاؤم، ولكنهم لا يتجهون إلى آلهتهم بالعبادة أو بالقرابين، على أنهم يقيمون حفلات دينية يحتل فيها الرقص مكانة ممتازة.

وتحدث الدعوة إلى الرقص بضرب الطبول؛ وعندما تدق الطبول داعية إلى حفلة راقصة يدهن النساء أجسامهن ويلبس الرجال والنساء أبهى حللهم ويعقدون اجتماعاً في الجزء الأوسط المظلم من المنزل الذي لا يضيئه إلا ضوء ضئيل ينبعث من مشاعل خافتة. وفي بعض رقصاتهم يتجمع الرجال الذين غالباً ما يلبسون أقنعة من نسيج من لحاء الشجر ويحملون الدفوف والشخاشيخ، على هيئة دائرة متشابكي الأذرع، أما النساء فإنهن يرقصن داخل هذه الدائرة أو خارجها وقد وضعن أيديهن اليسرى على أكتاف الرجال. ويتخلل الرقص غناء وولائم وشراب.

وقد تغير نظام حياة الهنود الذين يعيشون قرب الأنهار العظيمة لا سيما في أجزائها الدنيا، وذلك عن طريق احتكاكهم بالجنس الأبيض. أما القبائل التي لا تزال على حالتها البدائية فإنها لا توجد الآن إلا في أعماق الغابات الكثيفة، وحتى في الأجزاء الشمالية الغربية من أمزونيا بين نهري إسا Issa وجابورا تطورت حياة الهنود نتيجة لاختلاطهم بتجار المطاط. وفيما بين ١٩٠٣ و١٩١٠ تغيرت نظم الحياة بين الوتوتو تغيراً تاماً وتعرضوا لكثير من أعمال الوحشية، ومعظمهم يعيش الآن في جمهورية بيرو ويتكلمون اللغة الإسبانية. وكذلك البورو الذين كان عددهم يقدر بنحو خمسة عشر ألف نفس قد نقصوا إلى العشر، نتيجة للعسف الذي قوض أسس الحياة القبلية في الإقليم بأجمعه، وكثير من الذين بقوا على قيد الحياة يشتغلون الآن بصناعة المطاط ويتكلمون الإسبانية، ولكن عدداً قليلاً منهم فقط لا يزال يعيش في البرازيل.

الفصل الحادي عشر

الزراع البدائيون في إفريقية الاستوائية

الغابات الاستوائية الإفريقية التي توجد في الناحية الغربية من القارة– لا في الناحية الشرقية كما هي الحال في أمريكا الجنوبية– لا تبلغ في امتدادها ما تبلغه نظيرتها في أمزونيا. وتغطي النباتات الضخمة الكثيفة الإقليم الذي تجري فيه روافد الكنغو الشمالية، وكذلك الإقليم الواقع حول الأجزاء الدنيا لروافده الجنوبية، وتمتد بحذاء ساحل غينيا حتى نهر جامبيا. على أن غابات حوض الكنغو بيست متصلة كغابات ساحل غينيا أو أمزونيا، إذ توجد هنا مناطق منخفضة مغطاة بالغابات تتخللها مناطق من السافانا ذات الأعشاب الطويلة والأشجار المتناثرة. وتنمو في الغابات بعض الأشجار ذات الخشب القيم كالموجنه ونخيل الزيت وشجر المطاط وكذلك الموز والكولا. وتقع المنطقة التي تغطيها الغابات على جانبي خط الاستواء، ولذلك كان معدلها الحراري عالياً إذ يبلغ نحو ٨٠° ف (نحو ٢٧° م) على أن معدل الحرارة في بعض أجزاء ساحل غانة يقل عن ذلك ما بين ديسمبر وفبراير، إذ قد تهبط الحرارة إلى ٦٥° ف (نحو ٢٢° م) كلما هبت الرياح المعروفة باسم الهارمتان.

ويسقط المطر في جميع فصول السنة ويزيد متوسطة في كل مكان

على ٦٠ بوصة، وقد يزيد على ١٠٠ بوصة في بعض البقاع، ولكنه لا يسقط في جميع الفصول بنفس المعدل، ففي بلاد غينيا مثلاً يسقط أغزر المطر من إبريل إلى يولية، بينما في بعض أجزاء حوض الكنغو يسقط أغزره بين أغسطس وديسمبر. وقد كان من أثر هبوب تيار غينيا الحار أن صار المدى الحراري في إقليم غينيا قليلاً جداً وصار مطره أغزر، ومن جهة أخرى يتسبب تيار بنجويلا البارد الذي يسير شمالاً بحذاء الساحل الغربي لإفريقية الجنوبية في خفض حرارة هذا الإقليم وتقليل مقدار المطر الساقط على الساحل جنوب مصب الكنغو. والرطوبة عالية دائماً في كل مكان، والجو دائماً خانق ومشبع بالبخار كما هي الحال في أمزونيا.

وقد أدى تناقص مقدار المطر وزيادة طول الفصل الجاف إلى التناقص في كثافة النبات على أطراف الغابات وانتهائها تدريجاً إلى السافانا ثم إلى أرض البساتين، فنرى الأشجار الضخمة دائمة الخضرة التي تنمو الغابات الاستوائية قد حلت محلها هنا أشجار نفضية مثل الباوباب والخرنوب (Locust)، بينما العشب الذي قد يصل ارتفاعه إلى اثنى عشر قدماً يزكو خلال موسم المطر فقط ثم لا يلبث أن يجف ويصبح من السهل إشعال النار فيه.

وإذا استثنينا الأقزام الذين تكلمنا عنهم في الفصل الأول نجد أن سائر سكان الغابة يعيشون على الزراعة، ولا تزيد أدواتهم الزراعية على عصى الحفر والفؤوس، وهذه الأخيرة أرقى كثيراً من الأولى. وللفأس

سلاح من الحديد طوله نحو قدم وعرضه نحو سبع بوصات أو ثمان، وفي أسفلها خرزة من الحديد لا من الحجر. وقد وصف أحد الرحالة طريقة إعداد الأرض في غابة من غابات حوض الكنغو فقال:

"تقطع أولاً النباتات التحتية والفروع الصغيرة، ثم تقطع الأشجار الكبيرة على ارتفاع نحو ثمانية أقدام من سطح الأرض، ويتركونها مكانها بعد سقوطها. وعند انتهاء العملية يكون العشب والنبات التحتي الذي قطع أولاً جف لدرجة تسمح باستعماله القضاء على الأشجار الضخمة التي لم تقطع بعد، فيجمعونه حول ضخام الأشجار ويقدون فيه النار فتحرق قشورها وتقضي على الحياة فيها ولا تترك منها إلا أغصاناً جرداء تمد أذرعها فوق زراعات الموز والدخن والأرز والذرة والبطاطا والمانيوق"[١٢].

وقد أنشأ الوطنيون في بعض البقاع مزارع للموز، ولكن هذه لا تمتد شمال خط عرض ٤° ش في وسط القارة وخط عرض ١١° ش في سائر الجهات. وزراعة الموز عمل هين تقوم به النساء، فإن شجرة الموز الأصلية تخرج كل عام أعواداً جديدة يمكن نقلها إلى مزارع جديدة. وهم يحفرون في الأرض حفرة يضعون فيها العود ثم يردمونها ويدكونها بالأقدام حول العود دكاً جيداً، وبعد ذلك يؤتي أكله في نحو عشرة أشهر. وتقطع النساء أغصان الموز بالسكاكين ويحملنها إلى المنازل في سلال. ويقال إن الرجل في إقليم الموز يستطيع بمساعدة ثلاث زوجات

([12]) Major powell. Cotton, Geog. Journal, vol xxx. P. 377.

أو ثلاثة عبيد أن يحيا حياة ميسرة، لأن النساء يحملن إليه الموز كل يوم من المزرعة، وقد يزيد وزن ما يحملنه فوق ظهورهن من ثمار الموز على قنطار. ومما تقوم النساء بعمله أيضاً تحضير شراب مخدر من ثمار الموز.

على أن زراعة الجذور ولا سيما الصرغم أوسع انتشاراً، ويزرع الدخن في بعض المناطق ولا سيما التي تقطنها شعوب أتت في الأصل من الأقاليم المكشوفة في الشمال حيث تكون زراعة هذه الحبوب أكثر سهولة وقد حلت زراعة الأذرة والمانيوق، وكلاهما مستورد من أمريكا، محل الدخن والصرغم في أكثر المناطق لسهولة زراعتها ولكثرة ما يعطيان من محصول بالنسبة لما يبذل في زراعتها من جهد.

ويلعب الدخن دوراً هاماً في الزراعة الإفريقية في جميع الإقليم الواقع بين الغابات والصحراوات، وتؤكل حبوبه بطرق شتى كما يصنع منها الخبز أيضاً. والعمل في إقليم الدخن أشق منه في إقليم الغابات، بسبب تناقص المطر واقتصاره على أشهر الصيف وطبيعة التربة الفقيرة الصلدة. على أنه من السهل إحراق العشب. ويقوم الرجال في هذا الإقليم بدور في الزراعة أكبر مما يقوم به الرجال في إقليم الغابات.

وتزرع حبوب الدخن في نهاية الفصل الجاف، فتحفر في التربة حفر غير عميقة بعضها على بعد نحو ثلاثة أقدام من بعض، وتوضع فيها الحبوب ثم تغطى بالتراب. وبعد ما ينمو النبات يقلعون من كل حفرة

بعض الأعواد ليبقى النبات خفيفاً[١٣]. وما يقلعونه من حفرة يستطيعون زراعته في مكان آخر. وتعزق الأرض مرة واحدة ثم يترك النبات وشأنه إلى وقت الحصاد. ولا بد لهؤلاء الزراع من الصبر وبعد النظر لأن كل تقصير من جانبهم له عواقبه السيئة، لأن "الذي يخلو محزنه لا بد أن يجوع أو يلجأ في النهاية إلى جحور النمل ليسلبها ما بها من حبوب".

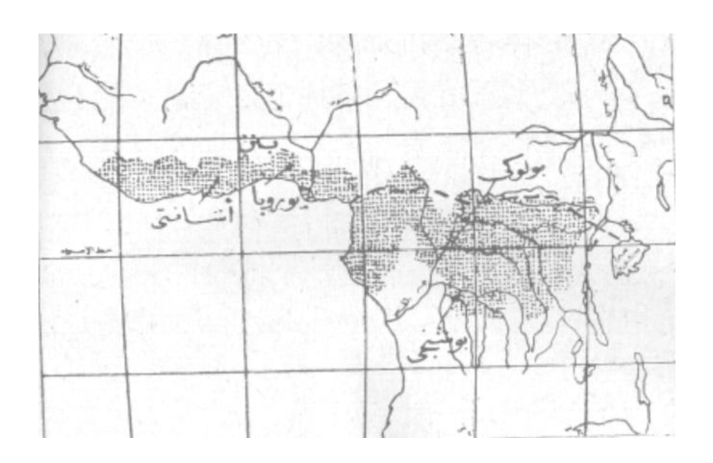
وقد يبادر أحد بعيدي النظر إلى مديد المساعدة إلى من أهمل فيقرضه طعاماً في مقابل خدمة، وبهذه الطريقة يستطيع بعيد النظر أن يكسب نفوذاً، وقد ينتهي به الأمر أن يصبح نافذ الكلمة في قومه أو شبه زعيم.

وجميع سكان الغابات، فيما عدا الأقزام، ذوو بشرة قاتمة وشعر أسود متبلد، وهم جميعاً زنوج خلص أو زنوج يتكلمون البانتو، أو هم– كما يطلق عليهم أحياناً– بانتو. ويتشابه الزنوج في كل مكان في مميزاتهم الجسمية وفي تعدد لغاتهم تعدداً مدهشاً. بينما نرى العكس هو الصحيح فيما يختص بالبانتو الذي يتكلمون جميعاً لهجات مختلفة تنتمي إلى لغة واحدة والواقع أن اسم بانتو يطلق على جميع الشعوب ذات البشرة القاتمة الذين يستعملون لفظ "نتو" مثل أم– نتو (رجل) و"أبا– نتو" (رجال). والزنوج من أحسن المشتغلين بالزراعة من الشعوب البدائية، فهم يكافحون سرعة نمو النباتات البرية ويقطعون الأشجار ويحرقون الغابات ليعدوا الفراغ اللازم لزراعاتهم؛ وفي كثير من البقاع

---

(١٣) العملية المعروفة عند الفلاحين المصريين باسم "خف النبات".

يزرعون أكثر مما يحتاجون ويخزنون ما فاض عن حاجتهم في مخازن فوق سطح الأرض أو تحتها. والمعتقد أن ظهور البانتو يرجع إلى نحو حوالي ألفي سنة، وأنهم نشأوا في إقليم البحيرات الاستوائية الإفريقية نتيجة التزاوج بين الزنوج وبين الحاميين ذوي البشرة الأخف سواداً، وهم لذلك يجمعون بين رعي الماشية الذي يشتغل به الحاميون وبين الزراعة التي يشتغل بها الزنوج، ولكنهم يفضلون الزراعة على الرعي حيثما كانت الأرض صالحة لذلك.



(شكل ٥٤) خريطة تبين الجهات التي تسكنها بعض قبائل إفريقية الاستوائية

وسكان إقليم غانة زنوج حقيقيون، بينما سكان حوض الكنغو ينتمون في الأصل إلى البانتو. والخط غير المنتظم الذي يفصل البانتو عن الزنوج الحقيقيين يمتد من مصب نهر ريي Rio ddel Rey في الغرب عبر القارة إلى مصب نهر تانا[١٤]. والحد الشمالي للإقليم الذي

(١٤) نهر ينبع من جبل كينيا ويجري إلى الجنوب الشرقي ويصب في خليج يونجاما في المحيط الهندي.

تقطنه الشعوب ذات البشرة السوداء يمتد من مصب نهر سنغال إلى تمبكتو إلى الخرطوم، ثم يسير جنوباً وغرباً إلى الحبشة حيث يسير مع حدودها الغربية والجنوبية إلى نهر جوبا، وبعد ذلك يسير مع مجرى النهر حتى مصبه في البحر.

والإقليم الذي تغطيه الغابات يقطنه عدد من الجماعات المستقلة، ولكن يوجد عدا ذلك قليل من الولايات الوطنية الكبيرة بكل منها ربع مليون من السكان أو يزيد، ولكا منها نظامها الحكومي المستقر. ومن هذه الولايات أشانتي وداهومي ويوروبا وتقع جميعها في غرب إفريقية. ولكن كانت هناك أيضاً دول من هذا القبيل في حوض الكنغو حيث كانت مملكتا كنجو وبالوندا في القرون الوسطى ومملكة بوشونجو فيما تلا ذلك من العصور. والذي كان يحدث غالباً أن هذه الممالك كان يؤسسها شخص أجنبي على جانب عظم من القوة كان تفوقه الحربي يساعده على بسط نفوذه السياسي.

والبوشنجو الذين كانوا يسيطرون على منطقة تقع في حوض الكاساي يشتهرون فيما اشتهروا به بالفنون الرفيعة. ولا تقتصر هذه على الصور الخشبية المتناسقة تناسقاً عجيباً والمغطاة برسوم غاية في الجمال، بل لقد مارسوا أيضاً صناعة التماثيل، وما صنعوه لملوكهم الأقدمين من تماثيل خشبية يعد من أبدع ما أنتجه الوطنيون في إفريقية. وقد كانت أرقى قبائل غرب إفريقية في الفنون هي قبائل بنين Benin التي أظهرت مهارة عظيمة في صناعة الصلصال، كما أن أدواتهم المنحوتة من

العاج وأقنعتهم الخشبية والعاجية وأدواتهم المصنوعة من البرونز كلها جديرة بالذكر. وأحسن مثل لهذه الأخيرة رأس زنجية شابة محفوظ الآن بالمتحف البريطاني. وأرقى هذه التحف الفنية تنسب إلى القرن السادس عشر، ومع أنه لا جدال في أنها من صنع الزنوج إلا أنه لا مفر من اعتبارها دليلاً على تأثير الفن الأوروبي، ونعني الفن البرتغالي بالذات.

ولنتكلم الآن عن حياة جماعة من الجماعات الصغرى الأبعد بدائية في حوض الكنغو، ولتكن جماعة البولوكي التي تعتبر في رأي بعض الثقات بطناً من بطون البانجلا، والتي تنتشر مساكنها في مسافة مائة وخمسين ميلاً على طول نهر الكنغو، بالقرب من الثنية الكبرى الواقعة في منتصف مجراه على بعد درجات قليلة إلى شمال خط الاستواء. ومجرى النهر في هذه المنطقة مملوء بالجزر وتحتل مجاريه العديدة منطقة عرضها سبعة أميال أو ثمانية. وفي كل عام يفيض النهر مرتين، في مايو ونوفمبر، فيغطي الأراضي الواطئة، فإذا انحسر ماي الفيضان بقيت هذه الأرض مملوءة بالبرك والمستنقعات التي تحف بها غابات من نخيل يسمى رافيا raffia palms يصنع الأهالي منه خمراً.

والبولوكي– كمعظم قبائل حوض الكنغو– شعب من شعوب البانتو، وهم يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في صفاتهم الجسمية، ورجالهم على العموم أطول من المتوسط قليلاً، وأعضائهم متينة البناء وأجسامهم متناسقة تناسقاً مدهشاً، ورؤوسهم وشفاههم غليظة ولون بشرتهم داكن كالشوكولاته وشعرهم أسود ومفلفل وقصير، على أن منهم– كما هي

الحال في كل مكان– أفراداً ملامحهم أقل زنجية، فلونهم أخف سواداً وشفاههم أقل غلظة وأنوفهم أقل فلطحة.

ولا يتدثر هؤلاء الناس إلا بالقليل من الملابس، ويسير الرجال والنساء حفاة الأقدام عراة الرؤوس، وتلف النساء حول الوسط مآزر من أهداب مصنوعة من جريدة النخل المكحوت، وقد يصل عدد ما يلبس من هذه أحياناً إلى خمس عشرة، وحينئذ تصبح صلبة ذات قوام متماسك كفستان الرقص. ويغطى الرجال الكشحين بإزار من لحاء الشجر، فتؤخذ قطعة من لحاء شجرة التين البرية وبعد أن تنقع في الماء توضع في راحة اليد وتضرب بمدقة من العاج. على أن أغلب الوطنيين الآن يغطون مزيداً من أجسامهم بمنسوجات قطنية من صنع أوروبا.

ويتزين الوطنيون بعقود من الخرز، ولكن أعجب ما لديهم من أدوات الزينة حلقات متفاوتة الاتساع من النحاس الأصفر تلبس النساء عدداً منها حول الذراعين وواحدة أو أكثر حول كل من إبهامي القدمين، بينما تلبس حول الساقين حلقات حلزونية الشكل. وتلبس حول العنق أحياناً طوقاً ثقيلاً من النحاس أيضا قد يصل وزنه إلى ثمانية وعشرين رطلاً.

ولا يعرف هؤلاء الناس الوشم بمعناه الصحيح. ولكنهم يعرفون التشريط، وهو غالباً من العلامات الدالة على القبيلة. وطريقة التشريط هي أن يحدثوا جرحاً ثم يحشوه لكي يبقى اللحم على جانبي الندبة بارزاً. وتقص النساء أحياناً شعر أزواجهن ليتمشى مع "المودة" السائدة.

ويقيم البولوكي قراهم على ضفاف الأنهار أو بالقرب منها، وهي تختلف في مساحتها من القرى الصغيرة التي تضم خمسين أو ستين نفساً إلى المدن التي تضم بضعة آلاف. وكل قرية من هذه القرى تتكون من صفوف متوازية من الأكواخ تتجه واجهتها في العادة جهة النهر، ويفصل كل صف عما يليه طريق متسع أو زراعة الموز وكثيراً ما يكون صف كامل من الأكواخ ملكاً لفرد واحد يخصص الأوسط منها لسكناه وسائرها لزوجاته الكثيرات، ولا يقتصر منهم على زوجة واحدة إلا أفقر الرجال. ويقام الكوخ على أرض مستطيلة الشكل، وتصنع حيطانه من طبقتين من القصب الملفوف بينهما فراغ عرضه بوصة أو نحوها يملأ بالعشب الجاف. وتربط الحيطان بالجديل إلى أعمدة تدق في الأرض، ويصنع السقف المنحدر من أغصان النخيل الجافة.



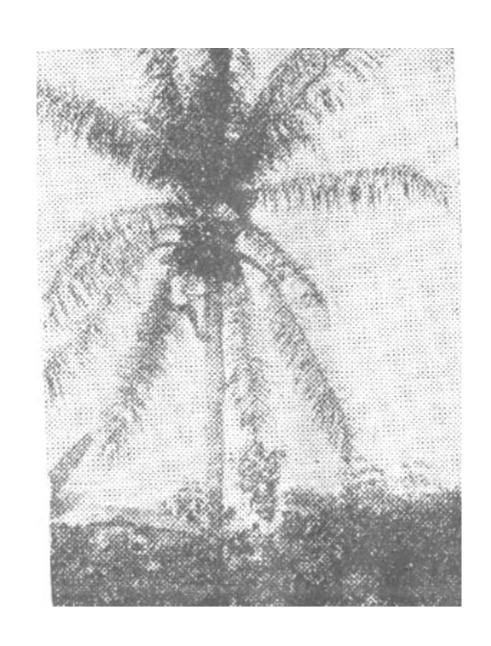
(شكل ٥٥) امرأة ثرية من الأهالي الأصليين



(شكل ٥٦) شارع قروي في مونسمي

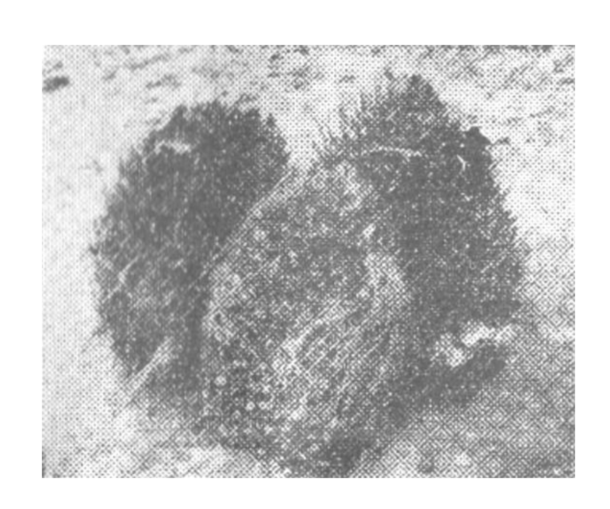
وتحيط بكل قرية أرضها التي تمتلكها بحدودها التي يعترف بها جيرانها والتي تتبع عادة بعض المعالم الطبيعية. وعند ما تتباعد القرى أو المدن تعتبر الأرض التي تفصل حدودهما أرضاً محايدة، يحل الصيد فيها وقطع الخشب منها لكل من الفريقين.

ويستطيع الفرد أن يزرع أي بقعة في حدود الأرض التي تملكها قبيلته، طالما أن هذه البقعة لا تقوم فيها زراعة شخص آخر. ولما كانت الأرض تتعرض للإجهاد السريع كان من الضروري إعداد بقعة جديدة كل ثلاث سنوات أو أربع. ويقوم الرجال بإعداد الأرض ويساعدون أحياناً في عمليات الزراعة الشاقة التي لا بد منها عندما يوشك فصل الأمطار العظمى أن يحل، وما عدا ذلك من أعمال الزراعة والحصاد يوكل إلى النساء وتستمر أعمال الزراعة والحصاد على مدار السنة، وأشهر الحاصلات التي يزرعونها الصرغم والمانيوق والقرع والدخن والذرة. وتزرع من هذه الحاصلات أنواع عديدة وفي مواسم مختلفة، كي يكون هناك عدة محاصيل في السنة الواحد. وما يخزن من حبوب الصرغم المعدة للتقاوي يكوم أكواماً كل منها ارتفاعه نحو قدم وطوله نحو قدمين؛ أما أعواد الصرغم فتسند بالعصى أثناء نموها. ويزرع بين هذه الأكوام القرع وغيره من المحاصيل. والمانيوق الذي حل محل الصرغم في أكثر الأنحاء من أجل دقيق الكاسافا الذي يؤخذ من درناته يمكن حفظه عدة أسابيع بعد طبخه، وتخزن منها مقادير كبيرة.



(شكل ٥٧) نخلة الزيت

وتجمع من الغابات محاصيل كثيرة، منها حبوب الكولا ونخيل الزيت وغيرهما من الثمار. وحبوب الكولا التي تستعمل غذاء كما تستعمل منها هي ثمرة شجرة تسمى ستيركوليا ألومنياتا (Sterculia Aluminiata)، وهي تخرج عدداً من الثمرات الضخمة كل منها تحتوي على عدد من ثمار الكولا يتراوح بين أربعة وستة لونها يضرب إلى الإحمرار، وهي قريبة الشبه جداً بثمرة كستناء ضخمة. ومن الممكن الاحتفاظ بها صالحة للطعام مدة عامين أو ثلاثة طالما بقيت رطبة، لكنها إذا جفت تشققت وتغضنت وأصبحت صلبة كالخشب ولم تعد لها فائدة.



(شكل ٥٨) ثمرة نخلة الزيت

وتنمو أشجار نخيل الزيت متفرقة في أنحاء الغابة، ويزداد عددها في البقع التي يغزر فيها المطر، وذلك قرب سواحل البحار. ففي نيجيريا مثلاً يقال إن نخيل الزيت لا ينمو على مسافة من البحر تزيد على ١٥٠ ميلاً وعندما تقطع الأشجار في أي بقعة لإعدادها للزراعة لا يمس ما قد يكون بها منن هذه الأشجار. والنخيل من ممتلكات الأفراد الخاصة، وليس من الضروري أن يكون هؤلاء نفس الأشخاص الذي يزرعون البقعة التي تقوم فيها أشجار النخيل. وينمو ثمر النخيل على هيئة عناقيد أسفل الجريد، ويضطر الوطني أحياناً أن يتسلقها إلى ارتفاع مائة وخمسين قدماً حتى يصل إليها. والثمرة في شكلها "شيء بين الأناناس وبين عنقود ضخم من الصنوبر ملئت ثناياه"، ويحتوي قشرها الخارجي على كثير مما يسمى "البندق" ولو أن هذه التسمية غير دقيقة لأن الثمرة تشبه البرقوق الأصفر شبهاً كبيراً، وجلدها الناعم اللزج يضم كتلة من الألياف والدهن. وتقوم النساء بتحضير الزيت، فهن يغلين الثمر بعد نزع قشرته الخشنة ثم

يعدن غليه مرة أخرى ويكشطن المادة الدهنية التي تطفو على السطح. ويستعمل الوطنيون هذا الدهن في تحضير كثير من أطعمتهم كما يستعملونه أحياناً في الإضاءة.

ويحضر النبيذ من تخمير عصارة نخيل الرافيا، وذلك بأن يقطعوا في الشجرة حزوزاً يسيل منها العصير فيتلقونه في قرعة أو أي إناء آخر مثبت إلى جذع النخلة أسفل الحزوز. على أنهم قد يقطعون الشجرة ثم يأخذون كتلة الجمار التي تعلوها فينزعون ما بها من جريد صغير ثم يمتصون منها العصير، وهو ذو طعم يميل إلى الحلاوة، ولكنه بعد أيام من تخمره يكتسب طعماً مراً لاذعاً كحولياً جداً. وهناك نوع آخر من النبيذ يحضرونه من قصب السكر، فيأخذون أعواد القصب ويقشرونها ثم يدقونها حتى تتحول إلى كتلة من العجين، وكثيراً ما يضيفون إليها مادة مأخوذة من قشور نوع خاص من الأشجار لتزيد من سرعة تخمره؛ وعندئذ يعصرون العجينة بطرقهم البدائية ويأخذون السائل الذي ينضح منها ويخزنونه في أوان من الفخار مدة عامين أو نحوهما ثم يصبح بعد ذلك صالحاً للاستعمال.

ولا يربي البولوكي من الحيوانات المستأنسة سوى سلالات منحطة من الكلاب والماعز والأغنام، وهم تمدهم بقليل من اللحوم، لأن أكبر اللحم الذي يستهلكونه يحصل عليه الصيادون الذين يقنصون حيوانات الصيد المختلفة من خنازير الأدغال إلى الجاموس البري والأفيال. على أن حيوانات الصيد ليست وفيرة، لأن فيضان النهر قد أدى إلى نقص في

عددها، كما أن حركة الملاحة في النهر قد ملأت بعضها رعباً فنأى بنفسه عن شواطئه. ويقوم الرجال– تحت إرشاد القادة المشهودة لهم بالتوفيق في الصيد– بالالتفاف حول الحيوان في المنطقة التي تملكها القبيلة، ولكنهم يحرصون قبل بدء هذه العملية على أن يقيموا الاحتفالات اللازمة لمقاومة فعل أرواح الغابة، وكذلك يحرصون على أن يحملوا معهم أينما كانوا تمائمهم الخاصة. ويتسلح الرجال بحراب خفيفة ذات أيد رفيعة ورؤوس صغيرة بعضها مسنن على كلا الحدين. وتصاد الحيوانات الصغيرة– مثل صغار الغزلان وفئران النخيل وخنزير الأدغال– بواسطة إيقاعها في شباك مصنوعة من حبال طويلة توضع في شكل نصف دائرة حول المكان الذي به الحيوان، وبعد ذلك يعمل الصيادون على سوقه نحوها. أما حيوان الصيد الكبير كفرس النهر والفيل والتيتل، فتنصب في طريقها فخاخ ذات زنبرك. وطريقة نصب هذه الفخاخ أن يقام على جانبي الطريق الذي يمر به الحيوان عمودان بينهما محو أربعة أقدام وتثبت فوقهما عارضة خشبية مثبتة تعلو عن الطريق اثني عشر قدماً، وفي وسط هذه العارضة وفوق الطريق تماماً تربط كتلة من الخشب مثبت في طرفها الأسفل حربة قوية أو نحوها بحيث إذا مر بالطريق حيوان ومس الحبل الذي يعترضه هوت الكتلة الخشبية وارتشقت الحربة في جسم الحيوان. وقد يلجأون إلى حفر يحفرونها في الطريق التي يمر منها الحيوان ويثبتون في قاعها خوازيق ثم يغطونها بالأغصان وأوراق الشجر والعشب.

والسمك في نهر الكنغو وفير ويصاد بوسائل متنوعة، ففي وقت

الفيضان تقام بعرض الروافد التي تزخر بالماء فخاخ وحواجز من الجديل، فإذا انخفض مستوى الماء في النهيرات أصبح من السهل الحصول على مقادير كبيرة من الأسماك، وهذه يحتفظون ببعضها في المستنقعات ويغذونها بالقواقع ودقيق الكاسافا ادخاراً لوقت الحاجة. وتستعمل للصيد في نهر الكنغو نفسه أنواع عديدة من الشباك ومن الفخاخ المصنوعة على هيئة السلال. وقد يخرج الصيادون جماعات صغيرة في ليلة مظلمة يحملون في أيديهم مشاعل تغري السمك بالظهور على سطح الماء وحينئذ يقذفونه بالحراب. ويختلف حجم الحراب التي يصاد بها السمك، ولكن أيديها دائماً طويلة إذ يتراوح طولها بين عشرة أقدام واثنى عشر، وتأخذ في الدقة نحو نهياتها، وهي غالباً ذات سن واحدة، ولكن معظمها مسننة (مشرشرة). وكذلك يستعملون أنواعاً عديدة من سم السمك يقتصر استعمالها على إلقائها في الأنهار والغدران، ولبعضها القوة على تخدير الأسماك وحينئذ يصبح من السهل صيدها.

وتطهى اللحوم والأسماك بطرق شتى فهي تطبخ في قدور صغيرة من الفخار أو تسوى على النار أو تلف في أوراق الشجر وتغطى برماد النار الساخن. فإذا تعذر الحصول على اللحم والسمك صنعوا صلصة من الأوراق المعجونة من الفلفل وزيت النخيل وأكلوها مع الكاسافا، وهذا هو الصنف الرئيسي في أكلة المساء التي تكاد تكون الأكلة اليومية الوحيدة.

ولا يجلس الرجال والنساء إلى الطعام سوياً، ويقدم العظام أولاً إلى

من هم أكبر سناً، فإذا كان هناك ضيوف قد الطعام إليهم أولاً كل حسب سنه. ويشرب الماء بعد الطعام، لكن الخمر لا تقدم إلا في المناسبات الخاصة، ويغسل القوم أفواههم قبل كل وجبة وبعدها.

ومن عاداتهم الشائعة إقامة مجلس للشراب في موسم حصاد قصب السكر، وقد تدوم حفلات الشراب هذه أحياناً ثمانية أيام أو تسعة، ويجتمع فيها الرجال الذين يجيئون هم وزوجاتهم على صوت الطبول (أو تليفون الطبول) كل زوجة تحمل الكرسي الخاص بزوجها، كما تحمل إناءه الخاص الذي يشرب فيه. ولا تشرب امرأة إلا إذا ناولها زوجها القدح الذي به الشراب.

وللبولوكي ولع شديد بالغناء والرقص، وكثيراً ما ينفجرون بالغناء حين يرقصون أو حين يجدفون فلائقهم قاصدين إلى زيارة ودية. وكثير من أغانيهم لا يخرج عن سرد حوادث محلية تافهة، بينما أغاني الرثاء عبارة عن تعداد لمناقب الميت. وهم عادة ينشدون أغانيهم مجتمعين، ولكن بعض أغانيهم ينشدها واحد تردد وراءه جماعة. وقد يغني كل من الرجال والنساء على حدة، لكن الغالب ان يغني الرجال والنساء معاً بمصاحبة آلة أو مع ضبط الإيقاع المنتظم يحدث فيهم أثراً لا يحدثه صوت آخر، فهو يشجعهم على بذل أقصى جهد في التجديف ساعات متواصلة تحت أشعة الشمس المحرقة، وعلى الرقص أمسيات بأكملها وهم يتصببون عرقاً، أو ليالي بطولها، وعلى خوض المعارك مستهينين بالحياة، وعلى الاستمرار في الشراب حتى لا يستطيعون المزيد.

وللرجل أن يتخذ من الزوجات العدد الذي تسمح به موارده، على أن يقيم لكل منهن مسكناً خاصاً لأنهن جميعاً متساويات في الحقوق. وإذا تزوج الرجل من سباياه– على أن الرجال الأحرار لا يفعلون ذلك أبداً– بقيت زوجاته إماء له وبقى له حق قتلهن أو بيعهن. ويحصل الرجل على زوجته بطريق الشراء، ولكن كثيراً ما تخطب البنات أو حتى الأطفال، وفي هذه الحالة يضع الشاري في ذراع البنت بمجرد دفع مهرها أسورة من النحاس الأصفر أمام شهود قائلاً: "هذه زوجتي"، لكن الزواج الفعلي لا يتم إلا عند بلوغ الفتاة السن المناسبة، فإذا كبرت الفتاة وقررت أنها لا تميل إلى الرجل فإنها عادة لا تعدم وسيلة ترفض بها الزواج على شرط أن يرد المهر الذي سبق ودفعه.

ولا يقام وقت الزفاف غير حفل صغير، ولا يتم الزفاف إلا بعد أن يعد العريس لعروسه منزلاً، فإذا حل اليوم المرتقب يصحب الوالدان ابتهما، ويحملان معهما مدداً من الطعام والخمر إلى منزل الزوجية، ويسلمان العروس إلى زوج المستقبل بوضع يدها في يده بحضور شهود يشتركون فيما بعد في الوليمة والشراب والرقص التي بها تكمل بهجة الحفل. والعائلات في العادة قليلة العدد، ومن المتبع أن يرث الأطفال طوطم أبيهم، إذا تقضى التقاليد أن يرث الأبناء حقوق والدهم. ويلقى الأبناء من آبائهم معاملة حسنة إلى حد أنها قد تفسدهم. ومن عاداتهم أن يحدثوا في جبهة الطفل وهو في سني طفولته الأولى ندوباً هي في العادة علامة ترمز إلى القبيلة التي ينتمي إليها. وعندما يكبر الطفل يشجعونه على أن يحدث بنفسه هذه الندوب وعلى أن يتحمل آلام ذلك

بشجاعة. وفي سن الثامنة عشرة والعشرين تكون كل الندوب التي استحدثت بجبهته قد نتج عنها تجمعات في الجلد تجعله شبيهاً بعرف الديك، وعلى عارضيه تجمعات تشبه جريد النخيل. وهناك نوع آخر من الألم يدرب النشء على تحمله هو برد القواطع الأمامية حتى تصير مدببة على شكل حرف V.

وأطفال الأم الواحدة، وسواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، ينشأون معاً في منزلها إلى أن يكبر الذكور ويصبح في مقدورهم بناء مسكن خاص بهم. ولا يتعلم الأطفال شيئاً عن طريق التلقين بل عن طريق الملاحظة والتقليد، وهم بهذا يعرفون الشيء الكثير عن نواحي الحياة، لأن كل شيء في القرية يتم علانية، وكذلك يكشفون بأنفسهم كثيراً من أحوال النبات والحيوان وكذلك النجوم. فإذا كبر الأولاد وأصبح في مقدورهم الخروج مع آبائهم، صحبوهم في خروجهم إلى الصيد والقنص والمتاجرة، ويتعلمون أثناء ذلك السباحة والتجديف وصنع الفخاخ ونصبها والشباك وإلقاءها وقذف الرماح. وإذا كان للطفل قريب يشتغل حداداً أو طبيباً ساحراً ففي استطاعته حينئذ أن يختار إحدى المهنتين وأن يعرف الكثير عنها عن طريق مصاحبته لقريبه. وتصاحب البنات أمهاتهن إلى المزارع حيث يتعلمن الحرث والعزق والزرع وجمع المحصول، وهن في المنزل يتعلمن الطهي وصنع الفخار والسلال، كما يجب على البنت أن تتعلم تسريح الشعر وتزيين الوجه والجسم بمختلف النقوش والأصباغ لأن زوجها يتوقع منها أن تكون على علم بكل هذا. وكذلك يجب أن تعرف كيف تصنع لنفسها إزاراً ذا أهداب من ألياف

جريد المخيل. ويتعلم الأولاد والبنات على السواء من آبائهم كثيراً مما يتعلق بالسحر والتمائم.

ويلعب الأطفال كثيراً من الألعاب، ولهم ولع خاص بألعاب المحاكاة، فهم مثلاً يقلدون في ألعابهم فن إدارة البيت والتسوق وإقامة الولائم والزراعة. والآباء الذين يدللون أبناءهم يصنعون لهم حراباً صغيرة ومجاديف وسلالاً وفؤوساً يلهون بها. ويصنع الأولاد لأنفسهم أحياناً دروعاً من الجدائل طولها نحو ثلاثة أقدام وعرضها نحو ثماني بوصات، وبعد أن يتسلحوا بسيقان أعشاب الماء يتخذون منها حراباً وبسيقان الموز يتخذون منها هراوات وبسكاكين من الخشب يرشقونها في أحزمتهم، ينتظمون صفوفاً ويخوضون ما يعتبر محاكاة لمعركة حربية. وكذلك يغرم الأولاد بالمصارعة. ومن ألعابهم المفصلة أيضاً لعبة "مهد القط"[١٥] التي يقضي الأولاد والبنات على السواء ساعات طويلة يلعبونها ويرسمون بالخيوط أشكالاً منوعة على أصابع اليدين والقدمين. ولا يشترك الكبار في ألعاب الصغار، فيما عدا واحدة من ألعاب المراهنة، ولكن الكبار من جهة أخرى يحتكرون الرقص، وهو لهو يشترك فيه الذكور والإناث.

ويمارس النساء صنع الفخار والسلال والحصير. ولهم مهارة في ثني الأعواد إلى الأشكال المنوعة اللازمة لصنع السلال، وأشهر هذه

(١٥) لعبة "مهد القط" لعبة شائقة في كل مكان، وهي التي يمسك الشخص فيها بخيط طويل بين أصابع اليدين والقدمين ويرسم بالخيط أشكالاً كلها تحاكي نسيج العنكبوت.

الأشكال شكلان أحدهما كبير على هيئة إسفين يستعمل لحمل حاصلات المزرعة إلى المنزل، والآخر على هيئة مخروط ذي غطاء يمكن إحكامه، وهو معد لوضع جذور المانيوق فيه أثناء نقعها. والنوع الأول من السلال يحملونه على الظهر ويمسكه رباط يمر حول الوسط أو حول الجبين، أو يربط بشريطين صغيرين يمر خلالهما ذراعاً الشخص الذي يحمله. ومعظم الفخاخ التي تستعمل لصيد السمك من نوع السلال.

وتشمل صناعة الفخار عمل الصحون والقدور التي تختلف في حجمها ولكنها لا تختلف في شكلها، وكذلك أقداح الخمر التي يتراوح في حجمها ولكنها لا تختلف في شكلها، وكذلك أقداح الخمر التي يتراوح ارتفاعها من ست بوصات إلى ثلاثة أقدام، ومواقد النار التي تستعمل لحمل النار أثناء سفرهم في فلائقهم. ولا يستخدم البولوكي عجلة الفخار ولا يحرقونه في قمائن، بل يصنع القدر أو القدح على قاعدة يضعون الطين فوقها طية فوق طية، مع إلصاق طرف الطية بما جاورها ثم تسوية جوانبها بالأصابع، وهكذا يستمر العمل وتضغط الطبقات وتسوى جوانبها إلى أن يحصلوا على الارتفاع الذي يريدون، ثم تسوى بعد ذلك الجوانب الداخلية والخارجية حتى تصير ملساء، وفي أكثر الأحيان يزينونها بالأشرطة وعظام سمك الرنجة، وتحرق هذه القدور بوضعها فوق الخشب وتغطيتها بالأغصان ثم إشعال النار، وبذلك تشتد صلابتها. وتطلى بعض القدور وهي لا تزال ساخنة جداً بصمغ السندروس فتصبح براقة، وعندئذ تصبح من أنسب الأواني للشرب ولكنها لا تصلح

للطهي لأن السندروس قابل للالتهاب.

ويقوم الرجال بعمل الصناعات الجلدية والشباك المنسوجة من خيوط مصنوعة من لحاء الشجر، والشراك والحراب. وتجهز الجلود عن طريق شدها ثم تثبيتها إلى الأرض بأوتاد من الخشب، أو عن طريق ربطها إلى دعامات على شكل إطارات حتى يسهل إزالة ما قد يبقى عالقاً بها من قطع اللحم، وبعد ذلك يدلك الجلد برماد النار ويترك في الشمس حتى يجف فإذا أرادوا الحصول على جاد طري دلكوه بالزيت بعد ان يتم جفافه في الشمس. وتستخدم الجلود في أغراض شتى، فجلد النمر مثلاً إذ كان كاملاً يستعملونه بساطاً يجلس عليه الزعيم، وجلود الثعابين الكبيرة يتخذونها أحزمة وأغماداً وجلوداً للطبول، بينما يتخذون من جلد فرس النهر دروعاً.

وللحداد– الذي يعتقدون أنه يستخدم في صناعته نوعاً خاصاً من السحر– مركز اجتماعي محترم بين قومه، وهم يعتقدون أن ناره ذات حواص مقدسة. وفرنه حفرة مكشوفة عمقها نحو ثماني عشرة بوصات، وقطرها عند فتحتها نحو خمس عشرة بوصة، وعند قاعها من ثماني بوصات إلى عشر. وتوضع قدر الصهر التي بها الحديد الخام في الحفرة، ويحمي عليها بفحم الخشب، ثم يسلطون عليها تياراً هوائياً من منفاخ بدائي الصنع ليزيدوا النار اشتعالاً. ويتكون النافخان من تجويفين أسطوانيين في كتلة من الخشب منهما فتحتان تتصلان بأنبوبة خشبية مشتركة تنتهي إلى ممر من الطين يؤدي إلى وسط الفرن. ولكل من

الفتحتين غطاء من جلد ناعم مثبت في وسطه عصا. ويحرك الحداد العصوين بالتناوب إلى أعلى وإلى أسفل، وكلما زادت همته زادت النار اشتعالاً. وسندان الحداد قطعة من الحجر الصلد، ومطرقته قضيب من الحديد طوله من ثماني بوصات إلى عشر، بينما كماشته التي يقبض بها على قطع الحديد القصيرة عبارة عن قطعة من الخشب. ويستورد الحديد الخام من مسافات بعيدة، وبعد أن يصهر في أفرانهم البدائية تصنع منه الأدوات المختلفة كالفؤوس والبلط والسكاكين ورؤوس الحراب والسنانير والأزاميل والمنافير. على أن الواردات الأوربية من الأدوات الحديدية قد قضت على الصناعات المحلية.

وكذلك يشتغل الحداد بصناعة المحاس الأصفر، فيعمل منه أدوات منوعة للزينة. وهو يحصل على حاجته من ذلك المعدن بقطع أجزاء صغيرة من القضبان النحاسية التي هي وسيلة التعامل، وبهذه الطريقة لا يدفع ثمناً لحاجته من المادة الخام. وتصنع من النحاس الأصفر أيضاً عقود كبيرة تلبس حول العنق وهي تصنع بطريقة الصب في القوالب.

"فهم يأتون بمادة جذور الموز التي تشبه قطعة البطاطس، يقطعونها حسب الشكل الذي يناسب الضخامة والاتساع المطلوبين، ثم يؤخذ القالب ويحاط بالصلصال المعجون جيداً، مع ترك فتحة على هيئة مدخنة ليتسرب منها الدخان وليخرجوا عن طريقها بقايا الجذور المحترقة ويصبوا منها النحاس المنصهر وبعد أن يتم صنع هذا القالب يحرق في النار فتحترق حينئذ جذور الموز التي يتكون منها القالب، وحينئذ تنظف

بقاياها المحترقة ويصب مكانها المعدن السائل. وبعد أن يبرد يكسر القالب ويؤخذ منه الطوق المعدني فيلمع بالكحت والدلك ثم تحفر فيه رسوم تمثل أشكالاً هندسية وعظام أسماك".

وتصنع الأساور وأدوات الزينة الأخرى من أسلاك النحاس الأصفر، وتصنع الحجال الحلزونية الشكل بالطريقة الآتية:

"يؤخذ عود القصب ويشق نصفين، ثم يستخرج لباب أحدهما إلى العمق المطلوب ويصب مكانه المعدن السائل، وبهذا يحصلون على قضيب من النحاس الأصفر يساوي السبابه في سمكه، فيأخذونه ويطرقونه بعناية ثم يكحتونه ويلمعونه، وبعد ذلك يلفونه حول الرجل من العقب إلى قرب الركبة، بحيث تكون كل حلقة من حلقات الحلزون أوسع قليلاً من التي تحتها مباشرة".

وتصنع أشرطة النحاس الأصفر بطرق قضبانه حتى تصل إلى الاتساع المطلوب، وتستعمل هذه في تزين أيدي الحراب والسكاكين ومقابض المجاديف وغيرها.

وللنجارين مهارة في صنع المجاديف وأيدي البلط والفؤوس والمقاعد والكراسي؛ وهذه الأخيرة– وهي تنحت من كتل خشبية صماء– ذات أربع أرجل وظهر منحن، ولكن تكاليفها باهظة بحيث لا يستطيع اقتناءها غير الزعماء والرؤساء. وتصنع الوسائد من الخشب، وهم لا يوسدون عليها رؤوسهم بل أعناقهم، حتى يحتفظ الشعر

بتسريحته ونظامه اللذين يبذلون في سبيلها كثيراً من الوقت والمال.

ويصنع البولوكو فلائق متنوعة الأحجام، فبعضها صغير لدرجة أنه يصبح من السهل على أي طفل أن يسيره، وبعضها كبير لدرجة أن يتسع لستين أو سبعين من الرجال يجدفونه، ويتسع إلى جانب ذلك النحو نصف طن من البضاعة. وهي جميعاً فلائق من النوع المحفور من جذوع الأشجار، وتصنع عادة من نوع متين من الخشب، كالشربين والموجنة والكام (camwood). وعندما يتم اختيار الشجرة التي تناسب غرضهم يقطعونها ويقومون وهي في مكانها بتشكيلها تشكيلاً مبدئياً، ثم يرسلونها نزلاً في النهر إلى حيث يوجد إخصائي الفلائق، وهناك يجرونها على الأرض ويقيمون فوقها مظلة بدائية الصنع تحميها في أثناء صنعها وتظلل الصانع الذي يقوم بعملها، ولا يفوتهم أن يعلقوا في المظلة تميمة، إذ هي في اعتقادهم تحول دون تشقق الفليقة وتبطل مفعول ما قد يراد بها من شرور السحر. ولا يشرب صانع الفليقة ماء أثناء قيامه بالعمل فيها، لأن ذلك في اعتقادهم يؤدي إلى تشققها.

والبولوكي تاجر ماهر. ولكن لا توجد هناك أسواق ثابتة كما هي الحال في غرب إفريقية، وإذا فاض لدى أحدهم فائض من طعام أو بضاعة حمله في القارب إلى قرية أخرى وعرضه للبيع. ومعظم البيع يحدث بالمقايضة، وعندما يحدد البائع الثمن الذي يطلبه مقابل سلعته لابد أن يدخل في حسابه الجهد الذي قضاه في عرضها للبيع، وأجور الرجال الذين ساعدوه في التجديف أثناء السفر بها إلى أماكن بيعها، فإن

لم يفعل ذلك فقد يبوء من رحلته بالخسار.

وتعتبر الأرض ملكاً لأهل البلد جميعاً ولكن الفرد له الحق في أن يملك العبيد وأن يملك مؤقتاً القراح الذي أعده للزراعة، كما أن له الحق في أن يملك بعض الأشجار ويرث الابن الأكبر مكانة والده وقدراً من ممتلكاته يزيد على ما يرثه سائر الأبناء، وتؤول أملاك الزوجة إلى زوجها، وإلا فإنها تؤول إلى ذريتها م الذكور والإناث.

وليس للبولوكي زعيم أعلى معترف به؛ ولكل رب عائلة شيء من النفوذ بين عشيرته، وهو مسئول عن الأخطار التي يرتكبها أفرادها. ويتكون من رؤساء العائلات مجلس قروي، ولرئيس أهم العائلات النفوذ الأكبر فيه. على أن بعض القرى تتعاون وتنتخب من بينها قاضياً للإقليم يفصل فيما قدد يقع بين القبائل من خلاف.

ومنذ سنين قليلة كان ما يقرب من ربع هؤلاء الناس أرقاء، ومن هؤلاء من ولد رقيقاً، ومنهم من قبض عليه وفاء لدين، ومنهم من باع نفسه لسداد ما عليه، ومنهم قليلون من أسرى الحروب. ولمالك العبيد مطلق الحرية في التصرف فيهم كيف شاء ومن ذلك حق قتلهم، ولكنهم في العادة يلقون معاملة حسنة، وإلا كان من السهل عليهم أن يتخلصوا من أسرهم بالهرب. وللعبيد الحق في اقتناء ممتلكات، على أن يكون ذلك بإذن أسيادهم الذين يعتبرون مسئولين عن أعمال مواليهم. أما الإماء فكانت وظيفتهن العمل في الزراعة ورعاية الأطفال، وكن أكثر من العبيد عدداً وأكثر منهم قيمة.

وكثيراً ما يعطي الوالد ولده رهينه في مقابل دين. والرهينة أعلى منزلة من العبد، فهو يؤدي عمله ولكنه لا يباع ولا يورث، بل يمكن افتداؤه في أي وقت وبذلك يسترد حريته مرة أخرى. والواقع أن عدد الأحرار أو المستقلين من الرجال والنساء قليل إذا استثنينا الرؤساء والزعماء، أما سائر الناس فإنهم يرتبطون بالزعماء برابطة القربى أو العبودية أو الرهن أو التبعية الاختيارية، إذ يحدث كثيراً أن عائلة ضعيفة ترتبط بالتبعية بعائلة قوية كي تتجنب المصير الوحيد للعائلات التي لا تجد من يحميها، وهو العبودية.

وقد كانت الحروب في الماضي تقع أحياناً بين بعض القرى وبعض، بل كانت أحياناً تقع بين عائلات القرية الواحدة، ولكن لم تكن هناك حروب منظمة أو غزوات من أجل الحصول على أسرى أو من أجل الفتح. وكانت الحراب والسكاكين– وفي الزمن الحديث البنادق– هي أسلحة تلط الحروب، وكانوا يتقون ضربات الحراب بالدروع وبأحزمة جميلة الصنع من نسيج القطن تلف مراراً كثيراً حول الوسط. وبعض الرجال كانوا يلبسون فوق ظهورهم أيضاً دروعاً من جلد فرس النهر لتحميها من الحراب. وكانت دروعهم الطويلة الضيقة من أعشاب مضغوطة تجدل جديلاً قوياً تزين بالجلود حول أطرافها، بينما يضعون على الظهر لوحاً تبلغ مساحته ربع الدرع يثبتون فيه الجديل. وفي الحروب الكبيرة كانت قرى القبيلة المنهزمة تنهب وتهدم مساكنها، ويؤخذ الأسرى حتى يدفعوا الفدية، فإذا لم يفتدوا فإنهم يبقون في الرق أو يباعون أو يقتلون. وكانت جثث القتلى فيما سلف من الزمان تنقل من

ميدان المعركة وتقام بها وليمة عظيمة.

ويعتقد البولوكي أن الموت يحل بالإنسان بإرادة الله أو بفعل ساحر أو بفعل الإنسان نفسه. فإذا غرق رجل بسبب غرق قاربه أثناء عاصفة فإن الموت هنا بإرادة الله، أما إذا مات شخص على إثر انقلاب قاربه بفعل فرس النهر أو التمساح فإن الموت هنا من عمل ساحر، لأنهم يعتقدون أن الحيوان لا يتعرض للقارب إلا إذا دفعته إلى ذلك روح شريرة، وعلى الكاهن أن يكشف عن سبب الوفاة، فإذا قرر أنها بسبب سحر ساحر فمن المحتم الاهتداء إلى المجرم.

ولا يتخلف ذوو القربى عن عيادة المرضى من أقاربهم، وهم يسهرون على راحتهم ويخلصون في خدمتهم، ويقوم النساء على الأخص بالعناية بالمرضى وهن يلزمن فراشهم ويقترحن أنواع الأدوية والتعاويذ ويقضين بجوارهم أياماً طويلة إلى حد أنهن قد يهملن مزارعهن. وإذا مات ميت له مكانته بعث أهله في طلب الرجال المتخصصين في تزيين الجثث فنقشوا الجثة وزينوها بالخرز والأصداف والملابس الجميلة، وبعد ذلك يثبتونها في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الطبيعي، وكثير من الناس يدفع عن طيب خاطر شيئاً ليتاح له حضور هذه العملية، أما صناديق الموتى– وهي غالباً عبارة عن قوارب قديمة– فإنها تبطن أحياناً وتغطى بالأقمشة الرخيصة، ولكنها في الغالب تزخرف بمختلف الأصباغ. فإذا كان الميت من غير ذوي اليسار فإن جثته تدلك بالزيت ورماد النار المتخلف عن إحراق خشب الكام ثم يلف في حصير النوم، أما جثث

الفقراء والمعدومين فيكتفون بلفها في حصير النوم.

ويحفر القبر عادة في داخل أي منزل من المنازل التي يملكها المتوفي أو بقربه. فإذا كان الميت شخصاً ذا مكانة فيجب أن يراعي أن لا يتعرض صندوق الدفن للتلف عند ما يهيلون عليه التراب المبلل بعد دفنه، فيحفرون لذلك في أحد جوانب القبر كهفا للصندوق، أو يحفرون في جوانبه حفراً يثبتون فيها عوارض أو عصياً يستقر فوقها التراب فلا يسقط الصندوق ويتلفه. ولا حاجة لاتخاذ هذه الإجراءات عند دفن الفقراء، لأنه لا يوجد لهؤلاء صناديق يخشى عليها من التلف. وتدفن جثة الميت عادة في خلال ثلاثة أيام من الوفاة، وعند تشييع جنازات الرجال تطلق البنادق ويتوقف عدد الطلقات على المركز الاجتماعي للمتوفي، وفائدتها إخطار أرواح الحياة الآخرة كي تتوجه إلى مدخل القبر وتستقبل الميت. وكانت العادة فيما مضى قتل اثنين من الرقيق توضع جثة أحدهما عند رأس الميت وجثة الآخر عند قدميه، وكذلك كانوا يأتون بزوجة أحد الأرقاء فيدفنونها بالحياة مع جثة المتوفي إذ كان من الأعيان.

ويعبر البولوكي عن حدادهم بطرق شتى، وفي أغلب الأحيان تزيد الضجة كثيراً على الحزن الحقيقي، وإذا أهمل الشخص مظهره إهمالاً تاماً اعتبر ذلك علامة من علامات الحداد، كما أن الرقص يعتبر أحد الإجراءات الجنائزية الهامة. وإذا مات رجل ذو مكانة صدرت الأوامر بتحضير خمر من قصب السكر ويستغرق تحضيرها بضعة أيام فإذا تم صنعها دقت الطبول ليجتمع على دقاتها المشيعون من الرجال والنساء

ويشتركوا جميعاً في الرقص مدة ثلاثة أيام بلياليها، أو إلى أن ينفد ما صنعوه من الخمر.

ويعتقد البولوكي أن هناك مكاناً في بقعة ما من الأرض تذهب إليه أرواح الموتى، ويعتقدون أن الحياة في ذلك المكان لا تختلف عن الحياة الأرضية، ومع فارق واحد هو أن من كان يتمتع في هذه الحياة الدنيا بمركز اجتماعي هام لن يفلت في الحياة الأخرى من العقاب الذي يستحقه جزاء ما اقترفت يداه من ذنوب على هذه الأرض، كما يعتقدون أن الأخيار سوف يخلدون في تلك الحياة المستقبلية، ولكن أرواح الذين كانوا يعملون السيئات سوف يطردون منها بعد أن يلبثوا فيها برهة وجيزة، ثم تأوى أرواحهم إلى الأخوار والأنهار والغابات وتعيث فيها فساداً فتسبب الفيضانات وتحول دون دخول الأسماك إلى الشباك ووقوعها في الفخاخ، كما تبعد الحيوان عن طريق الصيادين.

ويعتقد البولوكي أن الأرواح الشريرة على استعداد دائماً للإضرار بالناس، ولا يدخل أحدهم الغابة بعد غروب الشمس خوفاً من أذاها، ولا يقل عن ذلك خوفهم من الأرواح التي تتقمص أجساداً. ومن معتقداتهم أن الروح تترك الجسد أثناء نومه ولكنها تعود إليه دائماً بمجرد أن يستيقظ مهما كان ذلك وشيكاً، فليس من المستغرب حينئذ أنهم يعتقدون في الأحلام، ويروون عن بعض الناس قدرتهم على الاتصال بالأرواح ومخاطبتها، وأنهم يفعلون ذلك بلغة من اللغات التي انقرضت من على الأرض، كما يعتقدون أن مثل هؤلاء الناس– ومنهم الأطباء–

يستطيعون فعلاً رؤية الأرواح التي فارقت أجسادها. وهكذا يعيش هؤلاء الأقوام في خوف وفزع من الأرواح، ولا شيء يجعلهم في منجاة من أذاها غير إيمانهم في الساحر الذي يستطيع أن يتحكم في الأرواح إلى حد أنه يستطيع القضاء عليها، ومن أجل ذلك لا يتردد أحدهم في أن ينفذ عن طيب خاطر كل ما يأمر به الساحر، فيقطع جلده ويمتنع هما يحرمه الساحر باسم الآلهة، ويدفع ما يطلب الساحر من أجر باهظ.

وهناك كثير من أنواع السحر يستطيع أني شخص القيام بها، على أن يكون ملماً بما يجب عليه عمله، ولكن هناك كما ذكرنا أناساً تخصصوا في أعمال السحر يعرفون باسم رجال الطب أو ممارسي الطب عن طريق السحر أو السحرة، ويقوم هؤلاء بتلقين علومهم لأتباعهم الذين هم في الغالب أبناؤهم. ويمارس الطب عن طريق السحر الرجال والنساء على السواء، وليس من الضروري أن يكون جميع المشتغلين بهذه المهنة على درجة واحدة من المهارة، ولا يعالجون جميعاً أنواعاً واحدة من الشرور، والواقع أنه يوجد لدى البولوكي ما لا يقل عن ثمانية عشر نوعاً من السحرة، ومن الطبيعي أن أمهر هؤلاء السحرة وهم الذين يملكون أشد الأدوية أثراً يتطلبون دائماً أعلى الأجور. ويمارس هؤلاء الأطباء السحر الأسود والسحر الأبيض على السواء، والأول منها يتعلق بالعلاج من الأدواء ويقوم بطرد الأرواح الشريرة حتى يزول المرض أو النحس، بينما السحر الأسود يمارسونه ليسلطوا الأرواح الشريرة على شخص من الأشخاص لتحل به العلل أو المصائب. ومن عمل السحرة أيضاً معرفة أسباب المرض ومعرفة علاجه وحماية الناس من جميع الأرواح الشريرة

التي تحيط بهم، وذلك عن طريق التعاويذ والطلاسم والأحجبة والتمائم.

والتعاويذ أشياء يعتقدون أن فيها بركة، والطلاسم هي الأشياء التي تجلب للابسها البركة والحظ الحسن. والأحجبة هي التي تحمي من الشر. أما التمائم فهي أشياء من أي نوع كان- قد تكون صورة أو قرن حيوان أو صدفة من الأصداف أو إناء- ينسبون إليها قوى خارقة اكتسبتها عن طريق سحر أودعه إياها الساحر.

وليس للتميمة في حد ذاتها قيمة، ولكنها بعد أن يضع فيها الطبيب الساحر قسماً من الحزمة السحرية يرتفع ثمنها ارتفاعاً كبيراً حتى أنه قد يصل إلى بضعة شلنات وإلى بضعة جنيهات، تبعاً لما ينسب إليها من القوة الخارقة. وتختلف التمائم باختلاف الغرض منها، ولكنها ليست أشياء مقدسة، ولا يوجد بينهم من يعتقد أن لها صلة بالقدرة الإلهية، فهم يخشونها ولكنهم لا يعبدونا، ولو أنهم قد يقدمون القرابين للأرواح التي تحل فيها، على أنهم مع ذلك يصبون عليها خمر قصب السكر ليجعلوها أطوع لأمرهم، وقد يدمرونها إذا لم تسارع إلى تلبية لباتهم.

ولا يحيا سائر الزراع في الغابات الاستوائية نفس الحياة البدائية التي يحياها البولوكي، ففي بعض الجهات ولا سيما في غرب إفريقية توجد دول كبيرة يحكمها الوطنيون مثل أشانتي وداهومي وبيني Bini ويوروبا. وتسكن الشعوب التي تتكلم اليوروبا إقليما مساحته أربعون ألف ميل مربع في جنوب غرب نيجيريا ويبلغ تعدادهم مليونين، وقد تمزقت إمبراطورتيهم القوية- التي كان الملك أويو Oyo حاكمها الاسمى- إلى

عدة ولايات مستقلة.

وفي هذه الولايات الوطنية الكبيرة يعيش السكان– أو كانوا يعيشون– متحدين يحكمهم رئيس واحد تعاونه حاشية كبيرة من رجال الدين. وكانت تلك الوحدات الكبرى تقوم في الأصل على أساس الفتح ويتوقف بقاؤها على وجودهم حكام أقوياء، وكانت القبائل فيها تميل– إذا كانت الظروف مواتية– إلى أن يستوعب بعضها ثقافات بعض وأن تتخلى عن مقومات ثقافاتها الخاصة، وكان الحكام في بعض الأحيان غرباء مستبدين، وقد قيل إن شعور الرعية في داهومي نحو الملوك هو شعور الحياء أو الرهبة لا شعور الإخلاص، وكان نفوذ الزعيم في أغلب الأحيان يتوقف على إرادة رؤساء العائلات القوية. وفي بعض الجهات كانت هناك أشياء محرمة عليه تحد من حريته في التنقل، وكان هو نفسه يصبح أحياناً محرماً فلا يجوز أن تقع عليه عين إنسان. وقد كتب وسترمان Westermann في كتابه "الإفريقي اليوم" فقال:

"يقوم نفوذ الزعيم على اعتبار أنه سليل أول قائد للجماعة، فهو ممثل الأجداد وهو القوام على قوانينهم وعلى قدرتهم على السحر، وهو بهذا رمز لاتحاد القبيلة فإذا كرمته القبيلة فإنها بذلك تكرم نفسها وتاريخها. وقد يكون من ضمن واجبات الزعيم واجبات دينية كتقديم القرابين لأرواح السلف أو لآلهة القبيلة، أو على الأقل الإشراف على الطقوس القربانية".

وقد تطورت عبادة السلف في غرب إفريقية إلى درجة لم تبلغها في

مكان آخر، ويرجع إلى هذا– من بين عوامل أخرى– أن أصبحت التضحية البشرية طابعاً واضحاً للشعائر الجنائزية، فمن ذلك أن الأموات يظلون في الآخرة محتفظين بالمركز الاجتماعي الذي كانوا يتمتعون به في هذه الحياة، ولا بد إذن أن يكون للعظماء منهم رقيق وزوجات وأتباع، كل حسب مركزه، مما دعا إلى تقديم القرابين البشرية حتى أضحت العواصم الهامة وكأنها مذبح معلقة فيه جثث بشرية".

وقد كتب الميجر بارتن C. Barton في سنة ١٨٩٦ عن كومازي Kumasi (ومعناها في لغة أشانتي مكان القرابين) فقال: "تتغير طبيعة الأرض بسبب الرماد المتخلف عن العظام المتحللة، وتتناثر عظام الجماجم من جميع الأعمار تحت الأشجار بالمئات".

ويربى معظم الوطنيين في غرب إفريقية بعض الحيوانات المنزلية كالدجاج والخنازير والماعز، بينما يقوم قليل من القبائل بتربية بعض الماشية. وتنتشر في كل مكان تربية الدجاج، ولا يزيد حجمه على حجم الحمام، ويؤكل بيضه ولحمه. على أن الزنوج قوم زراعيون في المكان الأول. ويقع عبء العمل كله تقريباً على عاتق النساء في بعض القبائل مثل قبائل الداهومي، وذلك إذا استثنينا قطع الأشجار وتجهيز بقعة جديدة من الأرض للزراعة. لكن الأمر غير ذلك عند بعض القبائل الأخرى كاليوروبا إذ يقوم الرجال بالنصيب الأكبر من الحرث والعزق والحصاد. وموطن اليوروبا في الأصل مناطق السافانا التي تقع إلى الشمال، حيث يكون تجهيز الأرض أمراً يسيراً لنم يكن يستلزم سوى

إحراق العشب، ولكن شق الأرض التي تعرضت للجفاف الشديد وللصلابة تحت أشعة الشمس المحرقة هو الذي كان يستدعي بذل الجهد، ولذلك وقع هذا العمل فعلاً على عاتق الرجال، وكانوا كلما تقدمت عندهم الزراعة زاد مجهودهم الذي يبذلونه. فلما انتقلوا إلى إقليم الغابات ظل الرجال يقومون بالعمل الذي كانوا يقومون به موطنهم الأول. وحيث يقوم الرجال بالنصيب الأكبر في الزراعة نجد أبناءهم يصبحونهم منذ نعومة أظفارهم إلى الحقول، حتى إذا بلغوا العاشرة أو الثانية عشرة كان لهم الحق في زراعة حقول خاصة بهم في البقعة المجاورة لحقول آبائهم. وتتم الزراعة في بعض جهات غرب إفريقية عن درجة عالية من الجد والخبرة، ولكن الفأس الحديدية لا زالت أهم الأدوات الزراعية. وتجود الزراعة على الأخص حيث تزيد كثافة السكان، إذ أن شدة الحاجة إلى الأرض الصالحة للزراعة تضطرهم إلى بذل كل جهد لاستغلال الأرض على أتم وجه. ويقيم الكابوري Kabure الذين يقطنون الإقليم الجبلي الواقع في توجو الشمالية أسواراً من الحجارة حول حقولهم ويروونها من آبار ينشئونها بمهارة ويسمدونها بفضلات الحيوان التي يحصلون عليها من الزرائب، ولا يتركون أي مساحة من الأرض دون أن يستغلوها مهما كانت صغيرة، ومهما كان بها من الصخور التي يجب إزالتها قبل أن تصير معدة للزراعة.

والزنوج القاطنون على السواحل، يعتمدون في المحل الأول على صيد السمك، ومعظم ما يصيدونه منه يجفف في الشمس أو يدخن على النار، وبعد ذلك يحمله التجار إلى المناطق الداخلية حيث يقايضون عليه

بالمحاصيل الزراعية. وتستعمل في صيد السمك الحراب والشباك والفخاخ، وكذلك يستعمل السم في صيده من الغدران التي تحف بالشاطئ. وتحصل بعض القبائل الساحلية على الملح من أوراق أشجار المانجروف ومن جذور النبات، فيأخذون الرماد المتخلف من إحراق هذه المواد ويضعونه في سلال محبوكة ينفذ منها الماء ببطء، ثم يأخذون هذا الماء في قدور ويغلونه على النار حتى يتبخر جميعه وتتخلف عنه طبقة من الملح الذي يجمعونه ثم يعيشونه في سلال من أوراق النخيل محبوكة النسج.

ويوجد بين زنوج غرب إفريقية تخصص في العمل إلى درجة تفوق كثيراً ما يوجد بين البولوكي، فحتى الصيد عند اليوروبا يقوم به صيادون متخصصون، ولكن أشهر الحرف في الإقليم جميعه هي الحدادة والنسج وصنع الفخار وفتل الحبال وبناء القوارب. وتقوم تجارة القطن– الذي يزرع في بعض الأجزاء– وتنتشر في جميع الجهات، وهم ينسجونه شرائط ضيقة يبلغ عرضها خمس بوصات أو ستا على نول بدائي الصنع أفقي الوضع يتحرك فيه المكوك بالأرجل، وتخاط هذه الشرائط بعضها إلى بعض وتصنع منها الملابس. وقد أدخلت إلى بلادهم حديثاُ أنوال رأسية الوضع يمكن أن تنسج عليها أقمشة عرضها أربعة أقدام أو خمسة. وقد كان النسج فيما مضى من عمل الرجال دون النساء، ولكن النساء في الوقت الحاضر يقمن بمعظمه.



(شكل ٥٩) نساج قروي في ساحل الذهب

وكلما زاد التخصص في الإنتاج زادت الحاجة إلى التبادل. وقد كان هذا التبادل ولا زال يجري على الأخص في الأسواق التي يعقدونها في جميع القرى والمدن، وتقوم النساء بمعظمه، على أن بعض السلع- مثل السمك المجفف والملح والأدوات المعدنية- ترسل إلى أسواق بعيدة، وهي تجارة يقوم بها الرجال فينظمون قوافل من الحمالين يجوبون البلاد بمتاجرهم. ويستطيع الحمال المتمرن أن يحمل على رأسه ما يتراوح وزنه خمسين رطلاً ومائة رطل.

وتقوم معظم التجارة في هذه البضائع على المقايضة، على أن مقاطع القماش والودع تستعمل في بعض الأسواق وسيلة للتعامل كما تستعمل أيضاً في دفع الضرائب. وجدير بالذكر أن الودع الهندي الصغير الذي انتشر عبر إفريقية من ساحلها الشرقي أغلى قيمة من الودع

الإفريقي أما قضبان الحديد والنحاس وغيرها من المعادن فربما يرجع استعمالها وسيلة للتعامل إلى الأوروبيين الأوائل الذين أدخلوها.

وفيما يلي كشف بالسلع التي كانت معروضة للمقايضة في إحدى الأسواق الإفريقية كما أوردها شاهد عيان في سنة ١٨٩٤:

"قطن خام وأقمشة محلية الصنع ومقاطع طويلة من القماش المنسوج بالنول عرضه نحو أربع بوصات وخيوط قطنية ملفوفة على مغازل وخيوط قطنية مصبوغة باللون الأزرق ملفوفة على هيئة كرات، وأوراق النيلج المجففة التي تستعمل في الصباغة وأوراق الطباق المجففة وجوز النخيل وزيت النخيل وزيت جوز النخيل وأدوات حديدية محلية الصنع وأرز مضروب وغير مضروب وفول سوداني وخوص هندي وحبوب غينيا وموز وقاوون وجاكاتو (وهو نوع من الطماطم) وبطاطا مسلوقة وأوكوا (okua) مجففة وكاسافا وطيور ونمال طائرة مجففة وجرذان مجففة على السيخ وسمك مجفف وحصير قروي جيد الصنع، وكميات كبيرة من الأواني الفخارية المصنوعة محلياً ولا سيما القدور وقليل من الماشية والأغنام والماعز وكميات قليلة من الملح ومسحوق البارود".

ويشيد اليوروبا وغيرهم من القبائل منازل مستطيلة الشكل منحدرة السقوف حيطانها من الطين وارتفاعها من أربعة أقدام إلى ثمانية. وتبنى حوائطها من طبقات تترك كل منها فترة تسمح بجفافها قبل أن توضع فوقها الطبقة التي تليها. وليس الطين مادة مناسبة للبناء في مثل مناخ غرب إفريقية المطير، على أن الحيطان تحميها سقوف بارزة تتكون منها

(فراندة) عريضة حول المنزل. ولا يرب أنهم اقتبسوا هذه الطريقة من القبائل التي تقطن في الشمال، فإن أسوار المدن وحيطان المنازل في أقاليم السافانا تبنى كلها من الطين أو الصلصال. أما السقوف التي ترتكز على أعمدة عالية فتغطى بأوراق الأشجار وبالعشب، شأنها في ذلك شأن أغلب المساكن في إقليم الغابات الاستوائية. وفي داخل المسكن مقعد مفروش، وقد يوضع –لدى بعض القبائل– مقعد آخر في الفراندة. وليس للمنازل منافذ ولا مداخن. ومن المتبع أن العائلات التي تربطها أواصر القربى تقطن مجموعة متصلة من المساكن تبنى بحيث تحيط بفناء مربع الشكل يؤدي إليه مدخل واحد.

ومن النادر وجود فناء منعزل، لأن الأهالي يفضلون التجمع في قرى أو في مدن. ويحيط بالقرى والمدن الكبرى سور حوله خندق، وتترك في المواقع المناسبة من السور بوابات يقوم على حراسة كل منها موظف يوكل إليه جمع الإتاوات المفروضة على التجار. وتوجد خارج السور عادة منطقة من الغابات، لأن الأرض المنزرعة تكون في الغالب بعيدة بعض البعد عن المساكن، على أن سكان كل منزل يجتهدون دائماً أن يكون لهم بالقرب من منزلهم مساحة يزرعونها، أما الحقول الرئيسية فأنها تقع أحياناً على مسافة بعيدة، حتى إن أصحابها يضطرون إلى هجر مساكنهم الأصلية هجراً مؤقتاً وإقامة بضعة أسابيع بجوار مزارعهم في مواسم الزراعة والحصاد. وقد تكل العائلات القوية أحياناً إلى عبيدها العمل في الحقول البعيدة فيقيمون فيها إقامة دائمة في مساكن منعزلة أو في كفور صغيرة.

ويختلف نظام ملكية الأرض من قبيلة إلى أخرى، وهو أحياناً معقد تعقيداً كبيراً، ولكن السائد أن تعتبر الأرض ملكاً للجميع، فاليوروبا مثلاً تعتبر الأرض ملكاً للشعب في الماضي والحاضر والمستقبل، وأن أرض المزارع تحل فيها أرواح أسلافه وأرواح الأرض. ويعتقد اليو Ewe أن الأرض أعظم نعمة وهبها الخالق لبني الإنسان ليورثوها أعقابهم. بينما يعتقد أغلب الوطنيين في غرب إفريقية أن الأرض هي مقر أسلافهم وموطن آلهتهم، فلا غرابة إذن أن يتعلق الزنجي بأرضه ولا يقبل التخلي عنها.

والاعتقاد السائد هو أن الأرض قانوناً ملك الجميع، ولكن مصالح الجماعات المختلفة ومصالح القبيلة ومصالح العشيرة ومصالح سكان القرية يجب أن تكون جميعها محل الاعتبار؛ فالأرض التي تملكها إحدى عشائر القبيلة تعتبر نظرياً ملكاً للملك أو للزعيم الأعلى، بينما يعتبر كل إقليم في داخل هذه الأرض ملكاً لزعيم الإقليم، وهكذا تسير الأمور نزلاً حتى نصل إلى رؤساء العائلات فنجد أنهم هم الذين يديرون الأرض التي تملكها العائلة. ولا يملك أصحاب الأرض الاسميون أن يتصرفوا فيها بأكثر من استغلالها، فليس لهم حق بيعها أو إقامة مزارع خاصة عليها؛ ولا يجوز طرد أي شخص من بقعة من الأرض يقوم فعلاً بزراعتها، ولكن من الضروري دائماً إعداد أرض جديدة للزراعة، لأن عدم استعمال الأسمدة المخصبة يجهد الأرض وشيكاً ويذهب بخصوبتها. وجدير بالذكر أن الحدود التي تفصل بين الملكات المختلفة معروفة تماماً وتراعي بدقة.

ويختلف نظام الوراثة لدى القبائل المختلفة، فالوراثة عند اليوروبا وبعض القبائل الأخرى تكون للأصلاب، أي أن الرجل إذا مات يرثه أبناؤه الذكور، ويكون لأكبرهم في العادة أكبر نصيب. وهناك قبائل أخرى تكون الوراثة فيها للأرحام، أي أن الرجل إذا مات آلت أملاكه لأبناء أخته. ومن المحتمل أن الأرض كانت في أول الأمر ملكاً مشاعاً للجميع، إلا أن نظام الزراعة الكثيفة يؤدي دائماً إلى الملكية الخاصة، لأن استغلال الأرض حقيقياً لا يتيسر في ظل أي نظام آخر.

وقد تقدمت النظم السياسية تقدماً كبيراً في معظم جهات غرب إفريقية، ولكن نفوذ الحكام يحد منه نفوذ الجمعيات السرية. ويختلف عنصر السرية اختلافاً كبيراً، فبعض الجمعيات لا يكلف الاشتراك فيها أكثر من دفع الرسم المقرر، بينما يستوجب الاشتراك في بعضها كثيراً من الإجراءات المعقدة. ولأكثر الجمعيات رموزها التي تميزها، وهذه قد تكون ندوباً في الجلد أو كلمات سرية أو لغة خاصة وطقوساً. وبعض الجمعيات كبيرة جداً ولا يقتصر الاشتراك فيها على قبيلة واحدة، كما أن أغراض الجمعيات متباينة، فبعضها- مثل جمعية الفهد في مندي Mendi- تجعل الاغتيال من أهم أغراضها، على أن أغراض كثيرة من الجمعيات هي تبادل المنفعة، وبعضها يؤدي خدمات عامة عن طريق تقييد صيد السمك وجني الحاصلات بوضع شاراتها على النهر أو على المحصول علامة على أنه ممنوع. وكثيراً ما يلبس أعضاء الجمعيات أقنعة أثناء اجتماعاتهم، بينما تمارس بعض الجمعيات الأخرى طقوسها ليلاً في أعماق الغابة، فإذا ضبط أثناء اجتماعها دخيل كان جزاؤه القتل أو البيع

في سوق الرقيق. وتعتبر الجمعيات السرية والأقنعة طابعين ثقافيين هامين يتميز بها غرب إفريقية.

وقد كانت الحروب تنشب فيما مضى على مقياس كبير، وكان لمعظم الزعماء حرس من الرقيق المدربين، ولكن القليلين منهم كانوا يحتفظون بجيش قائم. وكان من أحسن جيوش غرب إفريقية نظاماً وشجاعة جيش قوامه ألفان وخمسمائة من النساء المحاربات، هو جيش "مسترجلات داهومي" الشهير. وكان المتبع في غرب إفريقية أنه إذا قامت حرب سارع جميع الرجال القادرين فحملوا السلاح وانضووا تحت لواء زعمائهم، وكان حاكم أويو (Oyo) في نهاية القرن الثامن عشر يستطيع أن يجند مائة ألف مقاتل. وكذلك كانت العادة أن فرق المشاة تدعمها فرق الفرسان وأن يكون جميع الضباط راكبين. وقد حلت الأسلحة الحديثة الآن محل الأدوات القديمة من أقواس وحراب وبلط. وكان الغزو يهدف غالباً إلى الحصول على أسرى، وكانت الطريقة المعتادة هي محاصرة قرية العدو ليلاً ثم مفاجآتها بالهجوم مع الفجر، ولم يكن ينجو من هذه الغزوات أحد، فمن نجا من القتل أخذ أسيراً، وكان المهاجمون يستولون على الماشية والمنقولات ثم يحرقون المساكن لا يتركون لها أثراً إلا إذا مان من المستطاع ضمها إلى ممتلكاتهم.

ويرجع الرق في إفريقية الغربية إلى زمن سحيق في القدم، وقد كان للسيد دائماً حق التصرف في عبيده بالبيع والتأجير والرهن في مقابل ديونه، ومن القبائل من كانت تعطي سيد الرقيق حق التصرف فيهم

بالقتل. لكن الرقيق كاموا على العموم يلقون معاملة حسنة لأنهم يعتبرون من الممتلكات القيمة. وكان رقيق اليوروبا يقطنون قرى صغيرة بجوار مزارع أسيادهم ويقومون على زراعة أرشهم، وكانوا كثيراً ما يوهبون مزارع صغيرة يزرعون لحسابهم. وهناك جهات أخرى من غرب إفريقية كان يسمح للرقيق فيها باقتناء ممتلكات خاصة بهم، وكذلك كان لهم حق افتداء أنفسهم من الرق، بينما كانت هناك جهات أخرى– مثل داهومي– لم يكن للرقيق فيها حق امتلاك أي شيء. وقد أدت تجارة الأوروبيين في الرقيق– وهي تجارة رفعت من أثمان العبيد– إلى تنظيم الغارات التي كانت تهدف إلى الحصول على الرقيق، كما أدت إلى كثير من أعمال الوحشية.

وقد حدث كثير من التغيرات في إفريقية الاستوائية نتيجة لدخول الجنس الأبيض، فقد أوشك أن يختفي الرق وتقديم القرابين البشرية وأكل لحوم البشر، وكذلك اختفى كثير من الصناعات التي كان الأهالي يقومون بها فيما مضى.

"وإلى أواخر القرن الماضي كان كثير من المواد الخام يستورد من أوربا ويقوم الأهالي بصنعه، فكانوا يستوردون من البرتغال معظم النحاس اللازم لصناعة البرونز في بنين Benin، وكان الحدادون يصنعون الأدوات الحديدية من حديد مستورد من أوروبا بالإضافة إلى الحديد المحلي، وينسج معظم النساجين اليوم خيوطاً مستوردة من أوروبا، وبذلك تعطلت أفران الصهر المحلية وترك النساء صناعة الغزل، لكن ظلت صناعة

الحدادة والنسج في ازدهار إلى جرفهما في النهاية تيار البضائع الأوروبية الجاهزة. وقد تبقى بعض الحرف في ازدهار، فإن المنسوجات التي ينتجها النساجون المحليون فيها من حسن الذوق ومن المتانة ما يضمن أن تجد لها سوقاً بغير عناء"[١٦].

ويتوقف مستقبل الزنجي على مقدار استطاعته تكييف نفسه ليلائم الظروف الجديدة التي نشأت الأوروبيين في القارة الإفريقية، ويقع كثير من هذا على عاتق الجنس الأبيض، إذ على معاملته تتوقف قدرة الزنوج على الاحتفاظ بمقومات الثقافة الأوروبية وبالصفات التي يمتاز بها الجنس الأبيض، وكذا قدرته على استيعابها وتكييفها بحيث تلائم طريقته الجديدة في الحياة.

---

(١٦) D. Westermann. The African to-day.

الفصل الثاني عشر

الزراع والصائدون البدائيون في البحار الجنوبية

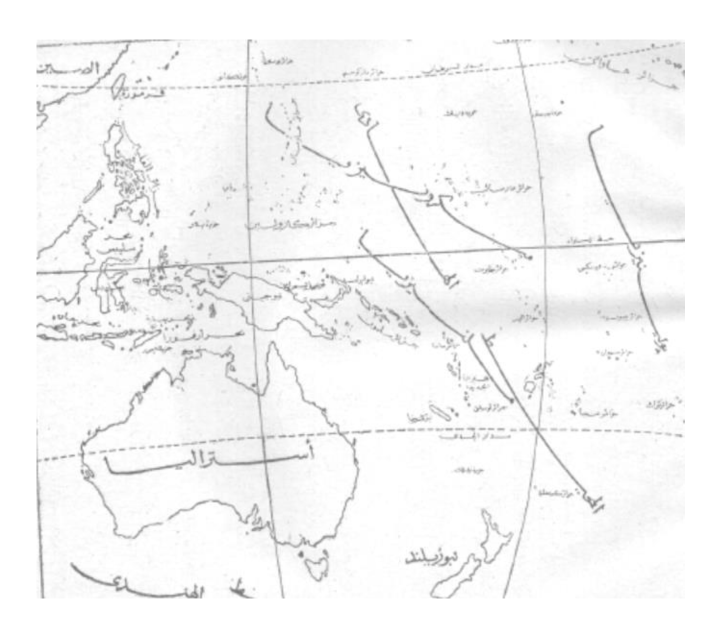
١- كلمة عامة

المحيط الهادي أعظم المحيطات، وهو في الواقع أطول المحيطات وأوسعها وأعمقها جميعاً، ومساحته تزيد على مساحة جميع الأرض اتي تعلو فوق مستوى البحر، ويبلغ امتداده من الشمال إلى الجنوب ثلث محيط الكرة الأرضية، ويبلغ اتساعه عند خط الاستواء عشرة آلاف ميل، وفيه يقع نصف عدد الأعماق العظمى المعروفة وأعمقها جميعاً أخدود إمدن (Emden) (٣٥ ألف قدم) الواقع شرق جزر الفلبين. ولكن الذي يعنينا هنا هو سكان الجزر المختلفة التي تنتشر في هذا المحيط العظيم.

وفي جنوب المحيط الهادي- البحار الجنوبية، كما يطلق عليه في كثير من الأحيان- جزر لا عداد لها، ولكن مساحتها جميعاً بما فيها زيلندا الجديدة لا تزيد على ستين ألف ميل مربع. وتختلف الجزر في مساحتها من جزر كبيرة مثل كاليدونيا الجديدة التي يبلغ طولها ٢٥٠ ميلاً وعرضها من ٢٥ إلى ٣٠، إلى جزر مرجانية صغيرة. وتتقارب الجزر

بعضها من بعض في الجزء الغربي والجزء الأوسط منه، أما في الغرب فإن مساحة الجزر في الغالب صغيرة تفصل بينها مسافات شاسعة من المحيط تبلغ أحياناً ألف ميل. ومما هو جدير بالذكر أن ما جلان، بعد ما خرج من المضيق المسمى باسمه وخاطر بالدخول إلى المحيط الهادي لأول مرة، ظل ثلاثة أشهر يمخر عبابه لم تقع عينه في أثنائها إلى على صخرة عديمة الماء.

وتوجد جزر المحيط الهادي عادة في مجموعات كمجموعة ميلانيزيا– جزر الزنوج– التي تقع في الغرب، وتشمل جزر سليمان وكاليدونيا الجديدة وهبريديز الجديدة؛ ومجموعة ميكرونيزيا وهي الجزر الصغيرة في الشمال والوسط وتشمل جزر بيليوز Pelews ومارياناز وكارولينز ومارشلز وجلبرتس؛ ومجموعة بولينيزيا، وهي الجزر العديدة في الشرق، وتشمل هاواي وإيستر وغيرهما. وجميع هذه الجزر– فيما عدا كاليدونيا الجديدة– إما مرتفعة وبركانية مثل فيجي وهاواي، وإما واطئة مرجانية كجزر إليس Ellice وكوك. ولا تقع مجموعات الجزر مبعثرة كيفما اتفق، ولكنها تتجمع على طول خطوط معينة. وترتفع بعض الجزر البركانية من ماء المحيط فجأة، فتعلو من شاطئ ضيق إلى ارتفاع أربعة آلاف قدم، وفي هاواي أربعة عشر ألف قدم. ولكن بعضها قد انخفض ثم اختفى تحت سطح الماء، على أن الانخفاض قد صحبه بناء حواجز مرجانية لا تكاد تعلو على سطح الماء وتقف طابعاً مميزاً للبحار الجنوبية.



(شكل ٦٠) جزر البحار الجنوبية

وتوجد حول شواطئ معظم الجزر العالية تكوينات مرجانية على شكل تكوينات محاذية أو حاجزة، وقد يكون المرجان محاذياً في ناحية منها وحاجزاً في الناحية الأخرى بينما يغلب أن ينتهي أحدهما بالآخر، وقد تمتد الحواجز إلى البحر على هيئة مسطحات مرجانية لا يغطيها الماء إلى عمق بوصات قليلة، وقد يبلغ عرض الواحد منها من مائة ياردة إلى مائتين أو يزيد.

"ويغطى سطح هذه التكوينات جميعها– التي تعلو بضع ياردات فوق سطح الماء– بأشكال لا نظام لها على شكل تفرعات مرجانية يابسة وأقداح وألواح وكتل مستديرة وقشرة متصلبة، كلها تتركب من الحجر الجيري وتغطيها كائنات عضوية وردية اللون أو قرمزية أو صهباء أو

برتقالية أو بنية أو خضراء، يكثر فيها بينها الودع والمحار المخروطي الشكل وصدفات عنكبوت الماء وكلها ذات ألوان زاهية، وكذلك قنافذ الماء ذات الشوك القرمزي أو الأسود، وهنا وهناك نجوم الماء الحمراء أو القرمزية، وتسبح فوق سطح الماء في كل مكان عقارب الماء وأنواع من فصيلة الجنبري عليها نقوش واضحة، أي أن الحاجز المرجاني تدب فيه الحياة ويبدو كأنه وحدة حية وليس فقط مجموعة من الحيوانات والنباتات المختلفة، فهذه باقية ولكن الحاجز يولد ويعيش وتنتهي حياته وهي لا تزال باقية، فهي باقية أعضاؤه وهي مراكز التوالد فيه"[١٧].

وفي حالة التكوينات المرجانية المحاذية يوجد عادة بينها وبين الشاطئ مسافة ميل أو ميلين من الماء الضحل الرائق، بينما يفصل بين الشاطئ وبين الحاجز المرجاني مسافة أكبر صالحة للملاحة وتستطيع أكبر السفن أن تسير فيها، والماء في هذا الحيز هادئ نسبياً لأن الحاجز المرجاني يؤدي وظيفة حاجز للأمواج.

وترتفع الجزر المرجانية ارتفاعاً قليلاً فوق مستوى الماء، وهي عادة جزر دائرية الشكل في وسطها غدير.

"وفي الغدير يقل عمق الماء تدريجياً ويغطى القاع رمل ناعم لزج، تتخلله مجموعات من المرجان، ويلي ذلك شريط من الشاطئ يغطيه الماء أثناء تعانقه صغار الأمواج، وعلى مجموعات المرجان التي تكثر

---

(١٧) Gardiner, J. Stanley, Coral Reefs & Atolls.

وسط الغدير يكثر نمو نوع من الكائنات البحرية الضخمة تسمى (tridacna) يصل وزنها- من غير صدفتها- إلى ٢٠ رطلاً، وقد يصل وزنها هي وصدفتها إلى خمسمائة رطل. وإلى الداخل قليلاً توجد طبقات من أصداف اللؤلؤ، وتسبح الأسماك الجميلة التي بهرتنا فور دخولنا، وهي جميعاً ذات ألوان خلابة. ولكن سائر الأصداف ذات لون أبيض كلون الجير أو تتخللها بقه وردية باهتة إلى أقصى حد، وبعضها الآخر ميت تقاذفه الأمواج. وحتى في الغدير حيث يبدو أن بعض الأسماك يصيبها الهزال، نجد بعضها الآخر- وهذا أمر عجيب- يزدهر ازدهاراً عظيماً ويصبح أساس الثروة في هذه الجزر. والغدير بحيرة مقفلة تزخر بالأسماك، وتكثر فيه حيوانات القرش ولا سيما عند المداخل كي تتغذى على هذه الوفرة. ويخيل للإنسان أن الصائد ى يتكلف في الصيد أكثر من إعداد سنارته، ولكن الأمر مع الأسف ليس كذلك، فإن بعض هذه الأسماك الملونة التي كانت تحوم بكثرة هائلة حول القارب الداخل له أشواك سامة، وبعضها الآخر لا يصلح للأكل لأن لحمه سام"[١٨].

والغدير- وهو عادة غير منتظم الشكل- قد يكون دائرياً أو بيضوياً أو مثلثا، ويتراوح قطره من بضع مئات من الياردات إلى بضعة أميال. والتكوين المرجاني الذي يحيط به يكون عادة قليل الاتساع، ويتكون من ركام مرجاني قذفت به الأمواج وألقت ببعضه فوق بعض. وهذا المرجان يتفتت تدريجاً ويتحول إلى تربة ينمو فوقها ما قد تقذفه الأمواج من جوز

---

(١٨) Stevenson, R L. in the South Sews.

الهند وما قد تسقطه الطير من بذور. ويندر أن يكون شط الغدير الضيق متصلاً، بل هو في الغالب سلسلة من الجزر تحيط بالغدير وتترك له كثيراً من المداخل. ويقيم الأهالي مساكنهم على ناحية الشط المجاورة للغدير، ويتركون الناحية الأخرى مهجورة، لأن الأمواج لاتزال باستمرار ترتطم بها وتتكسر عليها، وهذا هو سبب الصوت المدوي الذي تشتهر به الشطوط المرجانية. وتبلغ الشطوط المرجانية ٩٠% من مجموع التكوينات المرجانية في مجموعات الجزر التي تملأ المحيط "الهادي الهندي" ومن أشهرها شط فونا فوتي من المحيط الهادي الجنوبي حيث حفرت الجمعية الملكية في سنة ١٨٩٩ إلى عمق ١١١٤ قدما ولم تصادف غير تكوينات من الجير المرجاني. وقد وصف ر. ل. ستيفنسن غدير فاكارفا والشط المحيط به فقال:

"والجزيرة ذات امتداد عظيم، ويبلغ طول الغدير الذي تحيط به ثلاثين ميلاً، ويتراوح عرضه بين عشرة أميال واثني عشر ميلاً. والشط المرجاني الضيق الذي يحيط بالغدير والذي يسمونه الأرض اليابسة يبلغ نحو ثمانين أو تسعين ميلاً وعرضه نحو "مرجع" واحد[١٩]. وقد مرقت بنا السفينة بين طرفي الشط وانفلتت إلى داخل الغدير، وقد كان هذا من الاتساع وكان الشط المحيط به من الضيق بحيث خيل إلينا أن الغدير يمتد أمامنا إلى ما لا نهاية. نعم كان يلوح لنا هنا وهناك، في البقع التي كانت تنتهي عندها اليابسة ويحل محلها بوغاز يؤدي إلى الغدير، خط

---

(١٩) المرجع يساوي ١/٨ ميل أو نحو ٢٠٠ متر.

رفيع من أشجار النخيل؛ وكان يخيل إلينا أحياناً أن ذلك الخيط الأخضر من النبات يمتد أمام أعيننا إلى مرمى البصر. وفي الناحية الأخرى وتحت الأشجار الواقعة في أعالي الشط رأينا بضعة منازل بيضاء هي بلدة روتوافا Rotoava أكبر محلة من محلات البوموتس Paumotus. وهنا ألقينا مراسي السفينة قرب الشاطئ في أول مياه هادئة صادفناها منذ غادرنا سان فرانسسكو، وكان عمق الماء هنا خمس قامات، وكان بوسع الواحد منا أن يطل من فوق ظهر السفينة ويظل النهار بطوله يتطلع إلى الحبال الغليظة التي تمسك السفينة إلى الشاطئ وهي آخذة في الاختفاء تحت الماء، وإلى بقع المرجان والأسماك المتعددة الألوان، ويرى بحراً ممتداً إلى الأفق تتحرك فوق سطحه أمواج صغيرة كما لو كان سطحه بحيرة صغيرة، بينما يرى في الناحية الأخرى على مسافة قصيرة إلى الخلف بحراً آخر صاخباً تزمجر فيه الأمواج.

وليست الشطوط المرجانية بالأماكن التي يجد فيها الناس مقاماً مريحاً، وبعضها- وقد تكون هذه من القدم بمكان- تعلوه تربة سميكة تزكو فيها أعلى أنواع الفواكه. وقد جست خلال واحد من هذه الشطوط وكانت تتملكني الدهشة والإعجاب على حد سواء، وأنا أسير وسط غابة من أشجار ثمار الخبز الضخمة أتغذى على الموز وأتعثر في جذور التارو Taro[٢٠]. كان هذا هو شط نامورك Namorik في أرخبيل مارشال وهو شط لم أر في حياتي له مثيلاً. والآن دعني أصف لك شطاً آخر على

(٢٠) نبات من فصيلة اللوف أو "خبز القرود" درناته صالحة للطعام.

النقيض من ذلك تماماً ومع ذلك فهو أصدق منه تمثيلاً لما عليه سائر الشطوط، ذلك هو شط فاكارافا Fakarava الذي لا يزيد على شريط ضيق يتكون في أكثر أجزائه من جير مرجاني متفتت شبيه بفتات اللافا البركانية وشديد الإيلام للقدم العارية، وقد يصادفنا هنا وهناك طبقة من رمل أبيض شديد النعومة، وهذه هي أقل البقع إنتاجاً.

وما ينمو بهذه الجزر من النباتات المتنوعة يزكو حيث تتكون التربة من المرجان المتفتت، وهي تجود فيها بتلك الدرجة العجيبة التي تضفي على الجزر ذلك الجمال الساحر الذي يطالع القادم إليها من البحر. وتزكو أشجار جوز الهند على الأخص في تلك التربة الجامدة، فتضرب بجذورها إلى الطبقات السفلى حيث الماء الآسن الذي يتخللها، بينما ترفع هاماتها الخضراء عالية إلى مهب الريح تحمل كل مظاهر الصحة والحبور. وتلي أشجار الباندانا Pandanus أشجار جوز الهند في الأهمية، وهي أيضاً من النباتات التي تستعمل في الطعام وتجود في هذه التربة كما تجود أشجار جوز الهند. وهناك أيضاً شجيرات خضراء تسمى ميكي Miki تنمو في كل مكان. وقد تصادفك في بعض الأنحاء شجيرات البوراو Purao وأنواع عديدة من أعشاب ليس لها قيمة، على أن عدد ما ينمو على شط مثل فاكرافا من أنواع النباتات المختلفة لا يزيد على العشرين، بل قد لا يصل إلى ذلك العدد، لكن لا يوجد بينها نصل واحد من الحشائش ولا توجد ذرة من فطر الأرض النباتي (Humus) إلا حيث يكون أحد من الناس قد جلب منه كيساً أو كيسين ليحاول زراعة شيء يسميه حديقة. وتكثر الحشرات في بعض الأحيان، فتصادفك

سحب من البعوض أو من الذباب الذي هو شر من البعوض بكثير. وقد ترى الحناجل قابعة في جحورها، وقد تحاصر الجرذان بالليل المنازل والحدائق الاصطناعية. والحناجل غذاء شهي، وقد تكون الجرذان كذلك ولكني لم أذقها. وفي جزر جلبرت يصنعون من ثمار الخبز نوعاً من الحلو على شاكله ما قد يتناوله الناس بعدد غذاء متعدد الألوان، على أنه لا يروق لي بعد أكلة أساسية، أما سائر ألوان الطعام في شط مقفر مثل شط فاكارافا فيمكن تلخيصها بأسلوب أهل الأرخبيل الفكاهي بقولنا: "كتل من جوز الهند تشوى على الحجر أو تحمر في الدهن"، فإن قائمة الطعام عندهم لا تعدو جوز الهند الفج وجوز الهند الناضج وجوز الهند المتخمر، وجوز الهند للأكل وللشرب، وجوز الهند النيئ والمطبوخ، وجوز الهند الساخن والبارد"[٢١].

وليس هنا مقام الكلام عن أصل الجزر المرجانية وتكوينها، ويكفي أن نذكر أن الحواجز والجزر المرجانية هي تكوينات من الحجر الجيري الصرف يغلب فيها هياكل جيرية لكائن عضوي هو حيوان المرجان (Coral polyp)، ولكنها تحتوي كذلك على بقايا عضويات نباتية وحيوانية مما يعيش مع حيوان المرجان. وللمرجان أشكال متعددة ولكن أهمها في بناء الحواجز ما يتحد وتتكون منه شعاب هائلة. ويستطيع حيوان المرجان أن يعيش في ماء المحيط على أي عمق، ولكن الذي يبني الحواجز المرجانية يزكو حيث لا يزيد عمق الماء على مائة قدم،

---

(٢١) Stevenson, R. L, In the South Seas.

على أن يكون خلواً من الطمي، وأن لا تهبط درجة حرارته عن ٧٠ف (٢١م) وأن لا يخلو الماء من ذرات الطعام التي تجلبها تيارات المحيط. ولكل هذه الأسباب تكثر التكوينات المرجانية في وسط البحار المدارية وفي غربها حيث تساعد التيارات الاستوائية على نموها. ويلاحظ في الحواجز المرجانية دائماً ثغرات حيثما يصب نهر من الأنهار ويلقي إلى البحر بحمولته من الطين.

وينتمي سكان جزر المحيط الهادي إلى عنصر أو إلى آخر من العناصر الثلاثة الآتية: الميلانيزي والبولينيزي والميكرونيزي. على أن هجرات بحرية كثيرة قد حدثت ونتج عنها أن اختلطت العناصر وإلى أن صارت مجموعات كبيرة تنتمي إلى عنصر آخر. ويقطن العنصر الميلانيزي سلسلة الجزر التي تمتد من غينيا الجديدة إلى الجنوب بمحاذاة شواطئ أستراليا ولكن على بعد ألف ميل منها. عل ى أن هناك ما يدل على أنهم كانوا في زمن بعيد يقطنون بعض جزر بولينيزيا. والميلانيزي قصير القامة يتراوح طوله بين خمسة أقدام وبوصة واحدة وبين خمسة أقدام وثلاث بوصات، وله رأس مستطيل وجلد بني أو قاتم جداً، وشعر ملبد، وأنف عريض ولكنه غالباً أقل فلطحة من أنف الزنجي الإفريقي. وشعرهم- الذي يستشزرونه عادة إلى أعلى ويجعلون منه كتلة سميكة- أطول من شعر الزنوج الإفريقيين، وكذلك حواجبهم أغزر من حواجب أولئك الزنوج.

ومن المتفق عليه عموماً أن الميلانيزيين نشأوا من عناصر اختلطت

بعضها ببعض، ويرى بعض العلماء أن ذوي الرؤوس العريضة منهم هم نتيجة اختلاط الميلانيويين بالأقزام.

ويقطن البولينيزيون الجزر الشرقية من ساموا إلى إيستر ومن هاواي إلى زيلندا الجديدة. ولكن هناك جماعات متفرقة منهم تعيش في داخل ميلانيزيا نفسها، بينما الفيجيون خليط من العنصرين من الناحيتين الجنسية والثقافية. ومن المؤكد أن البولينيزيين خليط من العناصر، ولذلك يختلفون في المظهر، وهم في العادة أطول من الميلانيزيين إذ يبلغ متوسط الطول بينهم خمسة أقدام وثماني بوصات، ولهم جلود يختلف لونها من الأسمر الزيتوني إلى البني الفاتح، وشعر أسود أو مموج، وبعضهم ذوو سحنة تشبه السحنة الأوروبية إلى حد عجيب، ولكن البعض الآخر- كأهالي طونجا وأهالي فيجي مثلاً- أكثر شبهاً بالميلانيزيين. وتوجد أدلة وجيهة تدعو إلى الظن أن أحد العناصر التي نشأ اختلاطها هؤلاء الناس كان ينتمي إلى جنس البحر المتوسط، وأنه كان منذ قرون يعيش في وادي نهر الكانج ثم هاجر إلى جاوه حيث عاش زمناً طويلاً تعلم خلاله ركوب البحار واستبدل أثناءه تدريجاً بطعام الأرز طعاماً من ثمار الخبز. ثم عبر هذا العنصر مضيق مولقا (Molucca) وانحدر على طول الشاطئ الشمالي لغينيا الجديدة إلى فيجي وساموا ثم إلى غيرها من الجزر، وكان استعماره نيوزيلندا في عام ١٣٥٠. وهناك عنصر آخر أكثر وضوحاً في الأجزاء الشمالية من بولينيزيا منه في غيرها، نشأ عن هجرة عناصر تنتمي إلى سكان جنوب الصين، ثم عنصر ثالث لم يعرف أصله بالضبط يمتاز بالرأس العريض

واللون الفاتح والأنف الدقيق والملامح التي لا تختلف أحياناً عن ملامح الأوروبيين.

ويعيش الميكرونيزيون في الجزر الواقعة إلى الشمال وإلى الشمال الشرقي من ميلانيزيا، وهؤلاء خليط من العناصر ولكنهم أقرب شبهاً إلى البولينيزيين منهم إلى الميلانيزيين، وهم على العموم أقصر قامة من البولينيزيين، وبعضهم ذوو جلد مشرب لونه بصفرة خفيفة نتجت عن تزاوجهم مع عنصر الملايو.

وتتمتع جزر البحار الجنوبية– كسائر الجزر المحيطية– بمناخ غير متطرف الحرارة، على أنها لموقعها الجغرافي أكون دائماً دافئة أو حارة، إذ أن معدل حرارتها السنوي أعلى قليلاً من ٨٠° ف (٢/٣ ٢٦° م). وقد كان من أثر الامتداد العظيم للمحيط الهادي أن أصبحت الرياح والتيارات البحرية فيه أكثر مطابقة للتوزيع النظري منها في أي جزء آخر من العالم. لكن في الأجزاء الغربية تعمل الكتل اليابسة المجاورة للمحيط (آسيا وأستراليا) على هبوب الرياح الموسمية. ويوجد في الأقاليم الاستوائية نطاق من الرهو والأمطار التصعيدية تهب في شماله وفي جنوبه الرياح التجارية. وقد كان من نتائج انتقال هذا النطاق الظاهري شمالاً وجنوباً تبعاً للحركة الظاهرية للشمس أن أصبح أكثر هذه الجزر يتعرض في بعض الفصول للرياح التجارية وفي بعضها الآخر للرهو الاستوائي والأمطار الغزيرة. على أن ما يقع من هذه الجزر قرب المدارين مثل فيجي وهاواي يتعرض للرياح التجارية على مدار السنة،

وهي في كثير من جهات العالم رياح جافة ولكنها هنا تتحمل بالرطوبة بسبب مرورها على مساحات شاسعة من المحيط وتسقطها على السفوح المواجهة لها من الجزر "المرتفعة".

وهذا التوزيع المطري غير المتوازن يلاحظ على أوضحه حيثما يكون اتجاه الشواطئ عمودياً على اتجاه الريح كما هي الحال في جزيرة أواهو Oahu التي تقع بها هونولولو، إذ يزيد متوسط المطر السنوي بها على مائة بوصة في الشرق بينما لا يصل في الغرب إلى خمس وعشرين بوصة. وقد كان من أثر هذه الفروق في توزيع المطر أن صارت الحياة النباتية في الجانب المواجه للريح من كل الجزر أزكى منها في الجانب الآخر، على أن الجانب المواجه للريح في بعض الجزر تغزر به الأمطار لدرجة تجعله غير ملائم لزراعة، ولهذا تتركز معظم الزراعة في الجانب الأقل مطراً حيث يضطر سكان السهول إلى الاعتماد على الري. وتسقط أغزر الأمطار على المناطق الساحلية في الجزر الغربية (مجموعة ميلانيزيا) وتصل أحياناً إلى مائتي بوصة فوق المرتفعات وإلى مائة بوصة في السهول. وعلى العكس من هذا نرى بعض الجزر في الشمال الغربي) أي في ميكرونيزيا) تتعرض أحياناً لجفاف عارض ولكنه قد يكون شديداً.

وتكاد الجزر المرتفعة تكون مغطاة تماماً بنباتات استوائية كثيفة من الشجيرات السرخسية، وتمدها بالكفاية من الماء أنهار تنحدر من المرتفعات تحمل الطمي الخصيب إلى الوديان. أما الجزر الواطئة فمطرها قليل والحصول على ماء الشرب فيها عسير، والتربة في الغالب

من حجر المرجان الناعم، ولذا كان معظمها قاحلاً. وتتعرض الجزر لعواصف إعصارية هي الهاريكين الرهيبة التي تسبب كثيراً من الأضرار. وفي بعض اجزر لا يحس الإنسان بذلك الانتعاش الذي ينشأ عن التغيرات الجوية، بينما في بعضها الآخر ولا سيما ما كان منها على مقربة من خط الاستواء، لا يحس الإنسان بفروق الحرارة وإنما يحس بفروق الرطوبة، فالفرق بين الرياح التجارية للنعشة وبين الحرارة الخانقة التي تصحب الرياح الموسمية أوضح ما يكون.

وبعض النباتات في ميلانيزيا ترجع إلى أصل آسيوي، بينما لا يوجد في الجزر الأخرى من النبات إلا ما يستطيع الطير والريح نقل بذوره وفسائله، ولا من أشجار الفاكهة إلا ما تستطيع ثماره أن تعوم دون أن يصيبها الماء الملح بأي ضرر، وأشهر هذه الأنواع هي ثمرة جوز الهند التي تستطيع أن تعوم على سطح الماء ستة أشهر أو يزيد دون أن يتعرض جنين النمو فيها للتلف. فإذا ما قذف الماء بالجوزة إلى الرمال الدافئة أو ألقت بها الأمواج فوق حاجز مرجاني، فسرعان ما ينبثق عودها من الطرف المدبب، بينما تمتد الجذور الرقيقة من الطرف الآخر المستدير إلى التربة أو إلى المرجان المتحلل، كيفما تكون الحال.

ويكون نمو شجرة جوز الهند على أتمه قرب البحار لأنها تحب ضوء الشمس والهواء الطلق والتربة الملحة. وتتغطى شواطئ الجزر إلى حد ما بغابات من النخيل ترتفع سيقانه الخضراء الشبيهة بالأعمدة إلى علو يتراوح بين ثلاثين وسبعين قدماً تعلوها هامة من الأفرع الخضراء

وثمار الجوز– وترى أقرب الأشجار من البحر مائلة إلى الخارج فوق الماء، بينما يتمايل الشجر جميعا مع النسيم ذات اليمين وذات الشمال ويمد جذوره في أسفل تضرب في الأرض وتعمل على تماسك التربة تحتها. وتبدأ شجرة جوز الهند في حمل الثمار بعد غرسها بست سنين أو ثمان، وتؤتي ثمارها أربع مرات أو خمساً كل عام، وتستمر على ذلك خمساً وعشرين سنة أو يزيد. وأول الثمار نضجاً أسفلها على النخلة مكاناً، وتظهر الثمار الجديدة باستمرار نمو الشجرة، على حين تذوي الأغصان السفلى تدريجاً وتموت.

ومن الصعب أن نتصور ماذا كان يفعل سكان هذه الجزر لو لم تكن شجرة جوز الهند، لأنهم لا يدعون جزءاً منها دون الانتفاع به؛ فخشبها يستعمل في أغراض عديدة، وجريدها يمدهم بسقوف لمساكنهم، وعندما يجف يستعمل في الوقود وفي الإنارة. وتمدهم قشورها بألياف يصنعون منها الخيوط والحبال. ومن قشر الثمرة الكاملة يتخذون أواني الشرب، فإذا قسمت القشرة نصفين اتخذوا منها الأكواب والصحون. ويمدهم لبن الثمار الخضراء، أي الجوزة التي يتماسك بعد لبابها، بشراب شهي مفيد. وتؤكل الثمار عندما تصبح لينة، أي قبل أن تصل إلى الدرجة المتخشبة المعهودة لنا، وعندما تنضج الثمرة وتلتقط من فوق الأرض يلقى بما فيها من اللبن ولكن اللباب يبشر وتصنع منه الفطائر، ولزبدة جوز الهند، وهي المادة الدهنية المستخرجة من لباب الثمرة، منافع منزلية عديدة، وهي الأساس الذي يتخذ منه جميع أنواع "المروخ".

وقد قيل إن مساحة تتراوح بين فدانين وعشرين فداناً من أرض جوز الهند الجيدة في جزيرة تبلغ ضعف المساحة المذكورة تكفي جماعة من الناس يبلغ عددهم مائة نفس، فإذا توافر لهم إلى جانب ذلك متسع من الشطوط المرجانية يستطيعون ارتيادها وقت الجزر لجمع الأسماك منها كان ذلك مما يجعل حياتهم ميسرة. وفي هذه الأيام تشق كميات كبيرة من جوز الهند، وبعد أن يجفف لبابها الأبيض- وهذا يكون غالباً في أفران كبيرة- يتحول إلى تلك المادة الزكية الرائحة المعروفة في الأسواق باسم زبدة جوز الهند، التي يأخذها التجار في مقابل بضائع أوروبية. ولكن هذه التجارة قد أصبحت الآن أقل ازدهاراً مما كانت منذ بضع سنين.

وقد كانت الحياة الحيوانية معدومة في هذه الجزر فيما عدا الوطاويط والطيور، وفيما عدا قليلاً من الأوبوسم Opossum الذي كان يعيش على الأشجار في بعض أنحاء ميلانيزيا، وبقيت الحال كذلك حتى أدخل الإنسان إليها الكلاب والخنازير والدجاج، وأدخل كذلك- على غير قصد منه- الجرذان. وقد أدى انعدام الحياة الحيوانية إلى أن صار السكان زراعيين وصائدي أسماك. ويعتمد سكان السواحل في الجزر الكبرى على صيد السمك في المكان الأول، بينما يعتمد سكان المناطق الداخلية على الزراعة. ومن المعروف أن "مصايد الأسماك كانت دائماً مهد للملاحين"، وسنرى بعد قليل أن كثراً من أهل تلك الجزر كانوا من كبار الملاحين.

وبين شعوب البحار الجنوبية شبه كبير في طرق الحياة وفي الحرف، رغم الاختلاف في الجنس وفي التربة وفي البنية الجسمية. وقد يكون هذا راجعاً إلى التشابه في نوع المناخ السائد في ذلك الإقليم الشاسع. على أن بينهم اختلافات كثيرة في التفاصيل.

ولمعظم سكان جزر البحار الجنوبية مهارة في فلاحة الأرض، مع أن أهم أدواتهم الزراعية لا تتعدى عصا يستعملونها في الحفر. ويشترك الرجال والنساء في أعمال الفلاحة. ولا تخلو أكثر الجزر جدباً من قليل من نخيل جوز الهند، بينما لا يترك في بريطانيا الجديدة شبر من الأرض من نخيل دوز الهند، بينما لا يترك في بريطانيا الجديدة شبر من الأرض دون أن يستثمر في الزراعة وفي كاليدونيا الجديدة وجزر بانكس حدائق تقوم على ماء الري، ولأهل فيجى عبقرية في إنشاء قنوات قد يبلغ طول الواحدة منها بضعة أميال، وقد تمر فوق المنخفضات والأغوار السحيقة لتوصيل الماء إلى حيث تقوم مزارع التارو (Taro). وفي بعض جهات بولينيزيا يصبح ري أحواض التارو أمراً ضرورياً بسبب قلة ما يسقط هناك من المطر. ومن المناظر المألوفة في بعض الجزر المرتفعة مناظر المدرجات ذات الشطوط الصناعية فوق السفوح المنحدرة. وفي فيجي مثلاً يبذل الناس جهداً كبيراً في إقامة حوائط حجز الماء حول الأحواض أو المدرجات الواقعة على سفوح التلال. "وتتعاقب هذه الأحواض واحداً في إثر واحد، ويتراوح انخفاض كل واحد منها عن الذي قبله من أربع بوصات إلى عدة أقدام، وذلك حسب انحدار البقعة".

وتتناثر مزارع القرويين الساحليين غالباً في مساحات شاسعة خلال الأحراش المحيطة بقراهم، وكثيراً ما تمتد من الشاطئ إلى ارتفاع عظيم. وعلى الرجال إعداد الأرض للزراعة، فتقطع الأشجار وتقتلع من الأرض جذورها ويحرق ما ينمو بينها من شجيرات ومن أعشاب. على أن المتبع في بعض جزر سليمان أن تنزع قشور الأشجار الكبيرة لتجف وتموت وتترك قائمة لتكون دعامات لنبات الصرغم، وبعد ذلك "تخرط" الأرض إذا لزم الأمر، وطريقة ذلك في فيجي أن يحفروا بعصيهم حول قطعة من التربة يبلغ قطرها نحو مترين ثم يستخدمون عصيهم في رفع هذا الجزء من التربة يبلغ قطرها نحو نترين ثم يستخدمون عصيهم في رفع هذا الجزء من التربة وجعل أعلاه أسفله. ويأتي الأولاد بعد ذلك ويمسكون عصياً قصيرة يضربون بها ذلك الجزء حتى يتكسر وحينئذ يتناولونه بأيديهم سحقاً. ولا تزرع البقعة الواحدة من الأرض إلا مرة واحدة و مرتين ثم تهجر، ولا يعودون لزراعتها مرة أخرى قبل ثماني أو عشر سنوات، وحينئذ لا بد من قطع أشجارها مرة أخرى وإعدادها للزراعة من جديد، ولكن ما يكون قد نما فيها من أشجار ومن أعشاب لا يكون في كثافة ما ينمو بالأرض البكر. ومثل هذا النظام الزراعي يستلزم ماسحة كبيرة من الأرض لتكفي عدداً قليلاً من السكان.

وأهم ما يزرعه الميلانيزيون جوز الهند والموز وقصب السكر والصرغم والتارو والبطاطا، على أن ثمار الخبز والساجو حاصلات هامة في بعض الأنحاء. وأهم ما يزرعه البولينيزيون إلى جانب جوز الهند ثمار الخبز والترو، وكلاهما من الحاصلات التي أدخلوها إلى بلادهم، كما

أنهم أدخلوا الأذرة والمانجو والبرتقال والليمون وغير ذلك من النباتات بعد ذلك بكثير.

والصرغم نبات شبيه في أوراق ومظهره بنبات العليق ولكنه يزرع من أجل درناته، وهذه ذات قشور سمراء داكنة وذات لب يشبه البطاطس ويتراوح وزن الواحدة منها بين رطلين أو ثلاثة إلى مائة رطل وذلك حسب نوعها. وهذه الدرنات- وهي تستطيع أن تبقى سليمة عدة أشهر- تؤكل مسلوقة أو مشوية أو مطهية على البخار. وزراعة الصرغم هي أهم ما يقوم به أهل ميلانيزيا من الأعمال، وحولها تتركز كثير من المعتقدات السحرية. ويقوم الناس كل عام بإعداد بقعة جديدة من الأرض لزراعة الصرغم، ولكن المعتاد أن يزرعوا في نفس البقعة فسائل الموز بمجرد جمع محصول الصرغم. وتحاط الحقول عادة بأسوار قوية لتذود عنها الخنازير، وإذا كانت الأرض مستوية حفرت بها قنوات مكشوفة لصرف الماء الزائد إذ أن الصرغم يحتاج إلى أرض جيدة الصرف. ولكل من الزرع والحصاد مواسم محددة، ولا تعزق الأرض لزرع الصرغم بل تكون التربة أكواماً صغيرة على أبعاد تتراوح بين ثلاثة أقدام وخمسة. ويزرع في كل كوم نبتة صغيرة أو تاج نبتة من نبات الصرغم، ويغرسون بجانب كل منها عصا أو خابوراً لسيند الساق الرفيعة الطويلة. وبعد خمسة أشهر تبدأ السيقان في الجفاف مما يدل على أن الدرنات قد نضجت وحينئذ يحفر الرجال الأرض لاستخراجها، ولكن هذه العملية لا تبدأ في بعض الجهات إلا بعد أن تقدم للأرواح قرابين من "بشائر المحصول". وتخزن الدرنات في أكواخ جيدة التهوية أو تحملها النساء في سلال كبيرة على ظهورهن

للتخزين بالقرية. ولا بد من التفتيش على الدرنات بين حين وآخر لإبعاد ما أصابه التلف منها ولإزالة ما يكون قد نما على سطحها من نباتات.

وهناك أنواع عديدة من الترو، وهو نبات يشبه الزنبق وأوراقه شبيهة بأوراق اللوف الضخمة، ودرناته التي يزرع من أجلها تختلف في وزنها من رطل واحد إلى اثني عشر رطلاً، وهي ذات لون أشهب ضارب إلى الزرقة وتشبه في شكلها وقوامها الصابون "المجزع"، وتؤكل مسلوقة أو مشوية، ولكن أهل بولينيزيا يطحنون الدرنات فتتحول إلى نوع من الدقيق يمزجونه بالماء ثم يتركونه حتى يتخمر. وهذه العجينة يسمونها بوا (Poi). وتصلح أوراق النبات أيضاً للطعام بعد تحضيرها بطرق شتى. والتارو • على خلاف الصرغم- عرضة للتلف، ولذلك يؤكل عقب اقتلاعه من التربة، وليس له موسم محدد للزرع ولكن يزداد الاهتمام به في بولينيزيا بعد موسم حصاد الصرغم. ولا بد للتارو من رطوبة كثيرة، ولهذا يجب ريه إذا زرع في جهات ذات مطر قليل. وفي بولينيزيا تغلب زراعته في أرض مدرجة ترويها قنوات متعرجة يسهل تحويلها. والتارو أقل إجهاداً للأرض من الصرغم، ولذلك يمكن زرعه مرتين متتاليتين في البقعة الواحدة. وطريقة إعداد الأرض لزراعته لا تختلف عن طريقة إعدادها للصرغم، غير أن شتلات التارو تزرع في صفوف بين كل واحد منها والذي يليه نحو قدمين أو ثلاثة أقدام، على أن المسافة بين كل شتلة والت تليها تقل عن ذلك كثيراً. وتحفر في الأرض (جور) عمقها نحو تسع بوصات، يوضع في كل منها قطعة رقيقة ينزعونها من قمة الدرنة مع ساق الورقة الملتصقة بها، وينزعون منها الأوراق ليحولوا دون فقد رطوبتها عن طريق التبخر.

ولا يحتاج النبات بعد زرعه إلى أي مجهود إذا استثنينا تنقية العشب من أرضه أحياناً، وهي عملية يقومون بها أثناء الجو المطير. وبعد نحو عشرة أشهر أو اثني عشر شهراً تكون الدرنات صالحة للحصاد، وهذه حقيقة يدل عليها جفاف الأوراق.

وثمار الخبز– وهو يلي التارو في الأهمية كمادة غذائية في بولينيزيا– يسمى عماد حياة بولينيزيا، وثماره المستديرة ذات اللون الأخضر في أول الأمر، والذي يتحول عند النضج إلى الأصفر الذهبي، يبلغ قطرها نحو ست بوصات وتغطيها قشرة خشنة نوعاً، وشجرتها عالية وارفة الظلال يزيدها جمالاً ما تحمل من الأوراق السوداء اللامعة ومن مئات الثمرات ذات اللون الأخضر الخفيف أو المائل إلى الصفرة. ويختلف موسم نضج الثمار حسب نوعها، ولهذا كان الحصول على الثمار الناضجة ميسوراً في كل آن. وتتكاثر الأشجار بريق الفسائل التي تنمو عند جذورها أو بطريق (العقل)، وهي تزرع بجوار المنازل أو على سفوح التلال التي تحول شدة انحدارها دون زراعة التارو، وتبدأ الشجرة في حمل الثمار بعد غرسها بخمس سنين وتستمر على ذلك خمسين عاماً.

ولا يأكل ثمار الخبز نيئة أبداً غير الخنازير، أما الأهالي فيتبعون في إعدادها للطعام طرقاً شتى، فإذا كانوا على سفر فهم غالباً يشوونها على الحجر ثم ينزعون قشرها ويأكلون لبابها... وأحسن طريقة لإعدادها وأكثرها ذيوعاً إنضاجها في فرن من الحجارة المحماة ثم نزع القشرة

وقطع الثمرة إلى ثلاثة أجزاء أو أربعة واستخراج اللباب منها.. وعندما تنضج يتحول قشرها إلى لون محمر جميل، وينخذ لبابها قواماً لحمياً شبه شفاف ولوناً أبيض أو ضاربا إلى الصفرة، وهو في مجموعة يشبه منظر فتات صغير مصنوع من القمح؛ على أن الشبه بينه وبين الخبز يقتصر على اللون والحجم والتكوين، ولكن مذاقه غير واضح، وهو يميل غالباً إلى الحلاوة، وطعمه دقيقي نوعاً ولكنه لا يبلغ في ذلك مبلغ كثير من الخضروات الأخرى، وقد يقل في ذلك عن البطاطس الإنجليزية، كما يقل عنها أيضاً في مذاقها المستساغ، وهو حريف نوعاً ولا بأس به كخضار ولكنه لا يقوم مقام الإنجليزي.

ويحفظ ما زاد عن حاجتهم من الفواكه بطرق شتى، وتعتبر ثمار الخبز من أهم ما يتزودون به في أسفارهم البحرية.

وتوجد إلى جانب الفواكه والدرنات التي ذكرناها أنواع عديدة من الأشجار تمدهم بأصناف أخرى من الأطعمة، ومن ذلك أشجار الموز وهي أهمها جميعاً، وثمارها الناضجة تؤكل دون طهي، فإذا كانت فجة أكلت مشوية على النار أو طهيت بعد خلطها بزبدة جوز الهند وعصير قصب السكر فتتحول إلى نوع من الفطائر؛ وتستعمل أوراقها العريضة صحوناً وأغطية للموائد كما تستخدم في التغليف. وأكثرها ما تزرع أشجار الموز على جوانب الطرق، وفي مزارع الصرغم بعد جمع محصول. وهي تؤخذ فسائل وتغرس على بعد نحو ثمانية أقدام. وتؤتي الشجرة ثمارها بعد عامين أو ثلاثة من غرسها. ومن الأشجار التي لا بد

من ذكرها شجرة لوز الكاناريوم (Canarium almond tree) التي تنمو في ميلانيزيا وتعطي قدراً كبيراً من الثمار، ولإعدادها للطعام تنزع قشرتها الصلبة ثم تجفف على دخان النار وتضاف إلى أصناف الرصغم والتارو فتكسبها مذاقاً شهياً لولاه ما كانت تستساغ. وكذلك يوجد في ميلانيزيا تفاح الملايو وشجرة السو (Su'e tree) التي يؤكل ثمرها وورقها وزهرها جميعاً، ونخيل الأريكا (areca palm) الذي يتكاثر تلقائياً وينتشر في مساحات واسعة. وتعتبر بساتين جوز الهند والأريكا ملكاً للأسرة، ويقوم أفرادها جميعاً بالعناية بها وتنقية الأعشاب من أرضها واقتلاع الزائد منها من شجيراتها واقتسام ثمارها. أما ما عدا ذلك من الأشجار فإنها ممتلكات فردية تؤول بعد وفاة صاحبها إلى ورثته.

وثمرة نخيل الأريكا ذات الحجم الصغير واللون الأصفر تمضغ مخلوطة بأوراق فلفل الطامبول (betel pepper) والجير الذي يحصلون عليه من المرجان المحروق، وهذا المخلوط مغذ ومنبه معاً، وهم يتناولونه عقب كل طعام، كما يتناولونه في أوقات مختلفة من النهار وفي جميع الاحتفالات. وعادة مضغ الطامبول- كما يسمونها- منتشرة في جنوب الهند وفي إندونيسيا وفي كل مكان عدا جنوب ميلانيزيا، ولكنها غير معروفة في بولينيزيا. أما البولينيزيون فيستخرجون من جذور عدة أنواع من الفلفل قريبة الشبه بالأنواع التي يمضغ الميلانيزيون أوراقها، شراباً منبهاً ذا خاصية مخدرة نوعاً يسمونه كافا Kava. ولتحضير هذا الشراب تمضغ الجذور جيداً ثم يتفل العصير واللب في إناء من الخشب، وبعد ذلك يقلب هذا الخليط بالماء ويصفي. ويقتصر شرب الكافا في الغالب

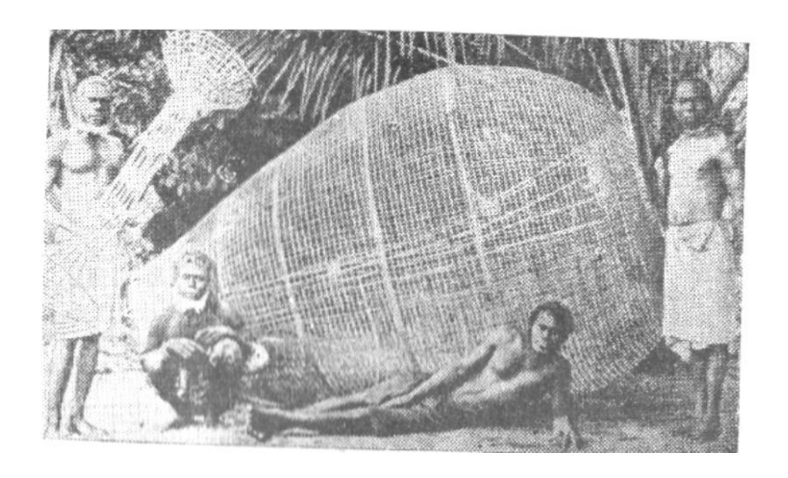
على المناسبات السعيدة، وتمر الكأس التي تحتويها على القوم من شخص إلى آخر بالترتيب الذي يتفق مع مركزهم الاجتماعي، وذلك بعد أن يريق الزعيم قليلاً منه على الأرض تقرباً إلى الآلهة.

وقد استبدل البولينيزيون الذين هاجروا إلى نيوزيلندا، بالصيف الدائم الذي يسود المناطق المدارية مناخاً أكثر برودة ورطوبة، ونقلوا معهم التارو والصرغم، ولكنها لا يجودان إلا في أكثر الجهات دفئاً أي في الطرف الشمالي من الجزيرة الشمالية، وحتى البطاطا لا يلائم معظم الجزيرة الجنوبية نموها، وعلة ذلك اضطر الماروي الذين استوطنوا تلك الجزيرة إلى الاعتماد على جمع الحاصلات البرية، وصار غذاؤهم يتألف في الأغلب من درنات نباتات سرخسية صالحة للطعام. ولا يبدو أن أحداً قد أدخل شيئاً من الدجاج أو الخنازير إلى نيوزيلندا التي كانت الحياة الحيوانية بها ضئيلة للغاية، على أن الماروي قد دأبوا على صيد الموا (moa)– وهو طائر يشبه النعام– حتى فني عن آخره.

ويمد البحر هؤلاء الناس بقسط وافر من الرزق، بينما في الجزر الواطئة يصبح السمك أهم عنصر غذائي، إذ يصعب فيها زرع ثمار الخبز. وتخرج النساء وكبار البنات حاملات العصى ويجمعن من على شطوط الغدران الاستاكوزا (lobsters) وأبو جلمبو (عقرب الماء) والجنبري وسمك المحار وقنفذ الماء (الرتزه) والأخطبوط. وللرجال وحدهم حق الصيد بالقوارب. ويصاد السمك بطرق عديدة، بالأيدي وبالصنانير وبالفخاخ والخيات، وبالسلاسل والمصائد، وبالحراب التي قد

يكون لكل واحدة منها خمسة رؤوس، وبالشباك ذات الأشكال والأحجام المختلفة، وبالأقواس والسهام، وبالتخدير بنوع من السم النباتي يلقي به في الغدران التي ينحسر عنها الماء وقت الجزر. ويصنع خيط الصنارة (الذي قد يصل طوله إلى ستمائة قدم) من النباتات الزاحفة التي تنمو بالغابة، يجد لونها بعد أن تجف، وكثيراً ما يثقلون الخيط بحجارة يثبت كل منها في الخيط بطريقة تجعل من السهل انفصاله عند ما "تعالج" السمكة الطعم. وينحت الشص بمهارة فائقة من أصداف السلاحف ومحار الأسماك، ويختلف شكله باختلاف نوع السمك الذي يراد صيده، ولكن أنواع الصنانير المصنوعة محلياً قد اندثرت وحلت محلها أنواع مصنوعة في الخارج. وللفخاخ أشكال وأحجام عديدة، وتستعمل محلها أنواع مصنوعة في الخارج. وللفخاخ أشكال وأحجام عديدة، وتستعمل الصغيرة منها في الغدران والمياه الضحلة، أما الكبيرة- كتلك التي يستعملها أهل بريطانيا الجديدة- فتصنع من القصب الملفوف المجدول بأغصان الراتان لتمسكه بعضه إلى بعض. وبعض هذه الفخاخ يصل طوله إلى عشرة أقدام وقطره إلى ستة أقدام، وهي ذات فتحات في كلا طرفيها ينتهي كل منها إلى خرق يدخل منه السمك فإذا دخل استحال عليه الإفلات. ويبقى الفخ دائماً على عمق خاص تحت سطح الماء، وذلك بشده بحبل قوي مصنوع من دوالي الأشجار المفتولة يثبت أحد طرفيه بمرساة ثقيلة هي عبارة عن سلة مخروطية الشكل من الأغصان المجدولة تملأ بالحجارة الثقيلة، ويشد طرفه الآخر إلى جسم عائم. ويتردد صاحب الفخ عليه مرة كل يوم ويحصل منه غالباً على نحو خمسين سمكة في

كل مرة. وفي جزر ساموا وسوسيتي وغيرها تقام حواجز متقنة الصنع من الحجر وفخاخ لصيد السمك.

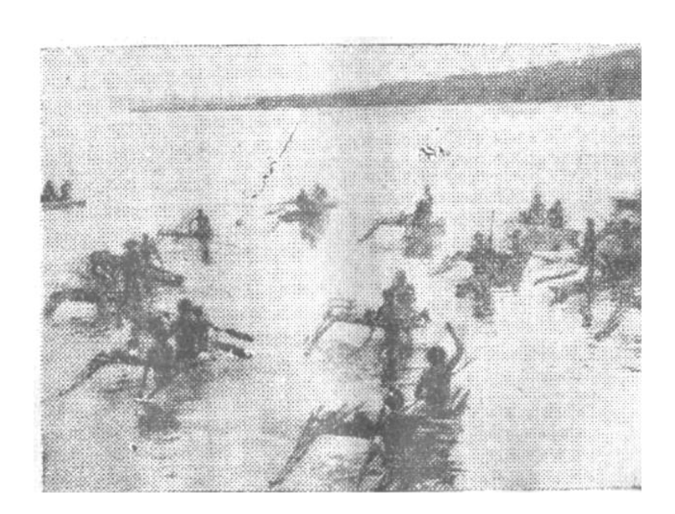


(شكل ٦١) مصيدة لصيد السمك يستعملها أهل بريطانيا الجديدة

وصيد البونتيو Bnito– وهو سمك لا قشر له ذو لون أزرق فضي وتزن الواحدة منه بين ثمانية أرطال وعشرة– رياضة مثيرة وخطرة. ويصاد هذا السمك بالصنانير، ويجلس صائدوه القرفصاء في مقدمة فلائق خاصة وفي مؤخرتها. ويصنع شص الصنارة من أصداف السلاحف، ولا يوضع به طعم ولكنهم غالباً يجفونه بريش يلصق على نموذج لسمكة صغيرة مصنوع من صدف اللؤلؤ. ويعتقد سكان جزر سليمان أن لسمك البونيتو خاصية مقدسة، فهم من أجل ذلك يحجزون الأولاد فترة من الزمن حجزاً منفرداً في مساكنهم فوق القوارب قبل السماح لهم بممارسة صيده.

وتصاد البالولو Palolo وهي دودة بحرية تطفو على سطح المياه

الساحلية في مواسم مختلفة لتتوالد، ولكنها تظهر دائماً في نفس الموسم من كل عام، وتصاد برفعها من الماء بسلال خاصة، وهي تؤكل نيئة كما تؤكل مطبوخة، ولكن القدر الأكبر مما يصيدون يجفف أو يدخن على النار ويحفظ ليؤكل بشهية. وطرقة الصي بالحدأة (Kite) [٢٢]– وهي طريقة شائعة الاستعمال في الجنوب الشرقي من غينيا الجديدة– تستعمل أيضاً في جزر سليمان لصيد سمك (الجار) garfish، وهم يعمدون في ذلك إلى (الحدأة) فيطلقونها من أحد القوارب بحيث تجر (الغماز) على سطح الماء، فإذا علقت أسنان سمك (الجار) في النسيج العالق بالغماز شدوا الحدأة إلى القارب وأمسكوا السمك.



(شكل ٦٢) قوارب ذات عوامات جانبية

تجر (الغماز) على سطح الماء، فإذا علقت أسنان سمك (الجار)

([٢٢]) الحدأة (Kite) طافية من الخشب ذات شراع ضيق عال تنزلق على سطح الماء مع الريح وتستعمل في جر الشباك وأحياناً في جر صغار القوارب.

في النسيج العالق بالغماز شدوا الحدأة إلى القارب وأمسكوا السمك.

ويصيد بعض البولينيزيين القوبع (ray) الضخم بالحراب ذات الرؤوس القابلة للانفصال، وكثيراً ما يصيد سكان جزر البحار الجنوبية السمك بالحراب على ضوء المشاعل، كما يصيدون (القرش) (Shark) بالخيات والمحاجن (clubs). والسلاحف صيد محبوب يسعون وراءه ويبذلون في ذلك جهداً، وإذا شاهدوا على سطح الماء سلحفاة هرع إليها الرجال في قارب وغاص بعضهم تحتها وقلوبها على ظهرها فتصبح لا حول لها ولا حيلة. وفي بريطانيا الجديدة وبعض الجزر الأخرى تصاد السلاحف عادة عند ما تقصد إلى الشاطئ لتبيض، ومن عادتهم أن يكون لزعيم الصيادين في كل قرية حق رياسة حملات الصيد، وهي حملات كثيراً ما تذهب إلى شواطئ نائية.

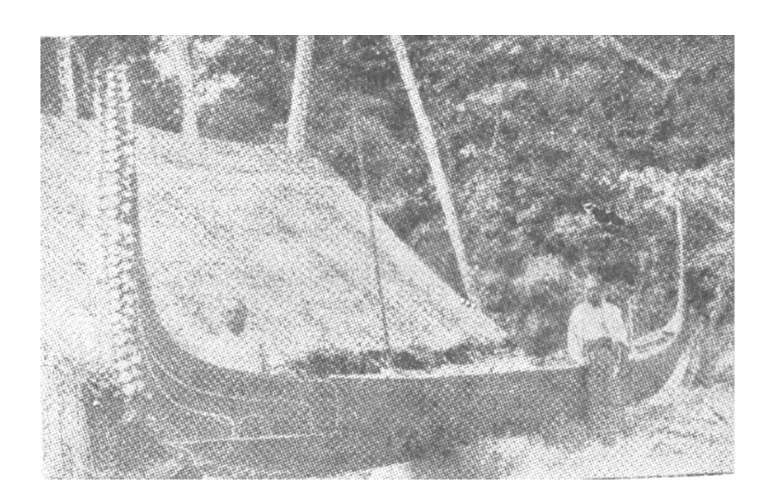
ويصنع سكان جزر البحار الجنوبية قوارب مختلفة الأشكال والأحجام. وتستعمل لحمل البضائع عبر الغدران أرماث بسيطة الصنع من القصب تدفع بالمزاريق أو بأيدي رجال يخوضون في الماء، أو قد تجرها (الحدأة). على أن أكثر الأنواع انتشاراً في الصيد نوع صغير من الفلائق يثبت له (موازن) واحد في أحد جانبيه، وهذا النوع يشاهد في كل مكان عدا بعض جزر سليمان، وتحفر هذه الفلائق من كتل الخشب المتين، بالنار والقدوم، وكان القدوم فيما مضى يصنع من الحجر، بينما في الجزر التي كانت تخلو من الأحجار الملائمة كان القدوم يصنع من المحار. وكان الإزميل العادي والإزميل المدور الشفرة يصنعان في الغالب

من الأجزاء المتينة من العظام البشرية. ويستخدم (الموازن) ليوازن القارب الضيق، وهو (عوامة) من الخشب الخفيف أقصر في العادة من القارب نفسه، تثبت فيه بثلاثة قضبان أو عروق من الخشب تشد حول القارب وتبرز في كلا جانبيه إلى الخارج ثم تنحني إلى أسفل حيث تمسك بالعوامة أو تثبت فيها بواسطة عصى قصيرة.

وتستعمل في التجارة وفي الحروب قوارب أكبر من هذه تستطيع قطع مسافات طويلة في بحار خارجية، ويراعى في القوارب المعدة للتجارة القدرة على حمل مقادير كبيرة من البضائع. وقد كانت بعض قوارب تاهيتي يزيد طولها على سبعين قدماً، بينما بلغ طول قارب من قوارب الماوري قاسه كابتن كوك سبعين قدماً تقريباً وعرضه ثمانية أقدام وعمقه ثلاثة أقدام وست بوصات. وحيثما كان من الصعب الحصول على كتل من الخشب تبلغ هذا القدر من الطول كان القارب يصنع من جذعين من جذوع الأشجار أو ثلاثة تقطع نهاياتها بحيث يركب طرف كل واحد منها على طرف الآخر بإحكام، ثم تربط الأطراف بعضها ببعض بحبال تمر من خروق يخرقونها بمخزار من العظم أو من المحار، وبعد ذلك يسدون الخروق الناتجة سداً محكماً بمزيد من النباتات.

وفي بريطانيا الجديدة وجزر أدمرلتي ونيوزيلندا وغيرها، كثيراً ما يزيدون في عرض الفليقة وارتفاعها بإضافة عوارض جانبية أو أطواف خشبية تمنع طغيان الماء؛ وتثبت العوارض إلى الفلائق بحبل غليظ من النباتات بطريقة مشابهة لما ذكر آنفاً وتسد الخروق كذلك بألياف ومزيج

نباتي، وتثبت العوارض إلى جانب الفليقة في أغلب الأحوال دون أن تركب جافة إحداها حافة الأخرى. وكان من عادة الماروي تغطية الخروق بقطع صغيرة من الخشب تربط إلى نفس الحبال التي تمسك الأطواف الخشبية بالفليقة، وهذه الأطواف التي توضع على جانبي الفليقة لتعلية حافتها قد تكون من الطول بحيث تصل من مقدمتها إلى مؤخرتها، حتى ولو احتاج الأمر إلى وضع عدة عوارض بعضها بامتداد بعض. وكثيراً ما تضاف إلى الفليقة من الأمام والخلف ألواح مثبتة بطريقة خاصة تحل محل الأطواف التي تمنع طغيان الماء، وهذه تغطى في بعض الأحيان مقدم السفينة ومؤخرتها. ولبعض قوارب تاهيتي في المقدمة أعمدة ترتفع إلى علو ١٥ قدماً أو ١٨ قدماً مزخرفة بأشكال محفورة فيها، وكذلك قوارب الماروي كانت لها مقدمة عالية مزخرفة بنقوش كثيرة محفورة، كما كان لها عمود آخر عند مؤخرتها.



(شكل ٦٣) نموذج للقوارب الت يستعملها أهل جزر سليمان

وتوجد– أو كانت توجد– في بعض جزر سليمان وفيجي وجلبرت وسوسيتي Society وساموا قوارب من ألواح خشبية وليس بها إلا القليل أو ليس بها أي أثر للجذوع المجوفة؛ وكانت الألواح تثبت بعضها إلى بعض بعد أن تقطع بالقدوم إلى الطول والسمك المطلوبين وبعد أن تمسح وتلمع بكتل من المرجان، وبعد ذلك تسد الخروق والفتحات بمعجون نباتي يحول دون تسرب الماء إليها. ولم يكن أهل جزر سليمان يركبون للقوارب المصنوعة من الألواح عوامات جانبية (outriggers)، وكانت هذه القوارب تبدو رشيقة بمقدمتها ومؤخرتها العاليتين المنحنيتين اللتين تعلوهما نقوش كثيرة محفورة فيهما واللتين تطمعان بأصداف اللؤلؤ، وعلى جانبي مقدمة القارب كانت ترسم أشكال بدائية أو تحفر نقوش تمثل العين البشرية، إذ يعتقد الوطنيون أن رسم العين يهدي القارب إلى طريقه أثناء السير، لكن الحقيقة أن هذه العقائد بقايا معتقدات قديمة جداً. ويزيد طول بعض القوارب على ٣٥ قدماً وعرضها على ثلاثة أقدام، وبها مقاعد تكفي لجلوس اثني عشر رجلاً يجدفون. وتتسع بعض القوارب الحربية لخمسين شخصاً أو يزيد. وتحفظ القوارب في مكان يسمونه "منزل القوارب" هو في العادة أظهر مكان في القرية، وهو مبنى طويل شيق يرتكز سقفه على "عرق" طويل ينوء بثقله فينحني إلى أسفل ويصبح شبيهاً بظهر الحصان، وتحفظ في نفس البناء كذلك رءوس رجال يغطيها الدخان، وأيد محنطة وعقود مصنوعة من فقرات السلاسل البشرية.

ومن العادات الشائعة في فيجي وكاليدونيا الجديدة وجزر سوسيتي

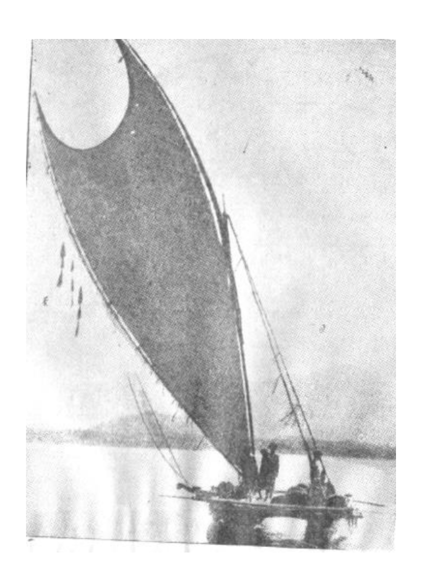
وساموا أن يربط قاربان من القوارب الكبيرة بقطعتين من الخشب طول كل منهما نحو قدمين يقام عليهما رصيف عريش أو مظلة من أي نوع "وحينئذ يبدو الهيكل جميعه شبيهاً بالطوف، سواء في مقدار حمولته أو في قدرته على الثبات فوق الماء، على أن مقاومته للماء لا تزيد على مقاومة القاربين".

وهذه القوارب المزدوجة الهائلة الحجم التي نشاهدها في ساموا بحجراتها المسقوفة بالقش والمشيدة فوق أرصفتها، والتي بطل استعمالها الآن بسبب صعوبة السيطرة عليها، كانت فيما يقال تتسع لنقل قرية بأكملها.

وفي التيبوكي أو القارب المفرد الشراع الذي يستعمل في سانتا كروز كانت الفليقة (تقلفظ) فتصير عوامة ذات سطح متسع يشاد فوقه كوخ يتقي به الرجال حرارة الشمس. وكانت هذه السفن التي تصعب السيطرة عليها ذات شراع عجيب الشكل تجدله النساء، وذات دفة يدوية يحركها مجداف طويل.

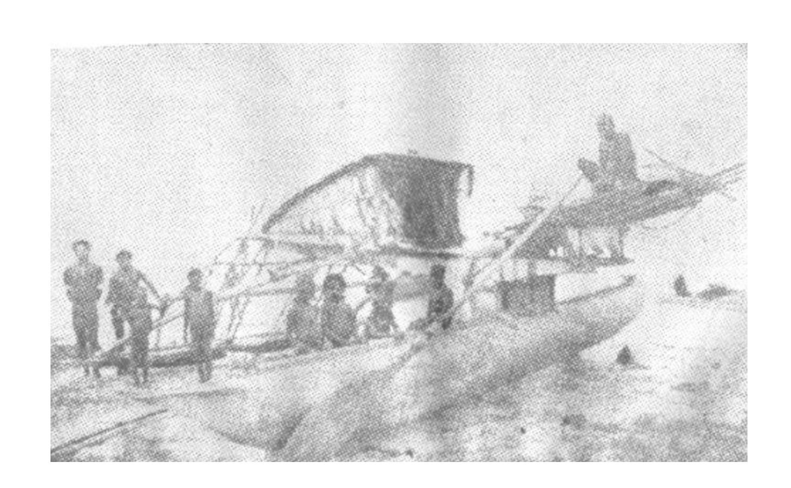
وقد ذكر كوك أن بعض قوارب سكان نيوزيلندا تتسع لستين أو ثمانين أو مائة شخص. وفي سنة ١٨٢٠ شاهد كروز (Cruise) أسطولاً من ثمانين قطعة من هذه السفن كان كثير منها يصل طوله إلى سبعين أو ثمانين قدماً، وقليل منها كان طوله أقل من عشرة أقدام، وقد ذكر أيضاً أنه رأي واحدة منها طولها أربعة وثمانون قدماً وعرضها ستة أقدام وعمقها خمسة، محفورة كلها من قطعة واحدة من الخشب ولها مجاديف وبها

ثلاثة من رؤساء النوتية، وكانت تمخر العباب بسرعة مدهشة جعلتها تثير زبد الماء على كلا الجانبين.



(شكل ٦٤) قارب مزدوج

وكان طول كثير من قوارب "طونجا" المزدوجة يبلغ مائة قدم وكان بها شراع كبير مثلث الشكل وكوخ أو "كابين" على سطحها. ورأى كوك أسطولاً من مائة وستين قارباً مزدوجاً كبيراً في تاهيتي عدا مائة وسبعين قارباً أصغر منها. وفي ساموا كان يصل طول كبار القوارب المزدوجة أحياناً إلى أكثر من مائة قدم.



(شكل ٦٥) القارب الذي يستعمل في سانتا كروز

ويملك بعض الزعماء– أو كانوا يملكون– أساطيل كبيرة من السفن. وكانت القوارب الحربية في تاهيتي ذات سطوح تتسع لخمسين من الرجال المحاربين، وتزخرف بأعلام من الجديل الملون والريش، ولكل قارب اسمه الخاص، ولم يكونوا يستعملون السكان (الدفة)، ولكن الرجل المنوط به توجيه القارب كان يجلس في مؤخرته وفي يده مجداف كبير يستعمله لهذا الغرض. وكانت القوارب تسير بالمجاديف وبأشرعة مثلثة الشكل مجدولة من ورق الباندانا (ومن السمار في نيوزيلندا)، وكانت سارياتها غي مثبتة، ولا تنصب إلا عند استعمال الشراع.

والبولينيزيون أمهر في الملاحة كثيراً من الميلانيزيين الذين لا يميلون إلى القيام بأسفار بحرية طويلة، والواقع أن البولينيزيين من أكثر الملاحين القدماء إقداماً، وقد ذرعوا بقواربهم المزدوجة الكبيرة ملايين من الأميال المربعة من سطح المحيط الهادي في مدى بضعة قرون، حتى لقد وصلوا

إلى المحيط المتجمد الجنوبي، وكانت أقصى نقطة وصلوا إليها ناحية الشرق جزيرة إيستر التي تقع من بلادهم على مسافة تبلغ ثلاثة أرباع عرض المحيط، على أن هناك من يعتقد أنهم وصلوا فعلاً إلى شواطئ أمريكا.

وكانت الأسفار إلى البلاد البعيدة تهدف إلى المتاجرة والمقاتلة والترحال والكشف. ومما يجعل هذه الرحلات جديرة بالملاحظة أنهم لم يكونوا يعرفون البوصلة البحرية ولا آلة السدس ولا التقويم البحري ولا الكرونومتر، ومع ذلك كانوا يعرفون كيف يوجهون سفنهم بالانتفاع من انتظام الرياح التجارية ومن ارتفاع النجوم فوق الأفق. وقد استخدموا لتسجيل خطط عرض الأماكن ما يسمى "البندقة المقدسة" وهي ثمرة كبيرة من فصيلة، القرع يقطعون جزءها العلوي ويثقبون فيها ثقوباً أربعة على أبعاد متساوية وعلى مسافة خاصة من الحافة، بحيث إذا نظر الراصد خلال أحد الثقوب إلى الحافة المقابلة كانت الزاوية الناتجة مساوية لارتفاع النجم القطبي، أي مساوية لخط عرض المكان. وكانت "القرعة" تملأ بالماء وقت الاستعمال، ويتطلع الراصد خلال الثقب إلى النجم القطبي حتى يراه على الحافة مباشرة، أي حتى يرى النجم "يلثم شفتي البندقة المقدسة"، وحينئذ يعرف أنه قد وصل إلى خطط العرض المطلوب.

والبحر هو الطريق الذي يسلكه هؤلاء الناس في تنقلاتهم، وبذلك أصبحت الجزر مراكز للسكنى، ثم صارت فيما بعد قواعد اكشف

جهات أخرى. وكانوا كلما أوغلوا صوب الشرق وجدوا الجزر أصغر والحياة الحيوانية والنباتية أقل، ولكنهم عادة يأخذون معهم الخنازير والطيور وصغار النباتات الصالحة للطعام، وبهذه الطريقة انتشرت في أرجاء المحيط الهادي أشجار ثمار الخبز وجوز الهند والموز والبطاطا والتارو والصرغم وغيرها. وكانوا إذا اعتزموا السفر يقد الكهنة القرابين للآلهة ويختزن الرجال في القارب قرعاً طويل الرقاب مملوءاً بالماء وعجين البوا (poi) ملفوفاً في أوراق الأشجار وفواكه من جميع الأنواع، وكانوا يضعون في "الكابين" المشيد على سطح القارب كانوناً مملوءاً بالرمل والحجارة التي تستعمل في الخبيز؛ وكانت السفن تنتشر أثناء النهار في مسافة واسعة حتى لا تفوتها جزيرة مهما كانت صغيرة؛ وأهم الجزر التي كانت مراكز للرحلات هي ساموا وسويتي (Society).

"وفي الرحلات من تاهيتي إلى نيوزيلندا، وهي رحلات كانوا يقومون بها كثيراً، كانوا ينحرفون إلى راراتونجا في أرخبيل كوك، ومنها يولون وجوههم شطر نيوزيلندا، وهي مسافة ألف وستمائة ميل. وكانت هذه الرحلة تم في ديسمبر حيث تكون الرياح التجارية مواتية، ومنها يعودون في يونية، وكانت السفرة الواحدة تستغرق نحو أسبوعين، ولكن كان من المستطاع إتمامها في أقل من ذلك إذا كان اتجاه الرياح ثابتاً وكانت السفن تعرج في مثل هذه الرحلات على جزيرة صندي (Sunday) ولكن صغر هذه الجزيرة يدعو إلى الاعتقاد أنهم لم يكونوا في مثير من الأحيان

يعبأون بالتعريج عليها[٢٣].

ومن أعظم الملاحين البولينيزيين كوبيه (Kupe) الذي خرج على رأس عدد قليل من الملاحين قبل موعد الرياح التجارية ورسم خريطة لنيوزيلندا وأثبت عروضها على "البندقة المقدسة" ثم عاد إلى هاوايكي ليصدر تعليماته إلى أسطول المهاجرين الضخم الذي أقلهم إلى نيوزيلندا في سنة ١٣٥٠.

ولا يتسع المقام هنا للتوسع في سرد كل شيء عن سائر النواحي الثقافية لسكان المحيط الجنوبي، ولكن طرق الحياة عموماً تتشابه كثيراً، على أن التفاصيل تفاوت في أغلب الأحيان حتى إن أي جماعة من الجماعات قد تختلف طريقة حياتها اختلافاً كبيراً عن حياة جماعة أخرى تعيش على بعد أميال قليلة منها.

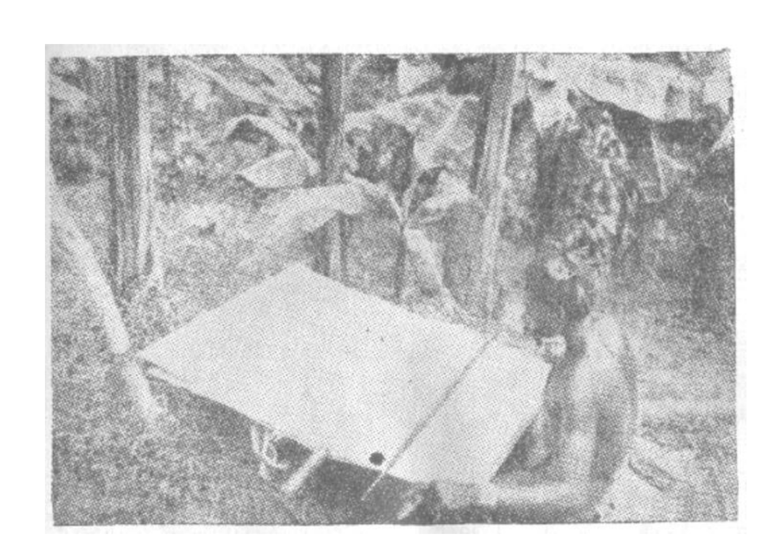
([23]) Forde. C. Daryll, Ancient mariners.

الفصل الثالث عشر

الزارعون وصائدو السمك البدائيون في البحار الجنوبية

٢- الميلانيزيون والبولينيزيون

يلبس الميلانيزيون قليلاً جداً من الملابس، ويلبس الرجال منهم إزارا للكشحين من نسيج من لحاء الأشجار تقوم النساء بصنعه، فيأتين بقطعة كبيرة من حجر ناعم ويضربن بع الغشاء الداخلي للحاء "توت الورق" "Paper-Mulberry" فيقطعنه إلى شرائح. وهذا النوع من النسيج أقل من نسيج التابا "Tapa" الذي يصنعه البولينيزيون. وتلبس النساء مئزرة من الألياف المدلاة يمسكها خيط مربوط حول الوسط. ولا تعرف صناعة النسيج في أي جزء من ميلانيزيا فيما عدا سانتا كروز وجزر الحاجز المرجاني. ويحصل أهل سانتاكروز على الألياف التي يصنعون منها الأكياس والحصير من الساق العصارية لشجيرات الموز، فتوضع الساق على لوح من الخشب وتضرب بمدقة خشبية ثقيلة حتى تتحول إلى .....



(شكل ٦٦) النسج على النول في سانتا كروز

.... عجينة، وحينئذ تكشط المادة النباتية وتعلق الألياف في الشمس لكي تجف؛ وبعد مشطها جيدا تصبح صالحة لاستعمالها على النول. وتلبس زوجات كبار القوم وبناتهم الحصر الكبيرة التي ينتجها النساجون، ولا يلبس الذكور من أهل سانتا كروز إلا حصيراً ضيقة يلبسونها على هيئة مريلة تتدلى من الأمام ومن الخلف وتثبت في مكانها بحزام من لحاء الشجر أو حبل مضفراً أو قصبة مفلوقة. أما الأكياس التي يلبسها جميع أهل سانتا كروز حول العنق فتنسج على النول، كما تنسج أيضاً الأشرطة التي يربط بها الرجال شعورهم الطويلة عند ما يسيرون قواربهم الكبيرة.

ومن الظواهر المشاهدة في هبريد الجديدة تشويه شكل الرأس، أما ثقب شحمتي الأذن والفاصل الأنفي فعادة شائعة. وعندما تثقب الأذن

توضع فيها شظية تصنع عادة من الخشب؛ وتظل الشظية تستبدل بها تدريجاً شظية أغلظ منها كي يزداد الثقب اتساعاً، حتى يصبح في الإمكان لبس شظية قطرها ثلاث بوصات أو يزيد. وتلبس في الأنف أنواع عديدة من الحلى؛ ففي جزر سليمان يلبس نوع من الدبابيس، وفي سانتا كروز شظية من أصداف السلاحف. ويصفف الشعر في بعض الجزر على شكل كتلة حول الرأس، بينما في جزر أخرى لا يتركونه يطول، ويف بعض الجهات يطلونه باللون الأبيض، ومن العادات الشائعة لبس الأمشاط في الشعر على سبيل الزينة، وأحسن أمشاط الزينة ما يشاهد في جزر سليمان وجزر أدمرلتي. أما الوشم فواسع الانتشار، بينما يمارس التشريط سكان كاليدونيا الجديدة وأيرلندا الجديدة.

ويلبس سكان البحار الجنوبية غير حلى الأذن والأنف أنواعاً عديدة من الأساور حول الساعدين وعقوداً ودلايات. وأساور الساعدين الكبيرة البيضاء التي تشبه الحجارة تستغرق في صنعها أسابيع من العمل في نحتها وتشكيلها من العظام الغليظة لسمك المحار الضخم. ويلبس الكروزي في ساعده أسورة من خيوط مصنوعة من لحاء الشجر، كما يلبس خرزاً من الصدف، فإذا كان ذاهباً إلى حفلة راقصة بلغ ما يلبسه منها ثمانية أو عشرة. وتتكون العقود من صفوف من الصدف ومن خرز وأسنان وحبوب، وتلبس على الصدر والجبين حلي من المحار وأصداف السلاحف وما أشبه ذلك؛ وبعض هذه الحلي مزخرف بنقوش بديعة الصنع.

ويسكن الملانيزيون دساكر وقرى تضم كل منها عادة جماعة قليلة العدد تملك الأرض بالمشاع وترتبط قرابة حقيقية أو اسمية. وتتقارب القرى بعضها من بعض في المناطق الخصبة، وفي هذه الحالة يقوم بينها كثير من المصالح المشتركة وتقوم القرى في الجهات الساحلية على الناحية المرتفعة من الشاطئ، أما حيث تشاد المنازل فوق أعمدة، كما هي الحال في إزابل بجزر سليمان، وعلى شواطئ فلوريدا وفي بريطانيا الجديدة وجزر أدمرالتي، فإن المنازل تمتد إلى داخل البحر. وفي المناطق الداخلية تقوم القرى في بقعة يطهرونها من الأدغال. وفي كل دسكرة أو قرية منزل فسيح يملكه الزعيم ولو أنه قد لا يقطنه، وفي بعض المناطق يكون هذا البناء منتدى، وحينئذ يكون مفتوحاً من الأمام ويصبح ملتقى الرجال أثناء النهار يستقبل فيه الزوار ويتمتعون بالضيافة، فإذا جاء الليل نام فيه الفتيان والشبان. ومنزل الزعيم دائماً أكبر من سائر المنازل وأعلى وأكثر زخرفة بكثير. وفي بعض قرى جزر سليمان تحفظ الطبول في منزل الزعيم، وهي كتل خشبية يثقبون في جانبها فتحة مستطيلة ويجوفونها من خلالها ويستعملونها للطبل في الحفلات والولائم وفي إرسال الإشارات، وهي تذكرنا بطبول أمزونيا وإفريقية الاستوائية. وفي القرى الساحلية بجزر سليمان يقوم منزل آخر كبير يصل طوله في بعض الأحيان إلى ستين قدماً هو منزل القوارب الذي سبقت الإشارة إليه. وفي هذه المنازل تقام الحفلات الخاصة برحلات صيد البونيتو، وفيها أيضاً يعزل الفتيان الذين يتلقون تعليمهم الخاص بصيد البونيتو. ومن هذا نرى أن القرية الواحدة في بعض جزر سليمان قد يقوم فيها منزلان للزعامة

كلاهما يؤدي خدمة عامة وكلاهما يشترك في إقامته أهل القرية جميعاً.

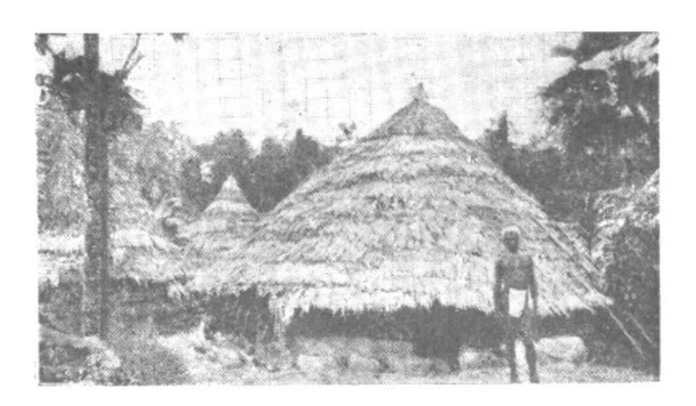
أما المساكن نفسها فتختلف كثيراً في أشكالها واتساعها؛ ففي بريطانيا الجديدة نجد مساكن جماعية كبيرة كما نجد أخرى مقامة فوق أعمدة (وقد سبقت الإشارة إليها) وكان بها كذلك في وقت من الأوقات مساكن تقام فوق الأشجار في بعض جهاتها. ومساكن كاليدونيا الجديدة وسانتا كروز وبعض جزر أيرلندة الجديدة مستديرة القاعدة، أما في غيرها فمستطيلة. وأحسن المساكن وأكثرها راحة هي مساكن بعض جزر سليمان التي يبلغ طولها نحو عشرين قدماً وعرضها نحو اثني عشر قدماً، بارزة سقوفها قليلاً عن حيطانها ومغطاة بجريد نخيل الساجو بعد أن يجدل بعوارض من قصب البامبو جدلاً متيناً بطريقة تجعله مانعاً لنفوذ الماء. وتتكون الحيطان من ثلاث طبقات من قصب البامبو كل منها مربوطة إلى الأخرى بالحبال ومقواة من الخارج بثلاث عوارض أفقية من الخشب. أما المدخل الصغير، الذي قد يكون أسفل المنحدر أو في واجهة الكوخ المثلثة الشكل، فيبلغ ارتفاعه من الأرض نحو قدمين يسده أثناء الليل باب متحرك من قصب البامبو، ويسود الظلام داخل الكوخ في كل الأوقات. وتربض بجوار الحوائط مصاطب النوم، وهي هياكل من .....



(شكل ٦٧) قرية في جزائر سليمان

..... الخشب مغطاة بجريدة النخل الملفوق. وأمام العمود الأوسط يقوم الكانون داخل دائرة من الحجارة، وعلى الحيطان تعلق بضعة أرفف مخصصة لخزن الصرغم، كما يوجد أعلى الكانون فرن يستخدم لتدخين الأطعمة وخزن الأدوات. وفي بعض المساكن يسدل على الجزء الخلفي من الكوخ ستار يفصله عن الجزء الأمامي ويجعل منه قسماً مستقلاً تقيم فيه النساء. وعلى العكس من هذا نجد أكواخ سانتا كروز، فإنها عادة مستديرة لا تختلف في شكلها عن خلية النحل تقوم على هيكل من قصب البامبو، وتشاد الحيطان الواطئة أحياناً من ألواح الخشب، ولكن الأغلب أن تكون– مثل السقف– مغطاة بأوراق نخيل الساجو ونخيل جوز الهند. وتثبت على قمة السقف قطعة من نوع خاص من المرجان، وتحاط قاعدة الكوخ بألواح من المرجان. وليس للكوخ سوى مدخل صغير، وليس فيه سوى متسع يستطيع المرء أن ينصب فيه قامته، إذ تبنى

في وسطه مصطبة كبيرة تقوم على أربعة أعمدة ضخمة يبلغ ارتفاعها نحو خمسة أقدام يخزن فوقها الطعام حتى لا يجد الفأر سبيله إليه. وفي أسفل المصطبة يوجد الفرن الذي يتسرب الدخان منه كيفما اتفق. وتخصص هذه الأكواخ لسكني الأزواج والأطفال، بينما يقطن الفتيان والرجال غير المتزوجين بيت الندوة الذي يبنى عادة على مسافة من الأكواخ ويختلف عنها قفي أن قاعدته مربعة الشكل. وتتكون .....



(شكل ٦٨) منزل في سانتا كروز

.... حيطانه عادة من ألواح من الخشب، بينما يستعمل قصب البامبو المفلوق لتثبيت هيكل الكوخ. ولهذا المنتدى عادة أكثر من مدخل وترتفع الأرض في داخله نحو قدم وترتكز على أساس من قطع المرجان الكبيرة، وتغطى بطبقة من الحصى تفرش فوقها حصر من أوراق جوز الهند. وترى على الحيطان أقواس وسهام ومجاديف وقرعات صغيرة معلقة لكي تجف، بينما تتدلى من قصبات البامبو المربوطة إلى السقف مآزر من الحصير وصنانير وشباك. وليس هناك أثر لأثاث، لأن الكروزي

يرقد على ظهره فوق الأرض ويضع رأسه على وسادة خشبية عليها نقوش بديعة الحفر. وفي دار الندوة يعيش غير المتزوجين ويستقبل الزوار، ولكن لا تدخلها النساء.

وسكان معظم الجزر يأكلون الطعام المطهي في المساء فقط بعد عودة النساء من المزارع، ولكنهم يتبلغون في أوقات مختلفة من النهار بشيء من جوز الهند أو بندق الأريكا أو بقايا الطعام المتخلفة من عشاء اليوم السابق. ويتكون الطعام من السمك وحاصلات المزرعة، وفي الأقل القليل مما يصيدون من الحيوان كخنازير الغابة والجرذان والخفافيش، ومن الطيور، وفي بعض الجهات من الأوبوسم (Opossum). ولحم الخنزير– وهو حيوان مقدس يهيم حراً طليقاً داخل القرية وحولها دون أن يتعرض له أحد– لا يؤكل إلى في الحفلات، وتؤكل اللحوم البشرية أحياناً في جميع الجزر عدا جزائر بانكس Banks وسانتا كروز، والذين تؤكل لحومهم هم الأعداء الذين يقتلون في الحرب.

ويطهى الطعام على الحجارة المحمية أو في أفران حجرية. وفي بعض الجزر يغلي في قدور أو أصداف. وفي جزر سليمان يبنى الفرن على قاعدة مستوية من الحجارة ثم يوضع فوق كوم من الحجارة أيضاً، وعندنا تخبو النار تزال الحجارة العليا وينظف الفرن ثم يوضع الطعام المراد طهيه على أرض الفرن الساخنة ويغطى بالحجارة الساخنة الأخرى وبالأوراق. وفي الجزر التي لا يعرف سكانها الفخار يطهى الطعام على حجارة محمية يمسكونها بماشات خشبية ويسقطونها في أوان من

الخشب. وتولد بطريقة "الحرث" أي بواسطة حك عصا من الخشب في أخدود محفور في قطعة أخرى من الخشب.

وتصنع أواني الطعام في الغالب من خشب محفور، وقد تكون ذات أحجام كبيرة، وأجدرها بالملاحظة تلك الأواني المطعمة التي تشاهد في جزر سليمان وهم يصنعونها في الغالب على هيئة طوير كبيرة، وكذلك الأوعية المزخرفة بأشكال بديعة محفورة فيها والتي تشاهد في جزر أدمرالتي. وهناك أوان من القرع ومن (عقل) قصب البامبو ومن قشور جوز الهند. ولا يصنع الفخار إلا في كاليدونيا الجديدة وهبريدة الجديدة وأمرالتي، ولكن سكان بعض الجزر الأخرى يحصلون على الأواني الفخارية من الملانيزيين سكان جنوب شرقي غينيا الجديدة الذين يذهبون إلى جهات بعيدة ليبادلوها بالأطعمة وغيرها من البضائع. ويحفظ الماء في أوان من قطع من قصب البامبو الغليظ طولها خمسة أقدام أو ستة بعد إزالة ما بها من العقد.

وقد بلغ الفن الزخرفي في تلك البلاد درجة عالية ولا سيما في جزر سليمان حيث يرسم الناس والطيور والأسماك بطريقة تقليدية إلى حد ما. أمال في هبريدة الجديدة وجزر بانكس وسانتا كروز فيغلب في الفن النظام الهندسي.

وأدوات الميلانيزيين بسيطة وقليلة العدد وأهمها القدوم أو البلطة ذات النصل المصقول المتخذ من الحجر أو من الصدف والذي يربط في الغالب بحبل من ألياف جوز الهند إلى يد من الخشب في طرفها

اعوجاج طبيعي. ويصنع النصل من الأصداف في هبريدة الجديدة وبانكس وسانتا كروز، على أن أبدع النصال الحجرية هي التي يصنعها أخل كاليدونيا الجديدة في حفلاتهم. وتصنع المخارز والأزاميل والملاقط من الحجر ومن العظام ومن الأصداف، ويصنع الكروزيون حبالاً من جلود سمك القوبع (Ray) الضخم. ومن الأدوات التي يستخدمونها في النحت صخور اللافا المتبلورة حيثما وجدت وأسنان سمك القرش، وكذلك يصنعون السكاكين من قصب البامبو المفلوق ومن الأصداف.

ويقوم هؤلاء الناس برحلات تجارية ترمي في الغالب إلى تبادل الهدايا، وتستخدم في الجزر المختلفة أنواع مختلفة من العملة، على أن العقود المصنوعة من أقراص الصدف- وهي المعروفة باسم "نقود ميلانيزيا الصدفية"- سائدة في كل مكان. وطريقة صنعها أن تكسر الأصداف حتى تأخذ الحجم المضبوط ثم تخرق بمخراز "وتلضم" في خيط من ألياف جوز الهند. وهذه العملة لا تخزن عند من يملكها بل تستعمل عقوداً للنساء وأحزمة للرجال. وفي كاليدونيا الجديد عملة من جدائل من جلد نوع ضخم من الخفافيش آكلة الثمار، وفي هبريدة الجديدة الشمالية من شرائط ضيقة طويلة من الحصير المجدول، وفي بعض جزر سليمان من أسنان نوع من الحيوان (porpoise) ومن الأصداف، وفي سانتا كروز من الريش. وهذه العملة الأخيرة تتكون من قطعة من الحبال "مبططة" طولها نحو ١٥ قدماً يثبت فوقها ريش أحمر يؤخذ من طائر يسمى "آكل العسل"، وهم يحتفظون بها ملفوفة ومغطاة لأن قيمتها تتناقص كلما تآكل الريش.

والميلانيزيون على العموم سريعو الغضب لا تنقطع الحروب بينهم، ويتم الصلح في بعض الأحيان بعد أن يدفع أحد الطرفين غرامة "مالية"، لكن إذا كان النزاع شديداً بين مجموعتين من القرى أو على الأخص بين زعماء مجموعتين منها فإن النزاع قد يبقى عدة سنين. وكانت الحروب فيما مضى تنشب على أثر إهانة علنية أو اتهام بالاشتغال بالسحر أو سرقة أشخاص للتضحية بهم على سبيل القرابين. وأسلحة الحرب الرئيسية عند هؤلاء الأقواس والحراب والنبابيت (clubs)، والأقواس هي أشهر الأسلحة عند كثير من سكان السواحل، ولكن بعضهم قد تخلى الآن عنها. وهي في كل مكان بسيطة الصنع. وسهامهم لا تراش أبداً، ولمنها تتفاوت تفاوتاً كبيراً في نوعها كما تتفاوت في عدد نصالها وفي المادة التي تصنع منها النصال. وفي جزر سليمان يصنع النصل من سلخة من حوض الساجو أو من العظام البشرية؛ وكذلك تختلف النبابيت في أشكالها من مجموعة من الجزر إلى أخرى، فهي في كاليدونيا الجديدة قد تكون ذات طرف مفلطح أو مدبب؛ وفي هبريدة الجديدة يثبتون في نهايتها عند المقبض شبه قرص يحول دون انفلاتها من اليد، وفي جزر سليمان كثيراً ما يغطى ساق النبوت بالليف المجدول؛ وفي بريطانيا الجديدة كثيراً ما يثبتون للنبوت رأساً من الحجر. وأحسن الحراب ما يصنع في جزر سليمان وهبريدة الجديدة، حيث يرشقون في ساقها أشواكاً مصنوعة من العظام. وفي كاليدونيا الجديدة يبردون أطراف السهام بأشواك سمك القويع كي تصير مدببة؛ وفي جزر أدمرالتي يركبون لها رأساً من اللافا البلورية؛ وفي بريطانيا الجديدة كثيراً ما يثبتون لها عند

الطرف الغليظ عظمة ساعد بشري. وتستعمل النبابيت في كثير من الجزر لاتقاء الضربات على أن الدروع تستعمل في جزر سليمان. وفي أوقات الحروب كثيراً ما يحتاطون ضد غارات الأعداء فيحفرون في الطرق المؤدية إلى القرية حفراً ينصبون فيها خوازيق حادة، ثم يغطون الحفرة بالعشب حتى لا يتبينها الأعداء.

وتتحكم في حياة الميلانيزي الروابط العائلية والاجتماعية أكثر مما تتحكم فيها واجباته نحو الزعيم. وهناك زعماء، ولكن هؤلاء، في بعض الجزر، ليس لهم من النفوذ إلا القليل. ويبدو أن أكثرهم نفوذاً زعماء كاليدونيا الجديدة وبعض أنحاء جزر سليمان؛ بينما في هبريدة الجديدة وجزر بانكس وفي أغلب جزر سليمان يدين الزعيم بمركزه عادة لحقيقة واحدة هي أنه وريث لعبادة روح من الأرواح القوية. وفي بعض المناطق، كما في سانتا كروز مثلاً، يوجد في لقرى رؤساء لا تتعدى سلطتهم المباشرة حدود قراهم، مع أن نفوذهم قد يمتد إلى أبعد منها. وهناك من هو أهم من الزعيم، وهي الجمعيات السرية مثل "ضك ضك" (Duck Duck) في بريطانيا الجديدة و"كواتو" (Quatu) في هبريدة الجديدة و"تاماتي" (Tamate) في جزر بانكس، وهكذا. وهي تتخذ لها منتديات في قلب الغابة. ويدعى أعضاء هذه الجمعيات أنهم قادرون على الاتصال بواسطة طقوس سرية، ويظهرون بين الناس وهم يلبسون الأقنعة والملابس الأنيقة (elaborate). وتقتصر عضوية الجمعيات على الرجال، ويتم الاشتراك بعد أن يدفع العضو رسوماً من عدد مناسب من الخنازير أو من مبلغ من "النقود الصدفية" وبعد أن يتلقى تعاليمها الخاصة التي قد

تنطوي على شيء من المعاملة الخشنة. ولا تمارس هذه الجمعيات عبادات خاصة، وكل ما يتعلمه العضو الجديد هو أن الأرواح إخوان له متنكرون، وأن الضوضاء التي يصنعها إنما تصدر عن الجعران (bull-roarer) وغيره. ولما كانت هذه الجمعيات تصدر أحكاماً ضد الذين يخالفون القانون كانت أداة فعالة في حفظ النظام.

ونظام الميلانيزيين الاجتماعي معقد تعقيداً كبيراً، ولا نستطيع هنا أن نعرض إلا لبعض مظاهره. فالوحدة الأساسية هي جماعة من العائلات ترتبط برابطة القرابة وتسكن دسكرة أو قرية واحدة وتمتلك مساحة خاصة من الأرض تزرعها. ولكا فرد حق امتلاك قطعة من الأرض خاصة به، ولكنه إذا أخلى قراحاً من الغابة ووضع يده عليه فليس له الحق في تملك ما قد يكون به من أشجار الفاكهة إذا كان غيره قد سبقه إلى إعلان ملكيته لهذه الأشجار. وليس للأرض عندهم ثمن إلا إذا كانت للمباني أو استعملت للزراعة. ولسكان القرية حرية التصرف فيما يكون حولها من الغابات، وليس في الغابة حدود دقيقة تفصل بين أملاك قريتين متجاورتين، ولذلك يتجول القانصون والجماعون حيث يشاءون ما داموا لا يفعلون ذلك بقصد التعدي.

والوراثة في بعض أنحاء جزر سليمان وبعض الجزر الأخرى تكون عن طريق الذكور، بينما هي عن طريق الإناث في هبريدة الجديدة وبانكس وبعض أنحاء بريطانيا الجديدة وأدمرالتي. وفي هذه الأخيرة تؤزل تركة الرجل عند وفاته إلى أبناء أخته ولا تؤول إلى أبنائه.

وتشاهد في كل مكان من ميلانيزيا بقايا لنظام الطواطم. ولا يكتفي معظم الرجال بزوجة واحدة، وقد يتخذ الرجل عدداً كبيراً من الزوجات إذا كان ثريا. وفي معظم أنحاء ميلانيزيا تعقد خطبة الأطفال في سن الطفولة المبكرة على أن يكون بين المخطوبين نوع من القرابة. ويتلقى والد العروس هدايا الزواج قبل العرس بزمن طويل.

ويمارس الميلانيزيون كثيراً من أنواع اللهو، وكثيراً من لعبهم وألعابهم لا تختلف إلا قليلاً عما لدى الأمم الغربية، "فالنحلة" مثلاً توجد في جزر سليمان و"طيارات الأطفال" في هبريدة الجديدة وجزر بانكس. ويعقد الرجال في معظم الجزر مسابقات في الجري والمصارعة، ويغرم أهالي جزر سليمان باللعب بالحراب، ويلعب أهالي هبريدة الجديدة لعبة شبيهة بكرة القدم، ويتسلى سكان االسواحل في كل الجزر بركوب الأمواج على ألواح من الخشب، وتنتشر لعبة "الاختفاء والبحث" في جزر بانكس، ولعبة "مهد القط" في كل مكان[٢٤]. وتنتشر في هبريدة الجديدة وبانكس لعبة يسمونها تيجا (tiga)، والتيجا فلقة من القصب لها رأس من الخشب الثقيل تقذف باليد، ويفوز من يقذفها إلى أبعد مسافة. والرقص تسلية محبوبة في جميع الأنحاء، وتقوم معظم الرقصات على أساس من محاكاة حركات الحيوان، وتلبس الأقنعة في الحفلات الراقصة التي يقيمونها في المناسبات.

---

(٢٤) لعبة مهد القط معروف في مصر ولكن لا يعرف لها اسم وهي اللعبة التي يلف فيها شخص خيطاً حول أصابعه كلها ويرسم منه أشكالاً مختلفة تتغير في مظهرها كلما حرك أصابعه وحرك الخيط معها.

ولدى هؤلاء الأقوام أنواع عديدة من الآلات الموسيقية، فالدفوف- وقد سبقت الإشارة إليها- معروفة في جميع أنحاء ميلانيزيا ما عدا سانتا كروز فلوريدا. وتتميز الدفوف في هبريدة الجديدة بضخامة أحجامها وبما يحلى أحد طرفيها من الرؤوس ذات الأشكال الغريبة. وفي جزر أدمر التي دفوف ضخمة أيضاً يصنعونها غالباً على شكل حيوان. وفي بريطانيا الجديدة تصنع طبول من جلود السحالي، وفي كاليدونيا الجديدة وبريطانيا الجديدة توجد الصفافير وهم ينفخون فيها بالفم أو بالأنف، وفي جزر سليمان وبريطانيا الجديدة وأدمر التي نوع من العود صغير الحجم، ويوجد المزمار المتعدد القصبات في هبريدة الجديدة وبريطانيا الجديدة وإيرلندة الجديدة. وفي جزر سليمان وبريطانيا الجديدة آلات وترية بدائية الصنع.

ويتصرف الميلانيزيون في جثث موتاهم بطرق شتى، ولكن الدفن معروف في كل مكان، على أن من العادات الشائعة في الجهات التي يمارس فيها الدفن أن تستخرج بقايا جسد الميت بعد مضي مدة على دفنه. وفي جزر سليمان وبريطانيا الجديدة يستخرجون الجسد ويفصلون منه الجمجمة ليحتفظوا بها ثم يعيدون باقي الجسد إلى مدفنه. وفي جزر أدمر التي توزع بعض أجزاء الجثة على بعض الأقارب ليحتفظوا بها على سبيل التذكار وفي كاليدونيا الجديدة تعلق الجثة فوق شجرة، وفي بعض الجزر الأخرى تغطس الجثة أو العظام في البحر، وفي جهات أخرى لا يزيدون على ترك الجثة حتى تتحلل، بينما في أيرلندة الجديدة تترك الجثة فوق هيكل خشبي توقد تحته النار، حتى إذا أنهار الهيكل استخرج

الكبد ووزع على المشيعين ثم ترك سائر الجثة تأكله النار.

ويلجأ الميلانيزيون في علاج الأمراض إلى الحجامة وإلى منقوع الأعشاب المغلية وإلى التدليك والسحر. على أن سكان بريكانيا الجديدة كانوا يمارسون تربنه الجمجمة إذا أصابتها قذيفة من مقلاع. ويسود الاعتقاد بأن المرض إنما يكون بسبب أعمال سحرية أتاها عدو من الأعداء، وقد يكون بسبب دخول روح خبيثة إلى جسد المريض. وينحصر العلاج بالسحر لهذا النوع الأخير في قراءة التعاويذ ومقابلة السحر بالسحر، أحياناً بامتصاص "الحصاة" أو "السحر" الذي يعتقدون أنه سبب المرض. ويمارس السحر الأسود أحياناً بالاستعانة بتمثال يقطعون أوصاله، اعتقاداً منهم أن الشخص الذي يمثله ذلك التمثال سيقاسي نفس الآلام. ويمارس السحر في كل مكان في ميلانيزيا. ولكن ليس للسحرة المحترفين وجود إلا في أيرلندة الجديدة.

وديانة الميلانيزيين معقدة تعقيداً كبيراً، ويبدو أن قواعدها الأساسية تنحصر في الاعتقاد في "مانا" وفي الفزع من الأرواح. و"مانا" عبارة عن قوة أو سلطان مما وراء الطبيعة. "ويوجد عدا ذلك الاعتقاد العام في "مانا" وهي قوة أو سلطان خارق، وهي لا تتجسد، لكنها مع ذلك ترتبط دائما ببعض الأشخاص أو الأرواح أو الأشباح الذي يوجهونها أو يتحكمون فيها، وهي نوع من القدرة أو الفضائل الروحية انتقلت من

الملأ الأعلى إلى الإنسان انتقالاً مباشراً أو بوساطة جسم مادي"[٢٥].

وتأتي الأرواح أعمالاً طيبة كما تأتي أعمالاً سيئة، ويحاول الناس أن يتقربوا إليها وأن يعبدوها، ولكن وسيلتهم في ذلك تختلف اختلافاً كبيراً في الانحاء المختلفة من ميلانيزيا. وهذه الأرواح نوعان: أرواح من مات من الرجال ذوي النفوذ، أي الذين كانوا في حياتهم ذوي"مانا"، وأرواح لم تكن أبداً من البشر. والنوع الأول منها أكثر أهمية في غرب ميلانيزيا، بينما النوع الثاني أكثر أهمية في شرقها. ولأرواح الموتى أهمية كبيرة في جزر سليمان، ومن عادة أهلها إذا جلسوا للطعام أن يلقوا جانباً بقطعة صغيرة منه يهبونها للأموات، وأن يدعوا في نفس الوقت دعاء قصيراً طلباً لعونهم. وفي جزر سليمان يبنون أضرحة يجمعون فيها عظام الأبطال وصورهم ويقدمون فيها البذور لهم. وكانوا فيما مضى يقدمون الضحايا البشرية إذا أنزلوا إلى البحر قارباً جديداً أو شيدوا للقوارب منزلاً جديداً. أما اليوم فإنهم في هذه المناسبات يضحون بالخنازير بدل الإنسان. وهم يؤمنون بالآخرة ويعتقدون أن الروح تسلك طريقاً محفوفاً بالأخطار قبل وصولها إلى المقر الأخير الذي تنتهي إليه الأرواح؛ وهذا المقر يوجد حسب اعتقادهم في مكان ما إلى الغرب. والمعتاد أن لا تفوز الروح بالمنزلة المرموقة في ذلك المقر إلا إذا كامن روح بطل أو عالك أو شهيد قضى في الحرب.

وثقافة البولينيزيين أعلى مستوى من ثقافة الميلانيزيين، ومع ذلك

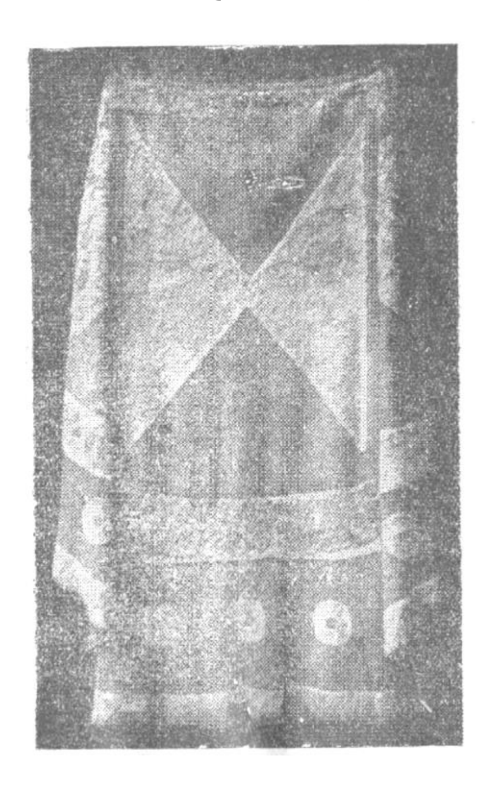
---

(25) Keane. A. H. mAN: Past & Present.

فالبولينزيون لا يصنعون الفخار ولا يعرفون الأنوال ويجهلون استعمال المعادن. وهم جميعاً- فيما عدا سكان جزيرة إيستر- لا يعرفون فن الكتابة. وقد ذكرنا فيما سبق أن البولينيزيين أمهر الشعوب البدائية جميعاً في الملاحة، وأن موارد الرزق المحدودة في بلادهم قد خلقت منهم زراعاً وصائدي أسماك. وهم يزرعون النباتات التي جلبوها إلى بلادهم، وأصبح التارو وثمار الخبز أكثر أهمية لهم من الصرغم. وهم أرقى في الزراعة من الميلانيزيين، وقد يرجع ذلك- فيما يرجع- إلى بيئتهم الخاصة، لأن مناخ بلادهم أكثر جفافاً من مناخ ميلانيزيا، ولذلك أصبح الري عندهم أكثر ضرورة. وكثيراً ما يزرع التارو في مزارع مدرجة تروي بتحويل مجاري القنوات إليها. ولما كانت الحياة الحيوانية على الجزر قليلة جداً، أصبح للخنازير التي أدخلوها بلادهم قيمة تفوق قيمتها لدى أهل ميلانيزيا، وهم يربطونها في المرعى أو يحفظونها في حظائر قريبة من المساكن ويطعمونها بانتظام. أما الدجاج الذي استورده فإنهم- فيما عدا سكان جزيرة إيستر النائية- لا ينتفعون به إلا قليلاً، فهم لا يأكلون لحمه ولا بيضه. ويقتصر الصيد- بسبب انعدام الحيوانات في بلادهم- على صيد الطيور بالحبالات والفخاخ، وهو أمر كثيراً ما يأخذ طابع الرياضة لا طابع العمل وهم في العادة يتركون اللحم للزعماء.

والنساء هن اللاتي يقمن بإعداد الطعام، ولكن عملية الطهي ذاتها يقوم بها في العادة الرجال. ويتم الغلي- لجهلهم بالفخار- عن طريق إسقاط حجارة محمية في أوان من الخشب. أما الخبز فيكون في حفرة قطرها نحو ثلاثة أقدام تملأ بخشب فوقه حجارة لا تتشقق بفعل النار،

ثم تولد النار بطريقة "المحراث" فيشتعل الخشب، وبعد أن تأتي عليه النار تتساقط الحجارة المحمية إلى قاع الحفرة، وعندئذ يأتون باللحم، الذي يكون قد سبق لفه في أوراق الأشجار، فيضعونه على الحجر ويضعون فوقه الصرغم والتارو وثمار الخبز، ثم يغطى الجميع بأوراق الأشجار ويهال عليه التراب منعاً للحرارة من التسرب. وبعد بضع ساعات يكشف عن اللحم فإذا به ناضج تماماً.

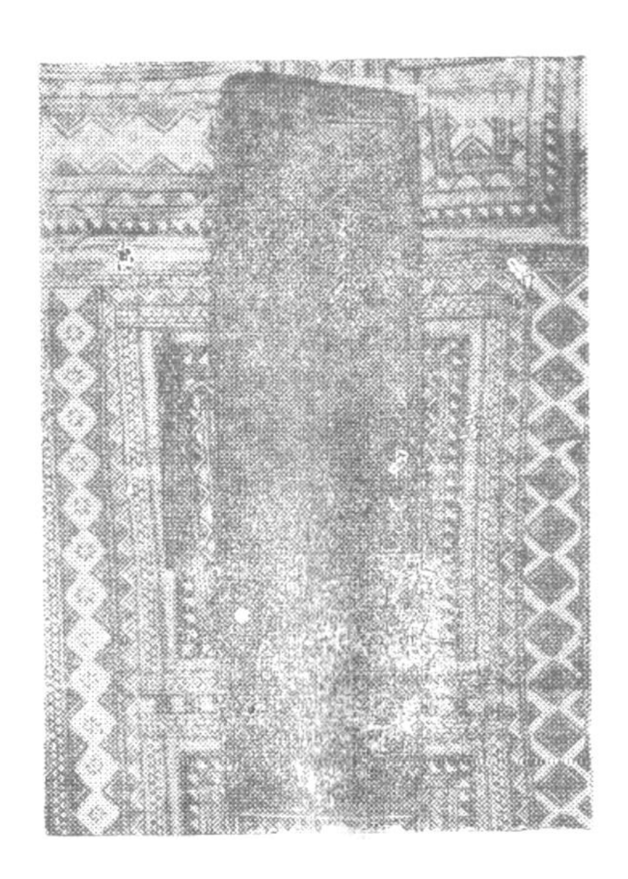


(شكل ٦٩) مئزرة من الريش يلبسها أعيان الرجال في هاواي

ويسير الأطفال في العادة عرايا، ولا يلبس الرجال والنساء شيئاً فوق ما يعلو الوسط من أجسامهم، كما أنهم لا يضعون شيئاً فوق رءوسهم ولا

في أقدامهم. ويلبس الرجال فوق الكشحين مآزر من التابا (الحصير المجدول)، وتلبس النساء مآزر تتدلى إلى الركبتين وتصنع من التابا أو من (سلخات) مجدولة من أوراق الأشجار. وكثيراً ما تلتفع النساء في الجهات الأقل حرارة بقطعة كبيرة من التابا، كما تصنع من نفس المادة أحياناً الملابس التي يرتدينها في الحفلات. وفي هاواي يلبس ذو الجاه أحيانا عباءات فخمة مصنوعة من الريش الأحمر والأصفر. وتصنع العباءة أولاً من الريش الأحمر ثم ترسم عليها بالريش الأصفر والأسود أشكال هندسية منوعة. وعندا استقر الماروي في نيوزيلندة الجديدة وجدوا أن استعمال الملابس ضرورة يحتميها المناخ البارد، ولكنهم لم يجدوا أشجاراً تصلح لصنع التابا، على أنهم وجدوا هناك "الكتان الزيلندي" فعالجوه بمهارة وصنعوا منه أنواعاً من النسيج تعرف "بالقماش المربوط". وكانت ملابس المارو تتكون أساساً من مئزرة وعباءة تختلف في شكلها وفي نوعها، فكانت أحياناً تغطى بريش الموا (moa) أو ريش الكيوي (Kiui)، وأحياناً بقصب الغاب أو سيقان الكتان، وكان هذا الأخير يستعمل للوقاية من المطر.

و"تابا" هو اسم القماش من لحاء الشجر يصنعه البولينيزيون، وهو أرقى نوع من نسيج اللحاء في العالم. وطريقة صنعه أن تنزع النساء لحاء توت الورق (Paper-mulberry) ويفضل في ذلك لحاء الأشجار الصغيرة. وينقع اللحاء في الماء بضع ساعات ينشر بعدها على لوح من الخشب ......



(شكل ٧٠) قطعة من نسيج "التابا" المنقوش

.... وتفصل الطبقة الداخلية للقشرة عن الطبقة الخارجية بواسطة سكين من المحار وبعد أن تغسل القشور الداخلية جيداً ترص بعضها إلى جوار بعض بحيث تبلغ المقاس المطلوب، ويرص منها عادة ثلاث طبقات بعضها فوق بعض، ثم تترك كلها إلى اليوم التالي حيث تكون أجزاؤها قد تلاصقت، ثم يؤخذ الجميع ويوضع فوق لوح من الخشب أو فوق مطرقة ويدق أو يلبد بعضه في بعض بمدقة من الخشب، ويستمر رش القماش بالماء طول عملية التلبيد. وعن ما يجف القماش تماماً

تنقش عليه أشكال مختلفة بالرسم باليد أو بالتلوين بأصباغ نباتية. ومن المستطاع الحصول على قطع كبيرة من التابا بخياطة القطع الكبيرة بعضها إلى بعض أو بإلصاقها بصمغ يحصلون عليه من أشجار التوت.

ونسيج التابا طويل الاحتمال طالما لم يمسسه الماء، ولكن لما كان غير قابل للغسل فإنه سرعان ما تعلوه الأقذار، على أنه من الممكن أن يقاوم المطر إذا دهن بالزيت.

وتنتشر في كل مكان عادة وشم الجسم ولا سيما بين الخصر والركبتين، ولكن وشم الوجه نادر إلا في نيوزيلند الجديدة حيث الإكثار من التزين بهذه الطريقة. ومن عادتهم الشائعة التزين بالعقود والأساور والحلي الاتي تلبس على الصدر، وهي تصنع غالباً من المحار أو من عظام الحوت. وتتدلى حلي الصدر في الغالب من خيط رقيق مفتول من شعور بشرية. ويمتاز الماوري بلبس دلايات ذات أشكال غريبة محفورة من حجر اليشب (Jade) أو من عظام الحوت يسمونها تيكي (Tiki) وفي جزر إيستر وماركيز تخرق شحمه الأذن وتلبس فيها الحلي، بينما يلبس أهل هاواي وتاهيتي وصاموا أكاليل من الزهور، وكذلك يستعمل الريش للزينة، ويتزين سكان جزر ماركيز وإيستر بتيجان من الريش، على أن أحسن أدوات الريش ما يصنع في هاواي من عباءات وعقود وخوذات وأصنام.

وتختلف المساكن في أشكالها، ولكنها في العادة ذات شكل مستطيل تقريباً، وتقوم على هيكل خشبي في وسطه عمود مركزي أو

أكثر. وتثبت أجزاء الهيكل بعضها إلى بعض لا بالخوابير ولا بالمسامير بل بأربطة من ألياف جوز الهند تنظم عادة تنظيماً جميلاً بحيث تنتج عنها أشكال زخرفية. وتغطى السقوف بالقش وخوص النخيل وأوراق الباندانا أو أوراق قصب السكر. وتصنع الحوائط من قصب البامبو الملفوف أو خوص النخيل المجدول، ولكن المنازل في صاموا ليس لها حيطان بل يكتفي بستائر مجدولة من أوراق جوز الهند تثبت أطرافها في السقف وتتدلى بالحبال عند الحاجة ويقام كثير من المساكن فوق رصيف من الحجارة يفرش بحصير مجدول من الباندانا أو أي مادة أخرى. ويسكن المنزل الواحد في المعتاد أسرة واحدة، ويبلغ طوله في الغالب نحو ثلاثين قدماً، أما المنتديات ومساكن الزعماء وملاك الأرض فهي أكبر من ذلك كثيراً، فقد يبلغ طولها من خمسين إلى مائة ياردة وعرضها نحو نصف ذلك القدر، وتقوم على رصيف ذي واجهة من الحجر أو ترتفع أرضها المغطاة بالخشب نحو قدمين أو ثلاثة أقدام فوق سطح الأرض. ويقوم بتشييد المساكن نجارون متخصصون لهم اتحاداتهم الخاصة، ولكل اتحاد رئيسه الخاص وتعاليمه الخاصة، وكان الماوري في نيزيلند– حيث المناخ أبرد– يبنون مساكن خشبية متينة مربعة الشكل لها سقف مقبب وفراندة، وأرضها منخفضة. وكانت عارضات الأبواب وقباب السقوف في مساكن الكبراء تزين زينة بديعة بالنقوش والألوان.

وفي وسط المسكن مكان للنار مكشوف، ويضيئه أثناء الليل نور خافت ينبعث من مصباح بدائي النوع يتركب من ذبالة موضوعة في قشرة من قشور جوز الهند مملوءة بالزيت. وبالمسكن قليل من الإناث فيما

عدا بعض الحصير والناموسيات والوسائد المصنوعة من قصب البامبو.
وأهم الأدوات والأواني المنزلية سكاكين من قصب البامبو أو من الصخر المشطوف، ومكاشط من المحار وبلط من الحجر أو المحار المصقول، ومباشر لجوز الهند، ومخاريق للحفر، وإبر لصنع الشباك، ومبارد من أسنان سمك القرش لصقل الخشب، أمشاط خشبية محفورة، وملاقط منن الخشب أو من البامبو يمسكون بها الحجارة المحمية، وقصع محفورة من الخشب، وأوان للماء من الخشب أو القرع أو قشر جوز الهند، وحبال وسلال مجدولة. وأهم أسلحتهم نبابيت من الخشب المتين منوعة الأشكال والأحجام ومزينة في الغالب بنقوش بديعة، وحراب وخناجر أو سكاكين (وهذه الأخيرة قد يسلح نصلها بأسنان سمك القرش كما في هاواي) وأقواس، ولكن هذه كانت قليلاً ما تستعمل، ولم تكن في بعض الجهات تستعمل إلا لقتل الفيران، ومقاليع وقذائف.

وأهم الآلات الموسيقية الطبول والصفافير المصنوعة من المحار اللولبي، ومزامير تنفخ بالأنف مصنوعة من قصب البامبو، لكن في هاواي تصنع الصفافير من القرع الصغير كما يوجد بها آلة وترية بسيطة الصنع. ويغرم البولينزيون بالرقص، ويشترك الرجال والنساء في حفلات الرقص الفخمة التي تعقد في مناسبات كثيرة والتي تصاحبها أناشيد تعبر عن أساطيرهم القومية. وهم مغرمون بالألعاب المنزلية والخلوية، ومن بين هذا النوع الأخير نجد السباحة والغطس، وركوب الأمواج على ألواح من الخشب أكثرهم متعة لهم.

والحياة الاجتماعية والسياسية أكثر تقدماً في بولينزيا منها في ميلانيزيا، ومركز المرأة أرفع نسبياً، ولمنها تتعرض هنا لضروب من المنع، فبعض أنواع الأطعمة مثلاً محرمة عليها، كما أنها في أكثر الجزر لا يسمح لها بمشاركة الرجل الطعام. والروابط العائلية غير قوية، وهم يمارسون قتل الأطفال، كما يمارسون تعدد الزوجات. ولا يحد من عدد زوجات الرجل إلا موارده المادية أو قلة عدد النساء، والعائلة هنا– كما في ميلانيزيا– هي وحدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وهي صورة مصغرة للقبيلة.

وينقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات رئيسية: الأشراف أو الزعماء، والأحرار، والرقيق، والمعالم التي تفصل هذه الطبقات واضحة وضوح المعالم التي تفصل بين طوائف المجتمع الهندي، ويزيد في تميزها عدة "محرمات" (أوتابو). وتتحكم في المجتمع البولينيزي طبقة الزعماء التي يحيطونها بهالة من القداسة، فكل ما يتعلق بالزعيم يعتبر مقدساً (تابو)، وكل طريق يسير فيه، وكل منزل يدخله، وكل شيء يمسه لا يحل لمسه لمن هم دون طبقته. وللتابو، وهو صفة القداسة التي يكتسبها أي شيء تعلن قداسته، سلطان عظيم في بولينيزيا، وكثير من الأطعمة تعتبر "تابو" ويحرم على الرقيق وعلى النساء أن يطعموها. وقد بلغ من خشية التابو أن أي رقيق يلمس أداة يملكها الزعيم ولا يقتل يموت فرقاً إذا تدبر عاقبة ما جنت يداه. وفي مجموعات الجزر الكبرى– حيث استقر الأمر لنظام ملكي دائم– يوجد مجلس يضم الزعماء الذين يلون الملك في المنزلة، وفي بعض الجزر يوجد زعيمان رئيسان، كما في تونجا مثلاً،

أحدهما شخص مقدس لا يحمل من أعباء الحكم إلا قليلاً، بينما الآخر دونه في المنزلة ويشرف على كل أمور الدولة ويقود الرجال إلى المعارك.

وبين العقائد الدينية في الأنحاء المختلفة من بولينيزيا تجانس كبير، وهذه العقائد، مثل نظمهم الاجتماعية، أرقى ن عقائد الميلانيزيين، ويؤله البولينيزيون أسلافهم ويؤمنون بعدد من الآلهة بعضها عظيم وبعضها أقل منزلة، ويقيمون لهؤلاء الأخيرين أوثاناً يعبدونهم في أشخاصها. وقد نتج عن تعدد آلهتهم ظهور طبقة قوية من رجال الدين كثير منهم عريق النسب، ومن مهامهم التي يقمون بها تقديم القرابين البشرية وحفظ الإنساب الملكية، وهم يعتبرون مقدسين، ولذلك يعتبر كل ما يتعلق بهم "تابو" وتحفظ صور الآلهة العظام عادة في معابد كبيرة ذات أسوار يقطن رجال الدين فيها أو بالقرب منها، وفي هذه المعابد تقدم الضحايا البشرية، وهو أمر كان شائعاً في كل مكان من بولينيزيا. وهناك أيضاً الآلهة الأقل منزلة، مثل الآلهة الخاصة بالأسرة والمعبودات التي تشرف على الصناعات المختلفة. ورجال الدين الذين يخدمون هذه الآلهة أدنى منزلة ولا يزيدون قدراً على مدعي الطب.

ويعتقد البولينيزيين أن أصحاب النسب العريق ينتقلون بعد الموت إلى عالم آخر حيث يحيون حياة مماثلة جداً لحياتهم في هذه الدنيا، وهذا المستقر الذي تنتهي إليه الأرواح، والذي لا تصل إليه مباشرة أو دون عناء موجود في اعتقادهم في مكان يقع فيما وراء مغرب الشمس. ويعتقد كثيرون أن الروح بعد أن تفارق الجسد تظل زمناً تحوم حول

مسكنها القديم، وقد تنزل بالناس الأذى.

ويتصرف البولينيزيون في موتاهم بطرق شتى، ولكنهم لا يحفلون إلا قليلاً بجثث من كانوا في حياتهم من المهملين، أما جثث النبلاء فقد تعرض فوق مرتفع من الأرض مدة من الزمن، ثم يكشط ما قد يتبقى فوقها من لحم وتجمع العظام جميعاً ثم تودع مكاناً أميناً كالمعبد مثلاً. وفي بعض الجهات يدفنون الجثة في المنزل أو في مكان مقدس يكوم فوقه التراب. ومن العادات الشائعة أن الملك إذا مات قام كل فرد من الرعية بتشويه جسمه بالتشريط أو بقطع أحد أصابعه.

ولا يتسع المجال أمامنا لذكر الكثير عن الميكرونيزيين، لأن ثقافتهم تشتمل على مظاهر من ثقافات ميلانيزيا وبولينيزيا والملايو. ويستعمل الميكرونيزيون قليلاً من جداً من الملابس، ولكنهم مغرمون بأدوات الزينة ولا سيما أمشاط الشعر الجميلة التي يغلب أن يزينوها بالريش. وينشيء الميكرونيزويون قوارب ممتازة ولهم مهارة في الملاحة والتجارة، والواقع أن التجارة قد ازدهرت وانتشرت بفضل استعمال أنواع متعددة من العملة. وينقسم المجتمع- كما في بولينيزيا-إلى طبقات، وللتابو بينهم سلطان كبير، وينتشر استخدام المنتديات في كل مكان.

وقد كان الواجب يحتم علينا أن نقصر الكلام على الماضي في أكثر ما كتبنا آنفاً، لأن ثقافة هذه الشعوب قد تعرضت على أثر الاختلاط بالأوروبيين لتغيرات كثيرة، قد يكون أقلها ما حدث في جزيرة صاموا. ولا يزال الأهالي في قلب جزيرة اسبرتو سانتو لم يتأثروا تأثراً

يذكر بوجود الأوروبيين على شواطئهم، وأنه لا يوجد في العالم كله إلا قليل من الأماكن مثل اسبرتو سانتو يستطاع فيها دراسة المجتمعات البدائية على حقيقتها". وقد كتب هاريسن Harrison في سنة ١٩٣٦:

"ولا تزال الأمور في قلب ما ليكولا أكثر انحطاطاً، فلا يزال السحر يمارس واللحوم البشرية تؤكل، وهما أولى الظواهر التي يقضي عليها وجود الرجل الأبيض. ولا تزال الأدغال في قلب سانتو وماليكولا- وإلى درجة أقل أمبريم وبنتكوست- أقل جهات المحيط الهادي مدينة في الوقت الحاضر، وتشبهها من بعض الوجوه جهات قليلة في جزر سليمان، كما أن الروح القديمة لا تزال موجودة تحت ستار من التمدن في جهات متفرقة من بولينيزيا مثل تواماتوس الشرقية. وفيما عدا ذلك لا يوجد اليوم شبه بين سكان البحار الجنوبية وبين أسلافهم، فقد وصلت بولينيزيا كلها إلى عصر "البفتة"، ولكن السكان في قلب ماليكولا بجزر هبريدة الجديدة لم يعرفوا "البفتة" بعد، وقد انتهى العصر الحجري في كل مكان وبزغ فجر عصر "الأحذية" في الأنحاء الشرقية"[٢٦].

وقد كادت الأساليب الهمجية- كأكل لحوم البشر وقتل الأطفال والحروب والثأر للقتلى- تختفي من الجزر جميعها، كما أن كثيرين منهم قد اعتنقوا المسيحية. وقد كتب أحد المبشرين في سنة ١٨٦١ عن التغيرات التي طرأت نتيجة تحولهم إلى المسيحية فقال.

([26]) Harrison, T. H. "The New hebrides people and Culture", Geog. Journal. 1936.

"ما كادت البعثات الدينية تحل بالجزر حتى طرأت تغيرات ملحوظة، فقد شاع استعمال المعاطف والصدريات ومناديل العنق وقبعات الخوص، وبدأت النساء تستعمل أردية واسعة من "البفتة"، وكان يندر أن يظهرن بغير رداء خارجي من نوع ما؛ وكان من نتيجة ذلك أن ازدهرت المصالح التجارية للدول المتحضرة، فقد بلغت قيمة الواردات من البضائع القطنية وحددها، دون سائر المصنوعات المستوردة من الخارج، نحو ١٥ ألف جنيه في السنة، ولا تزال آخذة في الزيادة كل عام".

وقد جلب المبشرون والتجار أمراضاً كالحصبة والإنفلونزا، كان من أثرها القضاء على عدد كبير من السكان، وزاد في عدد الوفيات ما جلبه التجار من الأسلحة النارية، وقد نتج عن كل ذلك أن هبط عدد الأهالي الوطنيين إلى الثلث في مدى خمسين عاماً، ففي سنة ١٨٧٠ كان عدد أهالي بولينيزيا ٦٩٠ ألفاً، ولكن ما وافت سنة ١٩٣٠ حتى كان هذا العدد قد هبط إلى مائتي ألف. وهبط عدد أهالي ميلانيزيا من ثلاثة ملايين إلى ما يقرب من مليونين، وهبط عدد أهالي ميكرونيزيا من ٢٧٣ ألفاً إلى أقل من تسعين ألفاً. لكن الدلائل تدل على أن عدد السكان في بعض الجزر آخذة في الزيادة في الوقت الحاضر، وهذا لا ريب راجع إلى حد كبير لحسن الإدارة، ومنذ مائة عام كانت بعض جزر بولينيزيا قد خلت من سكانها على أثر حملات قام بها مغيرون شيليون بحثاً عن عمال للمناجم في بلادهم، ولكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الانحلال قد أخذ منذ مدة طويلة يدب في بولينيزيا، وربما كان هذا راجعاً إلى المناخ الذي يبعث على الخمول وإلى أسباب الحياة الميسرة، ففي

طول الجزر وعرضها بقايا آثار ضخمة، تشتهر بها على الأخص جزيرة إيستر، وحقول مدرجة مهجورة، وهذا هو كل ما خلفه سكان الجزر الأولون.

مصادر الكتاب

- Schebesta, Paul, AMONG CONGO PYGMIES.
- Wollaston, A. F. R., PYGMIES AND PAPUANS.
- Hill-Tout, C., THE NATIVES OF BRITISH NORTH AMERICA.
- Marett and Penniman (ed.), SPENCER'S LAST JOURNEY.
- Jenness, Diamond, THE PEOPLE OF THE TWILIGHT.
- Weeks, John, AMONG CONGO CANNIBALS.
- Westermann, D., THE AFRICAN TO-DAY.
- Gardiner, J. Stanley, CORAL REEFS AND ATOLLS.
- Forde C. Daryll., ANCIENT MARINERS.
- Myres J. L., THE DAWN OF HISTORY.
- Haglund, Sven, LIFE AMONG THE LAPPS.
- Stevenson R. L., IN THE SOUTH SEAS.

الفهرس